الحياة الادبية فى إشبيلية فى القرن الخامس

— ٣ —

محمد بن عمار

محمد بن عمار الأندلُسىّ

دراسة أدبية تاريخية

لألمع شخصية سياسية فى تاريخ دولة بنى عباد

فى إشـبيلية

تأليف

الدكتور صلاح خالص

مدرس الأدب الأندلسى فى كلية الآداب والعلوم

ببغداد

ساعدت وزارة المعارف على طبع هذا الكتاب

محمّد بن عمّار الأندلسي

دراسة أدبية تاريخيه

لألمع شخصية سياسية في تأريخ دولة بني عباد

في اشبيلية

تأليف

الدكتور صلاح خالص

مدرس الأدب الأندلسي في كلية الآداب والعلوم

بغداد

مطبعة الهدى - بغداد

١٩٥٧

الاهداء

الى المكافحين في غياهب ظلمات الجهل من أجل نور المعرفة ..
الى المناضلين في أغلال الاستعباد من اجل الحرية ..
رمز تقدير وأعجاب

المؤلف

مقدمة

كان جديراً بهذا الكتاب أن يظهر بعد دراستين تسبقانه، تمهدان له الطريق وتهيئان له السبيل، الأولى دراسة تاريخية اجتماعية وسياسية عن فترة ملوك الطوائف في الأندلس ونشوء دولة بني عباد في إشبيلية. والثانية دراسة تفصيلية عن المعتمد بن عباد الاشبيلي، وهو مركز الحركة الأدبية الأندلسية في النصف الثانى من القرن الخامس، وقطبها الذى تدور حوله، والذى له في حياة جل شعراء إشبيلية فى هذا العصر أثر غير قليل. ولكن ظروفاً خاصة اضطرتنا لنشر هذا الكتاب قبل سابقيه وهو كما يرى القارىء، قائم بذاته وذو وحدة موضوعية كاملة ولم أشأ كما يفعل كثير من الكتاب – أن أطنب في حديث طويل عن بيئة الشاعر الاجتماعية وظروفه التاريخية، بل آثرت أن اختصر الحديث في هذا الموضوع فى الصفحات التالية التي مهدت فيها للبحث، على أن أترك للدراستين اللتين آمل ظهورهما فى الشهور القليلة القادمة مهمة البحث باسهاب عن البيئة الاجتماعية والظروف السياسية التي أحاطت بالشاعر وأثرت في حياته وفي تكوين مقومات شخصيته.

والكتاب – كما يرى القارىء – قسمان: أحدهما، دراسة عن حياة الشاعر وشعره. وأعتقد أن أهمية هذه الدراسة لا ترجع لما فيها من معلومات محققة عن حياة الشاعر وشعره فقط، وإنما لاسلوب البحث ذاته أيضاً. فقد شاعت منذ مطلع القرن العشرين طريقه سقيمه فى دراسة الأدب

والأدباء ، أفقدت الأدب كثيراً من حلاوته وطراوته ، وهي تلك التي اتبعت في جل كتب تاريخ الأدب الحديثة ، والتي يعكف فيها الباحث على الشاعر فيضم كل مايعثر عليه من أخبار عن حياته بعضه الى البعض الآخر في ترجمة طويلة ، ثم ينتقل بعد ذلك الى شعر الشاعر ، فيقدم نماذج من أغراضه المختلفة معلقاً على كل غرض من هذه الأغراض بما يعن له من خواطر وآراء ، واذا بالقارىء يمر على النصوص مراً ، ويبذل مايبذل من جهد لكي يستوعب الافكار التي تحتويها والتيارات العاطفية التي تتخللها ، فلا يصل الى ذلك إلا بعد مشقة وعسر قد لا يقوى عليها القارىء الاعتيادى ..

أما أسلوبنا هذا الذى اتبعناه فى البحث ، فهو يهدف الى رسم صورة قوية للاديب والتغلغل في أعماقه ومتابعته في حياته وملاحظة تطور مشاعره ونفسيته وأخلاقه الناتج عن تطور ظروفه ، وإدراك تأثير كل ذلك في إنتاجه الأدبي . وهكذا يشاهد القارىء مولد النص ويدرك بواعث هذه الولادة وعواملها وظروفها ويستوعب التيارات الشعورية التى اجتاحت نفس الشاعر وملكت عليه عواطفه ودفعته الى النظم ، ويحس إحساساً عميقاً بالقوى الملهمة للاديب ويعرف تأثيرها دون مشقة وعسر ، فهى تفرض نفسها عليه فرضاً ثم إن القارىء بعد كل هذا يتابع تطور الأديب في إنتاجه الأدبي ، كما لاحظ تطور حياته ونفسيته وأخلاقه ومشاعره ، ويدرك عوامل هذا التطور في هذا الانتاج وأسبابها ، فيتحقق الغرض من دراسة تأريخ الأدب إن كل هذه المزايا لا يمكن أن تتحقق بالطريقة السقيمة

الشائعة التي أشرنا اليها .

ولا أزعم طبعاً ، أني أول من اتبع هذا الاسلوب فى البحث او سلك هــذا الطريق فى دراسة الأدب ، فقد سبقني الى ذلك أدباء من العرب والغربيين ، وإن كان الأولون قلة لاتتجاوز أصابع اليد الواحدة ، أخص بالذكر منهم الدكتور طه حسين في كتابه « مع المتنبي » . وأما الغربيون فهذه طريقتهم المثلى وأسلوبهم الشائع في دراسة أدبائهم . متابعة تطوراً دبهم

وقد حرصت على تقديم ابن عمار إنساناً كبقية البشــر ، له محاسنه ومثالبه ، فلم أحاول أن أسبغ عليه ثوباً براقاً من العظمة والمجد ، كما لم أتجه الى النيل منه والحط من قدره ، وإنما حاولت تصويره كما هو ، معتمداً ، أولا على شعره ، وثانياً على ماوردنا من أخبار وثيقة عن حياته ، فحرصت على أن أعيش معه في طفولته المشردة وصباه المعسر الكئيب ، وانتقلت معه في كفاحه من أجل الحياة الى حين ارتقائه سلم المجد وبلوغه ذروة العظمة والسلطان ، ثم تابعته بعد ذلك في انحداره الفظيع الى درك الذل والأسر حتى بلوغه نهايته المفجعة .

ولــكن أهمية دراسة حياة ابن عمار لاتقتصر على كونه إنساناً فحسب ، وإنما تتعدى ذلك الى كونه إنساناً عاش فى عصر معين . ففيه يتمثل جانب مهم جداً من عصره ، بل إننا نرى فى حياته صورة لتلك الفترة المضطربة التي مرت على مسلمي الأندلس في القرن الخامس الهجرى ، بما فيها من صخب وضجيج ، بما فيها من تيارات سياسية وأزمات اجتماعية ، ومشاكل

مصدرها هذا الوضع الخاص الذى كان يتميز به المسلمون فى اسبانية آنذاك .
إن أبا بكر بن عمار كان في الواقع من أولئك الاشخاص القلائل الذين يتمثل فى حياتهم جانب مهم ، بل جوانب مهمة ، من حياة مجتمعهم كل التمثيل . ولا شك في أن القارىء سيجد عند انتهائه من قراءه هذا البحث ، أنه لم يدرس حياة شخص واحد فقط ، وإنما اطلع على جانب من أهم جوانب حياة المجتمع الأندلسى في القرن الخامس الهجرى .

ولا ريب أن قلة الأخبار وندرة المصادر كانتا العقبة الكأداء التى حالت دون ملء الفراغات التى يجدها القارىء في حياة الشاعر ، مع أننا لم نأل جهداً في البحث عن المصادر المطبوعة والخطية في مظانها ، فزرنا جل مكاتب المخطوطات في اوربا وشمال افريقية ، وكان لهذه الجهود دون شك الفضل فى ظهور هذه الدراسة بالشكل الذى تظهر فيه الآن ، ومع ذلك فلنا كبير الأمل بالعثور على مخطوطات جديدة قد تملأ بعض الفترات التى لانزال نجهلها في حياة الشاعر .

وقد اقتصرنا في مصادر البحث التى ذكرناها هنا ، على المصادر الرئيسية التى زودتنا بشيء عن حياة الشاعر أو عن أدبه ، أما تلك التى لم نفد منها فقد آثرنا عدم ايرادها ، لأنها ليست من يصح الاعتماد عليه في دراسة حياة الشاعر ومن هذه جل الدراسات الحديثة .

بغداد في آب ١٩٥٧ صلاح خالص

الموافق المحرم ١٣٧٧

تمهيد تاريخي

أهم ما يلفت النظر فى تأريخ المسلمين في الأندلس ، هى الأحـداث الخطيرة التى حدثت في أوائل القرن الخامس الهجرى والتى كان من نتيجتها انحلال الخلافة في قرطبة وابتداء فترة ملوك الطوائف وما كانت هـذه الاحـداث لتحصل على ما حصلت عليه من أهمية واهتمام لولا أنها جاءت مباشرة بعد بلوغ الخلافة الاسلامية فى إسبانيا ذروة العظمة والمجد والقوة ، ولولا أنها تلت فترة منعة وازدهار سياسى وانتصـارات خارجية رائعة واستتباب داخلي تام . أقول إن هذه الأحداث التى أطلق عليها المؤرخون اسم « الفتنة » ما كانت لتلفت النظر وتجلب الاهتمام وتصبح موضع نقاش وجدال ، لولا انها أعقبت مباشرة عصر حكم المنصور بن أبى عامر وابنيه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن شنجول ، عصر عظمه دولة المسلمين في الأندلس ومجدهم السياسى والعسكرى الزاهر .

كيف جاز لدولة قوية منيعة كتلك التى بناها عبد الرحمن الناصر وأسندها الحاجب المنصور وابنه الحاجب المظفر ، أن تنهار وتتداعى فجأة ولما يمض على وفاة الأخير غير عامين ، لم يبد قبلها في الدولة أى أثر من آثار الضعف أو علامة من علامات الوهن كما يجمع تقريباً كل المؤرخين ؟!. صحيح أن مثالب كثيرة تعزى إلى عبد الرحمن بن أبي عامر ، ولكن سنتين اثنتين ليستا كافيتين على كل حال لتصدع بناء متين وكيان قوى كذلك الذى بدا في دولة عبد الرحمن الناصر وبنى عامر ! . . فكيف يمكن

تفسير ظاهرة مثل هذه ؟ ، . . إن من المؤكد أن أسباب هذا التصدع لم تكن خارجية ، إذ لم تكن الدولة الاسلامية في إسبانية فريسة عدو خارجي هد كيانها وصدع أركانها ، وانما انهارت وتداعت نتيجة أسباب داخلية ليس غير ، ولا شك أن هذه الاسباب الداخلية لم تكن وليدة عام أو عامين وانما كانت جذورها تمتد موغلة في كيان الدولة ، إلا أنها لم تكن ناضجة متبلورة لكي تحدث ما يجب أن تحدث من نتائج ، أو أن عوامل أخرى أقوى منها منعت ظهورها وأوقفت مفعولها ، حتى إذا زالت هذه العوامل وضعفت انفسح المجال لأسباب التصدع والانهيار لتؤتى أكلها وتنتج ثمارها .

ولسنا الآن بصدد بحث هذه العوامل بتفصيل فسيرد تحليل الحالة الاجتماعية والسياسية التي أدت إلى ذلك في دراستنا التي نأمل صدورها قريباً عن « إشبيلية في القرن الخامس الهجرى » إذ سيبدو بوضوح من هذه الدراسة أن القوى الاجتماعية التي كانت تستند إليها الحكومة القائمة في زمن العامريين لم تكن متماسكة كل التماسك . فالأرستقراطية القرطبية كانت منشقة على نفسها ، ففريق التف حول بني عامر ، وفريق تجمع حول بني أمية الذين كانوا ينظرون بغيظ الى استئثار العامريين بالحكم . وكانت العامة ، كما هو حالها في اكثر الاحيان ، بمعزل عن الحكام . وقد ابتدأ موقفها السلبي يتحول إلى تمرد إيجابي عندما ابتدأت تضيق بالبربر من زناتة وصنهاجه الذى استقدمهم بنو عامر لاستخدامهم محاربين ممتهنين في غزواتهم

ضد نصارى الشمال ، فكانت على استعداد للاستجابة لكل دعوة للثورة عند سنوح الفرصة . أما القوى العسكرية التي كان يعتمد عليها العامريون وجلها من البربر القادمين من أفريقية الشمالية ، فقد بدت هي أيضا بعيدة عن أن تكون موضع ثقة في نزاع داخلي لا ناقة لها فيه ولا جمل . لذا لم يكن من المستغرب ألا يبدى هؤلاء البربر حماسا في الدفاع عن عبد الرحمن ابن أبي عامر عندما ثار ضده أمراء بنى أمية بقيادة محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدى وساندهم العامة في قرطبة في ثورتهم وفي تنكيلهم بابن أبي عامر ، فقد فضل زاوى بن زيرى قائد البربر عدم الدخول فى نزاع دام المدفاع عن بني عامر وآثر تقديم طاعة للملك الجديد إلا أن البربر لم يستطيعوا الاحتفاظ بموقفهم هذا . فقد كانوا موضع احتقار العامة واعتداءاتهم كما لم يحظوا بتقدير الأمير الجديد ورعايته ، وكتب التاريخ حافلة بالاشارات الواضحه لهذا الحل ، فاندفعوا لتأييد طامع جديد بالعرش هو سليمان بن الحكم المستعين ، وهكذا دخلوا فى معركة دموية سافرة مع القرطبيين ، سالت فيها الدماء سيولا وانهبت الأموال وخربت المنازل والبيوت . ومرت عشرون عاماً على العاصمة الاندلسية وهي مسرح لهذا النزاع المريع أطلق عليها المؤرخون اسم « الفتنه » ، ولم تنته إلا بترك البربر لقرطبة والتجائهم الى منطقة غرناطة حيث أقاموا دولة بني زيرى ، و باتفاق وجهاء قرطبة على إدارة شؤونهم بأنفسم والعدول عن انتخاب خليفة جديد بعد اختفاء هشام المعتد بالله .

إذن فأول أسباب هذا التصدع الداخلي فى دولة بني عامر - كما هو الحال فى أى تصدع داخلي لأية دولة أخرى - هو أن الكيان السياسى الذى بناه عبد الرحمن الناصر وأسنده الحاجب المنصور لم يكن قائما على أسس رصينة متينة ، ومكونا من كتل متماسكة متراصة ، رغم قوتها الظاهرة ، فان تحليلا دقيقاً للمجتمع الأندلسي لايترك مجالا للشك فى ذلك .

أما السبب الآخر الذى ساعد على تصـــدع دولة قرطبة وقيام ملوك الطوائف فى مختلف المدن الأندلسية فهو نتيجة طبيعية لتطور المجتمع الأندلسى. فان خضوع المدن الأندلسية الكبيرة لقرطبة لم يعد ممكنا بعد أن تطورت هذه المدن ونشأت فيها أرستقراطية محلية مستقرة عميقة الجذور ذات حول وطول ؛ . . أقول لم يعد ممكنا خضوع هذه المدن طائعة لقرطبة ، بعد أن وصلت الى ما وصلت إليه من ازدهار وتقدم ، كما لم يكن لدى قرطبة من القوة ما تستطيع بها فرض سلطانها على هذه المدن ، فكان طبيعيا استقلال هذه الأخيرة وإصرارها على إدارة شئونها بنفسها . وقد كانت الخلافات والثورات فى بدء حكم الأمويين فى الأندلس تأخذ شكل منافسات فردية حول العرش ، تستغل فيها القوى الاجتماعية المستاءة أو المناوئة للحاكمين كالفلاحين والعامة ، ولكن تمرد ملوك الطوائف امتداد طبيعى لتنامي نفوذ الأرستقراطية المحلية واشتداد ارتباطها بمواطنها وشعورها بامكانية الاكتفاء بنفسها والاستغناء عن أية سلطة مركزية . وهكذا استأثر وجهاء إشبيلية وعلى رأسهم بنو عباد بالحكم فى مدينتهم ، واستأثر وجهــاء

بطليوس وعلى راسهم بنو الأفطس بالحكم فى بطليوس ، وقل مثل ذلك عن بقية الكور والمدن الأندلسية . وابتدأ نزاع دام مرير يبتلع القوى فيه الضعيف ، حتى بدا خطر المسيحيين فى الشمال وتعاظم وأصبح نظام ملوك الطوائف غير قادر على الثبات أمام الوضع السياسى الجديد فى شبه جزيرة ايبيريا ، فكان لابد له أن ينتهى ، وكان أن ساعد على انتهائه تدخل المرابطين فى الربع الأخير من القرن الخامس الهجرى .

قلنا إننا لسنا الآن بصدد البحث فى تفصيلات هـذا الموضوع ، بل نكتفي بالاشارة إلى النقاط الرئيسة التي مر ذكرها فقط والتي لا يمكن التوصل إليها دون دراسة عميقة للأحوال الاجتماعية والأوضاع السياسية للمجتمع الأندلسى فى مطلع القرن الخامس .

فى هـذه الظروف التي مرت الاشارة إليها اتفق وجهاء إشبيلية على الاستقلال فى مدينتهم فسدوا أبوابها أمام المتنافسين على عرش الخلافة فى قرطبة من الحموديين ، وهم أسـرة تنتسب إلى الأدارسة من أولاد فاطمة ، عاشت فى المغرب الأقصـى بين البربر وتأثرت بثقافتهم وحظيت بتأييدهم واستطاعت انتزاع الخلافة فى قرطبة مدة من الزمن فى أثناء فترة الفتنة فتولى الحكم منهم على بن حمود ثم أخوه القاسم الذى نافسه على عرش الخلافة ابن أخيه يحيى بن علي واستطاع انتزاعه منه . وقد ابتدأت إشبيليه تمردها عام ٤١٤هـ عندما رفض الاشبيليون فتح ابواب مدينتهم أمام القاسم بن حمود الذى اضطر على ترك قرطبة إثر ضغط أتباع ابن أخيه يحيى عليه ، كما

امتنعوا عن تسليم مدينتهم ليحيى هـذا عندما طلب منهم ذلك ، وتهيأوا للدفاع عنهـا وكونوا مجلساً من وجهاء المدينة وثراتها لادارتها ، كان على رأسهم القاضي أبو القاسم بن عباد ، أغنى وجهاء إشبيلية وأضخمهم ثراءا . وهكذا بدأت مملكة بني عباد ، أقوى دويلات ملوك الطوائف وا كثرها نفوذا وأوسعها ثراءا وقوة .

ولم يكن هذا الانحلال السياسى لدولة قرطبة ظاهرة من ظواهر الانحلال الاجتماعى او الفكرى ، فقد صاحبه ، على العكس من ذلك ، ازدهار فكرى ، بل وتطور اجتماعى نضج إثره المجتمع الأندلسى وا كتسب صفاته المميزة وشخصيته الخاصة . فنحن حين نتحدث عن الفرد الأندلسي أو الثقافة الاندلسية ، أو الأدب الأندلسى أو الشخصية الأندلسية ، فانما نتحدث فى الواقع عن كل ذلك فى القرن الخامس الهجرى على وجه الخصوص . فقد كانت القرون الثلاثة السابقة فترة انصهار العناصر المكونة للمجتمع الأندلسى وامتزاجها مع بعضها البعض - أما القرون التي تلت القرن الخامس فقد تدخلت عناصر خارجية (ولا سيما المرابطون والموحدون من بربر شمـال أفريقية) فى حياة هـذا المجتمع السياسية والاجتماعية والفكريه .

وهكذا يتميز القرن الخامس من بين جميع القرون فى إسبانية رغم الانحلال السياسى وتفكك الدولة فيه . فلا غرابة إذن فى أن نرى أكبر الشعراء الأندلسيين وأبرزهم في هـذا العصر ، كابن زيدون والمعتمد

ابن عباد وابن خفاجه وابن وهبون وابن اللبانة وابن عمار وغيرهم .

وقد حكم في اشبيلية من بني عباد ثلاثة ملوك ، أولهم القاضي ابو القاسم محمد بن عباد الذي تربع على دست الحكم من عام ٤١٤ هـ (١٠٢٢م) حتى عام ٤٣١ هـ (١٠٣٩م) وثانيهم ابنه عباد بن محمد بن عباد الملقب بالمعتضد والذي حكم من عام ٤٣١هـ حتى عام ٤٦١ هـ (١٠٦٩م) ، وأخيرا محمد بن عباد الملقب بالمعتمد الذي تولى الحكم بعد أبيه المعتضد عام ٤٦١هـ وبقي فيه حتى خلعه المرابطون عام ٤٨٤هـ (١٠٩٢م) : قضى بعده اربع سنوات في المنفى حتى توفى فى اغمات عام ٤٨٨هـ (١٠٩٦م) أسيراً بائسا غريبا . بعد أن ترك لنا أروع قصائده الباكية الشجية .

اما القاضي أبو القاسم بن عباد فقد قضى فترة حكمه في تثبيت دعائم دولته والقضاء على منافسيه فى الداخل والاستئثار بالحكم وضرب كل قوى المعارضة دون شفقة او رحمة ، حتى إذا جاء ابنه عباد المعتضد إلى الحكم وجد امامه دولة موطدة الأركان ثابتة الدعائم لحد كبير ، فاتجه نحو جيرانه من حكام المقاطعات والحصون الصغيرة فنكل بهم ووسع رقعة مملكة بنى عباد حتى شملت جميع المنطقة الجنوبية الغربية من الأندلس ، وجعل من هذه المملكة أقوى ممالك الطوائف فى الأندلس واشدها بأسا وأكثرها ثراءا وازدهارا .

وهكذا جاء المعتمد فوجد أمامه مملكة موطدة الأركان فى الداخل مرهوبة الجانب من قبل دول الطوائف فى الخارج فسار على خطة سلفه

في توسيع رقعة مملكته ، فضم إليها قرطبة وكثيرا من المناطق والحصون الأخرى .

ولكن خطرا جديدا ظهر في الأفق وابتدأ يهدد ميزان القوى في شبه جزيرة ايبريا ؛ وهو خطر المسيحيين في الشمال الذين اتحدت إماراتهم تحت لواء فرديناند الأول ثم تحت لواء الفونس السادس بعده ، وأبتدأت تهدد الامارات الاسلامية الصغيرة بالويل والثبور . وعبثا حاول ملوك الطوائف تجنب هذا الخطر بعقد المعاهدات ودفع الأتاوات .

لقد كان لابد من دخول قوة جديدة تحفظ توازن القوى في شبه الجزيرة وتوقف نصارى الشمال - ولو لوقت ما - عند حدهم . فكان المرابطون البربر الذين جاءوا من شمال افريقية هم هذه القوة . إذن فقد كان مجيء هؤلاء المرابطين أمرا لازما فرضته الظروف التأريخية ، ولم يكن بامكان المعتمد او غير المعتمد إبقاء نظام ملوك الطوائف بعد أن أصبح عاجزا عن الاحتفاظ بكيانه والوقوف في وجه أعدائه .

كانت الأرستقراطية الاندلسية في القرن الخامس مثقفة ، تعنى بالعلم والأدب ، فاحتضنت العلماء والادباء وبسطت عليهم ظلها ورعايتها ووجهتهم في الوقت نفسه لتنفيذ أغراضها وتحقيق مآربها وكان بنو عباد من بين جميع الأسر الأرستقراطية أوسعهم ثقافة واكثرهم ميلا للأدب واهتماما بالعلم ورعاية لأهلها بل إن جل من نعرف من ملوك بني عباد وأمرائهم كانوا من الشعراء والأدباء ، فللقاضي ابي القاسم بن عباد آثار ادبية متناثرة في

كتب الأدب . ولابنه المعتضد صولات وجولات في هذا الميدان اما المعتمد فهو دون شك شاعر من ابرز شعراء الأندلس في هذا القرن وقد ترك لنا ولا سيما في الحقبه الأخيرة من حياته ، قصائد تعتبر من أجل ما خلف لنا الأدب الأندلسي من شعر . وقـــل مثل ذلك عن أبناء المعتمد الرشيد والراضي .

فاذا كان هذا حال ملوك بني عباد فيمكن أن نتصور حال وزرائهم وأتباعهم وخاصتهم المحيطين بهم لقد كان شيئا فريدا يبعث على كثير من الاعجاب ، هذه الأجواء الأدبية التي كانت تسود أبلطة هؤلاء الملوك الأدباء ، والتي كانت تجتذب نحوها رجال الأدب والشعر من كل حـــدب وصوب وكان من هؤلاء محمد بن عمار شاعرنا الذي سندرسه في الصفحات القادمة بل ان حياة ابن عمار والمركز الذي احتله في الحياة الاجتماعية والسياسية والأدبية لتقدم لنـــا نموذجا حيا لأهميه الأدب والأدباء في المجتمع الأندلسي أبان حكم ملوك الطوائف في الأندلس .

القسم الاول

بن

حياة محمد/عمار وانتاجه الادبي

دراسة أدبية تاريخية

أسرة ابن عمار

في قرية شنتبوس (١) الصغيرة قرب شلب ولد ابو بكر محمد بن عمار عام ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) في عائلة فقيرة معدمه مغمورة الاصل ، لا أمجاد لها تعتز بها ولا مفاخر تدعيها . ولم نر مؤرخاً يتحدث عن دور قامت به في ميدان السياسه او المعرفـــه (٢) . فكل ما نستطيع استخلاصه من أقوال المؤرخين المسلمين هو أن أباه كان يدعي عمار بن الحسين بن عمـــار (٣)، وأنه كان ينتسب الى قبيلة مهرة العربيه التي ادعى الانتماء اليها آنذاك كثير من الناس . ومهرة هذه فرع من القبيلة العربية المعروفة قضـاعة اليمانية الاصل (٤) . الا أنه مما يبعث على الدهشة ويثير الاستغراب أن ابن عمار نفسه لم يشر ابداً فيما وصلنا من اخباره واشعاره الى هذا الاصل العربي ، كما أن جل ثقاة المؤرخين الاندلسيين كابن بسام وابن خاقان وعبد الواحد المراكشي لم يشيروا هم ايضا الى هذا النسب رغم أنهم أطنبوا في الحديث عن الشاعر وعنوا باخباره . وربما نستطيع الاشارة بهذه المناسبة الى بيت تعرض فيه الشاعر تعرضاً خفيفاً ليس فيه كبير غناء الى عروبته حين قال في قصيدته الميمية التي نظمها في سرقسطه وارسلها الى صديقه المعتمد (٥) .

وما حال من ربته ارض أعارب   والقت به الأقدار بين أعاجم

---

(١) نفح الطيب ، ج ٥ ، ص ٣٦٠ . الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابن عمار . انظر حول موقع شنتبوس ابو الفداء ، تقويم البلدان .

(٢) المعجب ، ص ١١٤ . الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابن عمار .

(٣) بنو عباد ، ج ٢ ، ص ٨٨ .

(٤) نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٧٨ . بنو عباد (عن الوفيات) ج ٢ ، ص ٣٦٩ .

(٥) شعر ابن عمار ، ق ص ٩ .

أما أمه، فقد أشار المعتمد فى قصيدة هجا بها ابن عمار الى أنها كانت تسمى «شمسة» أو «شميسة» (١)

هذا كل ما نملك من أخبار حول أسرة أبي بكر بن عمار مع إجماع المؤرخين على أنها كانت عائلة مغمورة فقيرة دون ماض تعتد به ولا حاضر تزهو فيه وقد كان لهذا الأصل المغمور اثر كبير في حياة الشاعر، أسهم في تكوين نفسيته وطريقة تفكيره. فلم تكن الحياة هينه يسيرة آنذاك لأمثاله من الفقراء، ولكنه عرف كيف يقود زورقه فى خضم هذه الحياة الشاقه المتعبه ليحقق مطامحه الواسعة العريضة. وقد نجح في ذلك بفضل الفترة المضطربة التي كان يعيش فيها من جهة، وبفضل نبوغه وذكائه الحاد ومعرفته بالناس والخبرات الكثيرة التى زودته بها الحياة من جهة اخرى، فقد كانت حال اسبانيا المضطربة المعقدة تفسح المجال للمغامرين الطامحين امثال ابن عمار لأن يقوموا بأهم الادوار، محرزين أسطع النجاحات أو مقدمين نفوسهم ضحايا رخيصة على مذبح الاطماع والشهوات.

الصفات المميزة لشخصية ابن عمار

ظرف خلاب، وطموح واسع، وذكاء وقاد (٢)، تلك هي الصفات البارزة فى شخصية أبى بكر بن عمار. فقد كانت ثقافته الأدبية وحديثه الممتع ومعرفته العميقة بنفوس الناس، سر نفوذه على كثير من رجالات زمانه. أما ذكاؤه فقد ساعده على الافادة من تجاربه وخبراته وعلى تحقيق مشاريعه كما سنرى فى الصفحات التالية. وأما مطامعه فقد كانت السبب في بحثه

(١) ابن الخطيب، اعمال الاعلام، ص ١٧٦.
(٢) المعجب، ص ١٢٧.

دائماً عن اهداف أوسع ومنازل أرفع، متعرضا الى المخاطر، حتى قادته فى طرق وعرة، وسارت به فى مزالق خطره أدت به اخيراً الى نهايته المحزنة بين اعداء ناقمين وحساد شامتين، كان جلهم من اصدقائه القدماء وخلانه الاصفياء (١). وقولنا هذا لا يتعارض مع ما أشرنا اليه من نفوذ على كثير من رجالات عصره، اذ يبدو أن علاقته القوية بهذه الشخصيات لم تكن تمنع الشك وسوء الظن اللذين كانت تفرضهما الظروف والمناسبات.

لقد وضع ابن عمار جميع كفاياته وذكائه فى خدمة مطامعه واغراضه، فلم تكن المثل الخلقية والدين والصداقة، بل وحتى الشعر نفسه (٢) سوى وسائل تعينه على بلوغ اهدافه وتحقيق مآربه. لقد جعلت منه هذه الصفات شخصاً مخيفاً مرهوب الجانب، كثير المكر والدهاء (٣)، ولا شك أن أصله المغمور وعائلته الفقيرة الى جانب كفايته وذكائه وفترته المضطربة كانت عوامل فعالة فى تكوين شخصيته الخاصة ونفسيته «الوصولية» وتفكيره «الميكيا فيلي» الذى كانت الغاية بالنسبة له تبرر الواسطة (٤) وسنرى كيف تنعكس هذه الصفات فى اعماله ومشاريعه واساليبه.

ولكن اهتمام ابن عمار لم يكن محصوراً فقط بالمجد والمنصب الرفيع والمركز السامي، بل كانت الحياة نفسها بكل ما فيها من متعة وأنس وفرح وبهجة غرضاً من أغراضه ومأرباً من مآربه، كان يحب الخمر ويهوى حلقات الانس ويتعشق الغلمان مستسلماً لجميع ملاذ الجسد.

وشأنه في ذلك شأن فتيان الطبقة الأرستقراطية الأندلسية التى

---

(١) المعجب، ص ١٢٣.

(٢) المعجب، ص ١١٤.

(٣) الذخيرة، ق ٢ ف ابن عمار؛ قلائد العقيان، ص ٨٦.

(٤) بنو عباد، ج ٢، ص ١٠٦.

سنرى انه سيصبح جزءاً منها وعضواً من اعضائها . وسنرى حين نتتبع ابن عمار في مراحل حياته المختلفة صفاته هذه تبدو وتتضح وتنعكس في أعماله وأقواله حتى اللحظة الأخيرة من حياته .

ثقافة ابن عمار

لقد كان في إمكان ابن عمار وهو طفل أن يتردد الى المدارس الابتدائية التي كانت تعج بها المساجد في الأندلس رغم فقر عائلته . وهناك كان يتعلم الاطفال القراءة والكتابة وتلاوة القرآن ومبادىء الدين وقواعد اللغة العربية كما يستطيعون أن يحصلوا في الوقت نفسه على معلومات عامة في التاريخ والأدب والحساب . وقد كان بوسع أولئك الذين يرغبون في التوسع في العلم والتعمق في المعرفة أن يواصلوا الدرس والتحصيل ، فالحياة الثقافية مزدهرة والعلماء الكبار منبثون في كل مكان ولا سيما في المدن الكبيرة ، يجتمع حولهم طلبة العلم وعشاق المعرفة فيقدمون لهم ثمرات الحضارة الاسلامية التي وصلت الى الأوج في هذا القرن .

وقد كان ابن عمار من هؤلاء الصبية الأذكياء الذين كانت لهم الرغبة والمقدرة على الاستمرار في الدرس ولا سيما في ميدان الأدب والشعر .

ولكي يحقق رغبته هذه فقد سافر الى شلب وهي مدينة اشتهر اهلها بقرض الشعر (١) وتابع فترة من الزمن دروس أبي الحجاج يوسف بن الأعلم أحد علماء زمانه في علوم العربية ، ثم رحل الى قرطبة حيث واصل حضوره حلقات

(١) ابو الفداء ، تقويم ص١٦٦ ،

العلماء واوساط المثقفين والأدباء ، فنمت ثقافته الادبية واللغوية وأينعت .

إن مانعرفه الآن عن حياة ابن عمار وعن شعره لايشير مطلقا الى أنه كان عالماً متبحراً او فقيهاً موغلا في التفقة ، فكل ما نستطيع تأكيده في هذا الموضوع هو انه كان شاعراً ، وشاعراً فقط . فلا نعرف عنه نشاطاً غير نشاطه الشعرى والسياسى ولا إنتاجاباهراًفيغيرالميدانين الأدبي والادارى . ولكن من الانصاف أن نقول إن ثقافته الأدبيه واللغوية كانت من العمق والقوة بحيث تسمح له أن ينظم القصائد المتينة التركيب ، المتماسكة العبارات ، الصحيحة الوزن ، ونستطيع أن نلمس هذه الظاهرة في مفرداته وفي تراكيبه وتعابيره وصياغته الشعرية .

ابن عمار قبل ان يلتقي بالمعتضد

عام ٤٤٥ للهجرة

وما كاد ابن عمار يشعر أنه قد بلغ في ثقافته الادبية حداً يؤهله لشق طريق في ميدان الشعر الى المجد الادبي ، حتى انطلق سالكاً الطريق التقليدى الذى كان يفرضه المجتمع وتقاليده على الشعراء المعدمين من ذوى الطموح ، وذلك بوضع قابلياته وكفايته الأدبية في خدمة الأرستقراطية الحاكمة يشيد بمآثرها ويتغنى بامجادها كـكثيرين من أمثاله .

الا أن ما نظم ابن عمار قبل التقائه بالمعتضد عباد ملك إشبيلية قد اختفى اختفاءً تاماً ولم يصل الى ايدينا منه شيء . ولم يكن ابن عمار نفسه

حريصاً على شعره هذا ، فقد ذكر لنا ابن الأبار أنه أحرقه قبل مماته ، أيام مجده (١) ، لأنه لم يكن كما يبدو مصدر فخر له . ولكن ما نعرفه عن حياة ابن عمار في هذه الفترة يمكن ان يشير الى أن جل هذا الشعر كان في مدح شخصيات عصره البارزة ، بل إن لدينا من الأسباب مايجعلنا نعتقد أنه لم يكن يقصر مدحه على هذا النوع من الناس ، بل كان يقدمه لكل من يستطيع دفع الثمن (٢) . ولا بد لنا أن نشير هنا الى تأثير حالة الاقتصادية وعوزه المادي في دفعه لهذا الاتجاه منذ بداية حياته الادبية . فشاعر مثل ابن زيدون نشأ في وسط أرفع من وسط ابن عمار لايهبط الى هذا المستوى ولا ينزل الى هذا الدرك . وهنا يبدو أثر الوسط الطبق في توجيه الشعراء ، فالأمير المعتمد لايمدح ، وإن فعل ذلك فللتعبير عن عاطفة شخصية . وابن زيدون الوزير يقصر مدحه على الملوك والأمراء . أما ابن عمار المعدم فيقدمه لكل من يدفع ثمنه . بل إن شاعرنا نفسه عندما علا مركزه وأصبح الوزير الاول لدولة بني عباد نراه يقلع عن التكسب بالشعر ويقصره على التعبير عن عواطفه الشخصية ومشاغله الخاصة.

إنطلق ابن عمار يجوب الاندلس قاصداً ملوك طوائفها عارضا عليهم بضاعته المبتذلة ، رغم تشجيع امراء الأندلس للشعر والأدب ، نظراً لكثرة الشعراء في هذا العصر الأدبي الزاهر. والاخبار القليلة التي لدينا عن هذا الشاعر في هذه الفترة من حياته تشير الى أنه قصد كثيراً من الناس ، منهم.

---

(١) بنو عباد ، ج ٢ ، ص ٩٠ . الحلة السيراء ، ف ابن عمار .

(٢) المعجب ، ص ١١٤ .

ابن طاهر امير مرسيه في حالة مزرية من العدم ورثاثة الملبس (١)، إلا أن هذه الاخبار نفسها تشير الى أنه فشل فشلا ذريعا في جهوده هذه حتى لقى المعتضد عباداً ملك إشبيلية . ولكنها لاتنقل لنا شيئا من إنتاجه ولاتحدثنا بشيء من اخباره ، خلا حادثة طريفة يغلب عليها الخيال القصصي ، تصف مع ذلك طرفا من الحياة التعيسة التي كان يحياها ابن عمار فى هذه الحقبة القاسية .

ولدينا عن هذه الحادثة روايتان تختلفان بعض الاختلاف ، الاولى رواها ابن بسام فى كتابه الذخيرة (٢) ، والثانية ذكرها عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب (٣) .

تتفق الروايتان تقريباً فى أن ابن عمار وصل فى يوم من أيامه العصيبة الى شلب ، لايملك سوى بغلته التي كان حائراً فى إيجاد العلف لها، فلم يجد سوى أن يكتب بضعة ابيات الى تاجر من معارفه يمدحه فيها ويصف له سوء حاله فلما تسلم التاجر الابيات عطف على الشاعر وارسل اليه مخلاة شعير .

الى هنا يتفق الكاتبان، ولكنهما يختلفان فى تصوير رد الفعل الذى تركته هذه الهدية فى نفس ابن عمار فيقول المراكشي إن ابن عمار كان راضياً كل الرضى بهذه الهدية ، لذا فقد كافأ التاجر عند رجوعه حاكماً على مدينة شلب مرسلا من قبل المعتمد ، بارساله مخلاة مليئة بالفضة قائلا له « لو ملأتها

(١) الحلة السيراء ، ف . ابن طاهر .
(٢) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٢ ، ف . ابن عمار
(٣) المراكشي ، المعجب ، ص ١١٤ .

برآ لملا ناها تبرآ ». أما ابن بسام فيذكر أن الشاعر غضب غضباً شديداً لكرامته وعدها إهانة له، وكاد يرفض هذه الهدية الوضيعة، ولكنه تذكر بغلته فأرسل اليها الشعير. ثم يقول إن ابن عمار لم ينس هذه الاهانة عند رجوعه حاكماً الى شلب، فدعا التاجر اليه وعنفه على عمله، فاعتذر هذا منه خائفاً من العقاب، ثم أرى ابن عمار ابياته رمزاً لاعتزازه بها وحرصه عليها. فرضي هذا عنه وأمر باعطائه مخلاته مليئة بالفضة قائلا له: « لولا حرمتك لاوجعتك أدبا، ولوملأت تلك امس برآ لملأنا هذه تبرآ.. » «١»

ورغم ان الخيال قد يكون لعب في هاتين الروايتين دوراً ما، فاننا لا يمكن أن نعرض عنهما تماماً. فلربما كان فيهما جزء من الحقيقة، لاسيما ما يتعلق منهما بحياة ابن عمار البائسة في هـذه الحقبة. إلا أن من المهم أن نلاحظ أن كلا من المراكشي وابن بسام صور شخصية ابن عمار بشكل يختلف عن الآخر. فاما الاول فقد وصفه رجلا بائساً فقيراً يشعر بوضاعة مركزه، فهو لا يكاد يحس بالكرامة والاعتزاز لابنفسه ولا ولا بشعره، فيرضى بمخلاة شعير ويسر بالحصول عليها لقاء جزء من انتاجه الادبي، فاي بؤس واية وضاعة في النفس!

أما ابن بسام فيقدم لنا شخصية اخرى تفرض الاحترام والتقدير. شخصية ذات كرامة ونفس رفيعه لاتعدم نبلا وشهامة: فهو يتردد في رفض هدية متواضعة جداً ويغضب لكرامته وكرامة شعره، ولكنه مع ذلك لا ينسى جميلا أسدى اليه فيكرم صاحبه عليه.

---

(١) الذخيرة، ق ٢، ف ابن عمار.

إن مالدينا من معلومات الآن لاتسمح لنا بأن نجزم بصحة احدى هاتين الروايتين ، ولكن رغم أن ابن بسام كان أقرب عهداً لابن عمار وأنه عنى باخباره وألف كتاباً عنه (١) ، فيبدو لنا أنه إنما عبر عن رأيه في موقف ابن عمار اكثر مما صور موقف ابن عمار نفسه حينما تحدث عن غضب هذا الأخير لكرامته . يدل على ذلك مخلاة الفضة التي قدمها للتاجر منبهاً إياه الى أنه كان سيعطيه مخلاة ذهب ، لو كان قد ارسل مخلاة من القمح ، اذ ليس الفرق بين ثمني الشعير والقمح كبيراً بحيث يغير ابن عمار رأيه فيرضى ويهب الذهب ، لذا فرواية المراكشي اقرب الى المنطق ، هذا فضلا عن أنها اكثر انسجاماً مع ما نعرفه عن اخلاق ابن عمار وصفاته .

عدا هذه الحادثة ، ليس لدينا أية تفاصيل عن حياة ابن عمار او عن شعره في هذا الدور من حياته . فقد ذكرنا سابقاً أن الشاعر أحرق جميع شعره الذى نظمه آنذاك ليطمس الذكريات المؤلمة التى خلفتها هذه الفترة من حياته القاسية ٢ . يبدو من ذلك أنه لم يكن لهذا الشعر أية قيمة ادبية جديرة برفع قيمة قائلها حتى فى نظر الشاعر نفسه .

بل يبدو أنه لم يحصل بنظر الاخرين على أى اعتبار يدفعهم الى الاحتفاظ به وتسجيله ، فلم نر مؤرخاً من المعنيين بأخبار ابن عمار وشعره يتطرق الى شىء من ذلك ، كما أننا نعلم أن لا أحد من رجالات الأندلس أعجب به قبل لقائه بالمعتضد رغم أنه قصد قسما كبيراً منهم .

إن هذا الحال يسمح لنا لحد ما بالقول ، إن فقدان شعر ابن عمار الذى نظمه فى هذه الحقبة من حياته ليس خسارة كبيرة تستحق الاسف ، لأنه لم

---

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ف ٠ ابن وهبون . بنو عباد ، ج ٢ ، ص ١٠٥ .

(٢) بنو عباد ، ج ٢ ، ص ٩٠ . الحلة السيراء ، ف . ابن عمار .

يحظ بتقدير معاصريه بل ولا حتى بتقدير الشاعر نفسه .

ولكن رغم أن هذه الفترة كانت قاسية مريرة ، تكبدفيها الشاعر مختلف ضروب الشقاء ، فإنها كانت المدرسة التي عرف فيها ابن عمار الرجال وخبر الحياة واطلع على أحوال الأندلس ، مما كان له أكبر الأثر في حياته التى عاشها بعد ذلك ومجده الذى بناه . إنها كانت فترة التحضير والاستعداد للفترات التى تلت هذه الفترة من حياته . فهى وإن لم تكن ذات قيمة بذاتها ، فإن قيمتها فى حياة الشاعر وفي إعداده كبيرة ذات أثر .

ابن عمـــار

منذ لقائه بالمعتضد حتى مجيء المعتمد الى الحكم

عام ٤٦١ للهجــرة

إن هــذا اللقاء يعتبر في الواقع جداً ذا أهمية خطيرة في حياة الشاعر المادية والأدبية . ويبدو أنه حدث فى غضون عام ٤٤٥ هـ (١٠٥٣م) بعد الحرب الدامية التي خاضها المعتضد ضد الأمراء البربر ، كما يتبين بوضوح من قصيدة ابن عمار الاولى التي مدح بها المعتضد ، وهي رائيته الشهيره [١] .

إننا نستطيع أن نقسم ، تسهيلا للبحث ، الفترة التي قضاها الشاعر في حكم المعتضد الى ثلاثة اقسام : الاولى ، في إشبيليه حيث تعرف بالامير محمد بن عباد (الذى اطلق عليه فيما بعد لقب المعتمد) وارتبط معه بصــلة وثيقة وصداقه اصبحت مضرب الامثال . والثانى ، فى شلب برفقة الامير محمد حين عينه ابوه حاكماً على هذه المدينة . والقسم الثالث ، من هذه الفترة قضاه في سرقسطة وشمـــال شرقي الأندلس بعد اضطراره على مفارقة صديقه الامير محمــد .

ان ما بين ايدينا من إنتاج ابن عمار الشعرى يشهد الى أن هذه الفترة من حياة الشاعر كانت احدى فترتين خصبت فيها قريحة الشاعر وجادت بخير ما لدينا من أدبه . اما الفترة الثانية فهى الأخيرة من حياته والتي سنعرض لهـــا بعد قليــــل .

---

(١) انظر ص ٥٠ .

ابن عمار في اشبيلية

وصل ابن عمار إشبيلية بعد محاولات لارتقاء سلم المجـــد الأدبي قام بها في مختلف أنحاء الاندلس، باءت جميعها كما يبدو بالفشل الذريع. فقد ظل الشاعر مغموراً يعاني مرارة الفاقة وبؤس الحرمان، دون ان يفلح بالحظوة لدى أحد أمراء الطوائف. وما كاد يصل هذه المدينة حتى قرر اختبار حظه مع اميرها المعتضد عباد كما فعل مع غيره من قبل. لقد كان المعتضد آنذاك في قمة مجده، فقد انتصر قبيل ذلك انتصاراً ساحقا على ابن الأفطس أمير بطليوس، ثم وجه اهتمامه بعد ذلك الى الامراء الصغار من البربر وغيرهم الذين استقلوا بالامر بعد انحلال الخلافة في قرطبة، فكانوا يحكمون مقاطعات صغيرة مستقلة يقع جلهــا في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة، فالحق بهم خسارة فادحة وضربات قاضية ووسع نتيجة ذلك رقعة مملكته توسيعاً كبيراً. لقد كان ملك إشبيلية آنذاك في حاجة دون شك اكثر من أي وقت مضى الى أن تمجد انتصاراته وتخلد اسمه ويتغنى باعماله ومآثره. ويروي لنا ابن بسام خبراً يظهر فيه بوضوح اتجاه المعتضد هذا وحاجته النفسية لتخليد مآثره والتغني بأعماله. فيقول، إن المعتضد نظم بعد احتلاله لمدينة رندة قصيدة ذكر فيها هذا الحدث، فافتخر بشجاعته وصلابته وذكر أنه « أعجب بهذه القطعة الرندية عجب حسان بن ثابت بقصيدته الميمية »، « وأخذ الناس بحفظها وحملهم على ضبط معانيها ولفظها ... » [1] فقد كان المعتضد إذن يحس بالفخر والاعتزاز، كان في حاجة لأن يمدح ويشاد باعماله وتوصف

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ف المعتضد؛ ابن الابار، الحلة السيراء، ف ابن عمار؛ دوزي بنو عباد ج ٢، ص ٦

بطولاته . ومن الطبيعي أن يجد الشعراء في هذا الاحساس فرصة مناسبة يتهزونها لاشباع رغبة الامير الثرى فتنظم القصائد الطويلة وتكتب الرسائل المستفيضة في ذكر مآثره . ولم يكن ابن عمار ليترك فرصة ثمينة مثل هذه تفلت من يديه ، فتقدم الى الامير بقصيدته الرائية المشهورة التي مطلعها :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى   والنجم قد صرف العنان عن السرى

فكان لها احسن الوقع في نفس الامير فاسني جائزته وضمه الى ديوان الشعراء [1] .

الرائية

ورائية ابن عمار هذه كأكثر شعر تلك الفترة تدخل من حيث موضوعها في الاطار الذى صنعته الأرستقراطية الحاكمة للشعر . فقد أشرنا الى أنها كانت استجابة لحاجات نفسية ومادية فرضتها طبيعة التكوين الطبقي للمجتمع الاندلسي ، ويبدو هذا الاتجاه لا في الموضوع فحسب بل في كثير من الافكار المتناثره في ثنايا القصيدة كما ستأتى الاشارة اليه .

فعدا المقدمة التقليدية التي وقفها الشاعر ، كما يفعل اكثر الشعراء الاندلسيين على وصف الطبيعة ومساهمتها في متعة الشاعر وأنسه ، فان قصيدة أبى بكر بن عمار هذه تشتمل على أربعة موضوعات رئيسة ، ثلاثة منها تهم المعتضد ، او بالاحرى نظمت لارضائه واشباع رغبته ، والرابع خصصه الشاعر لنفسه .

اما الموضوعات الثلاثة ، فأولها الاشادة ببطولة الملك وانتصاراته الرائعة على أعدائه . وثانيها تمجيد كرمه وبسطة يده وكثرة عطاياه ، وثالثها هجوم

---

[1] المراكشي ، المعجب، ص٧٤ .

عنيف على أعدائه البربر ووصمهم بأشنع النعوت . أما الموضوع الرابع المتعلق بالشاعر نفسه فهو تعبير عن الأمل الذى علقه على الملك وعلى كرمه واحسانه ، والجهود الكبيرة التي بذلها في الوصول اليه والوقوف بين يديه وتقديمه عصارة قريحته وزبدة فنه للاشادة بمآثره وتمجيد صفاته .

إننا نلحظ هذه الافكار متناثرة فى المقاطع التي خصصها الشاعر لوصف كرم الامير ومحله في الحياة في آخر القصيدة .

ويمكننا ان نضيف الى ماتقدم من موضوعات تطرق الشاعر في أحد الابيات الى مدح الامير إسماعيل بن المعتضد ولى عهد ملك اشبيلية وقائد جيوشه ، ملاحظين أن ابن عمار لم يشر مثل هذه الاشارة الى الأمير محمد (المعتمد) الذى اصبحت صداقته للشاعر مضرب الامثال . ولاشك أن هذا الاهمال يمكن أن يعزى الى أن الأمير محمد لم يشغل مركزاً هاماً يلفت اليه الانظار فى الدولة الا بعد مصرع اخيه اسماعيل ، فلم يكن جديراً إذن بجذب اهتمام الشعراء ولفت انظارهم ، لاسيما وأن عمره لم يكن يتجاوز آنذاك السنة الثالثة عشرة . هذا الى أن صداقة الأمير محمد لابن عمار لم تكن قد بدأت بعد ، اذ أن هذه القصيدة قد نظمت في اول زيارة قام بها الشاعر لبلاط إشبيلية والتى كانت سبباً لربط اواصر الود بين الصديقين .

ان هذا الرأى يدحض رواية ابن بسام (١) التي نقلها عنه دوزى «٢» وكونثاث بلانثيه ٣ وغيرهم من المؤرخين ٤ ، والتى تزعم ان الامير محمد

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابن عمار .

(2) Mus Esp. T III, P. 83

(3) Gonzalez Palencia, His . de la literatu Arabi ga Enpanol, P. 77

(4) Pipuet, l'Espagne des Maures, P. 74

إنما تعرف بابن عمار فى مدينة شلب عندما كان حاكماً عليها ، وعلى ذلك فانه نظم هذه الرائية بعدعودة الأمير محمدالى إشبيلية مصحوباً بصديقه الشاعر . وعدم قبولنا لهذهالرواية مرده قبلكل شيء الى هذا البيت الذى مدح به الشاعر الامير اسماعيل بن المعتضد .

ياسائلي ما حمص الا خاتم
أبصرت اسماعيل فيه خنصرا

إذ أن الامير محمد لم يعد الى إشبيلية الا بعد مصرع اخيه اسماعيل عام ٤٥٠ هـ (١٠٥٨) (١)، فلا بد ان يكون ابن عمار اذن قد نظم قصيدته هذه قبل عودة الامير محمد من شلب الى إشبيلية ، أى حين كان الأمير اسماعيل لايزال على قيد الحياة . معنى ذلك أن ابن عمار قصد بلاط اشبيلية قبل أن يذهب الى شلب بصحبة الامير محمد ، وأن من المعقول جدا أن يكون قد تعرف به في إشبيلية لا فى شلب . وهذا الرأى مضافاً اليه الاشارات التى وردت فى القصيدة عن بعض المناسبات ، هي التى جعلتنا نحدد تأريخ نظمها بـ ٤٤٤ او ٤٤٥ هـ .

ولنعد الى القصيدة نفسها لنبدى فيها بعض الملاحظات ونلفت الانظار الى صفاتها المهمة .

إن اول مايلفت النظر فيها على وجـــه العموم هو سطحية الافكار والمشاعر وابتذالها ، فجلها مما كثر ترداده على السنة الشعراء واقلام الكتاب . وقد نستطيع مع ذلك ان نستثنى من هذا الحكم بعض الأبيات ، كقوله مثلا يمدح الملك :

(١) المغرب ، ج ٣ ، ص ٩٢

أندى على الأكباد من قطر الندى
وألذ في الأجفان من سنة الكرى

فلاشك ان الشاعر عبر بنظمه لهذا البيت عن مجموعة معقدة من العواطف والافكار . فالملك يتمتع بـــصفات هي مزيج من اللطف والطيبـــة وكرم النفس وغير ذلك مما نحسه حين قراءتنا لهذا البيت دون ان نستطيع تمييزه بوضوح ، لم يجد الشاعر السبيل لتصويرها الا بهذا الاسلوب الجميل المعبر .

وكثيراً مايجابه القارىء البسيط أبيات المديح بالامتعاض والاعراض متهماً الشاعر بالـــكذب والتلفيق وبذلك يجردا نتاجه من كل قيمة أدبية . وفي هذا الرأى مافيه من تجن على المديح وسوء فهم لطبيعته وتسرع في الحكم عليه . فالواقع أن الشاعر حين يمدح لايعني بوصف شخصية الممدوح ، ولو كان هـــذا غرضه لوصف محاسنه ومساوءه ، ولــكنه يحاول أن يرسم صورة شعرية لمثل انساني عال تمليه عليه ظروفه الاجتماعية والطبقية ومرحلته التأريخيه ، ثم يعطي هذه الصورة بعد ذلك اسم الممدوح او يربطها بحوادث وقعت في حياته . وعلى ذلك فكل قصيدة مدح جيدة صورة شعرية لنموذج انـاني عال وضعه الشاعر تبعاً لمقاييـــسه الخاصة التي مصدرها دون شك المقاييس الاخلاقية للمجتمع الذى يعيش فيه .

فجودة هذا البيت اذن لاتعود الى أن الشاعر صدق في وصف المعتضد ، وأصاب في تحديد صفاته ، وانما لأنه عبر تعبيراً قوياً حياً عن صفات انسانية سامية تقصر اللغة المألوفة عن التعبير عنها باخلاص . اما أن الشاعر لــكي يحظى بالجائزة أوهم المعتضد بانه يصفه ، فذلك مما لايهمنا في تقدير قيمه

البيت الادبية ، بل قد تكون له أهمية تاريخية خاصة .

ومع هذه السطحية والابتذال في الافـكار والمشاعر الذى يغلب على اكثر مقاطع هذه القصيدة ، فان فيها ما يلفت النظر وينتزع بعض الاعجاب واخص بالذكر بناءها اللغوى وتركيبها اللفظى . فابن عمار متمكن من النظم واسع الاطلاع على اللغة ، فلا جرم إذن فى أن تكون تعابيره عن افكاره الهزيلة السطحية قوية متماسكة ، بل ان فيها براعة وحذقاً دفعت النقاد القدامى الذين عاصروا ابن عمار او جاءوا بعده ، الى تمجيد هذه القصيدة واعتبارها درة من درر الشعر . ولـكن اختلاف مقاييس التذوق الادبى ولاسيما بيننا وبين نقاد ذلك العصر الذى ابتدأ فيه الادب يتجه الى العناية بالشكل فحسب دون الاهتمام بمـا يحتويه ، جعلتنا نقف منهـا موقفاً قد لا ينسجم مع ما قد قيل عنها حتى الآن .

والمستعرض بسرعة هذه القصيدة لافتين النظر الى ما يستحق الالتفات منها .

افتتح ابن عمار قصيدته كما يفتتح كثير من الشعراء الانـدلسيين قصائدهم وصف مجلس من مجالس الانس حضره وتمتع فيه . ومن متممات مجالس الانس لدى الاندلسيين الحـدائق الغناء والطبيعة الجميلة التى تـكتنف هذه المجالس او تحيط بها :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى
والنجم قد صرف العنان عن السرى

والصبح قد اهدى لنا كافوره
لمـا استرد الليل منـا العنبرا

والروض كالحسنا كساه زهره
وشياً وقلده نداه جوهرا

او كالغلام زها بورد رياضه
خجلا وتاه بآسهن معذرا

روض كأن النهر فيه معصم
صاف أطل على رداء أخضرا

وتهزه ريح الصبا فتخاله
سيف ابن عباد يبدد عسكرا

من الواضح أنه من العبث أن نبحث في هذه الابيات عن عواطف قوية ومشاعر صادقة مثيرة او افكار عميقه ، فقد اختفى كل ما هناك من عواطف ومشاعر وافكار سطحية تحت حجب من الصنعة البيانية هي التى تلفت النظر وتجلب الانتباه ، لقد بذل الشاعر جهده فى البحث عن التشبيهات وتركيب استعارات ، لم يستطع مع جهده هذا في أن يبتعد بها عما هو مألوف فى عصره ، فالظلام كالعنبر وضوء النهار كالكافور ، والروض كالحسناء والزهور كالوشي والندى كالجوهر ، او هو أى الروض كالغلام يتيه بخديه الاحمرين اللذين يشبهان الورد وبالشعر النابت عليهما والشبيه بالآس ، والنهر كالمعصم فوق الرداء الأخضر الخ .. ثم انتقل بعد ذلك الى المديح انتقالا يصفه النقاد القدماء بالبراعة والحذق ، وان كان لا يتصل بالفن من قريب او بعيد .

ولا شك ان هذه المحسنات البيانية تساهم في تكوين القيمة الفنية للنص اذا كان الغرض منها زيادة قوة تعبيرة عما يضمه من المشاعر والعواطف والافكار . أما أن تكون غرضاً في ذاتها فذلك مما يجعل النص الأدبي

شكلا اجوف ، قد يثير الاعجاب بتركيبه وحذق صياغته ولكنه لا يمس الحاسة الفنية ولا يثير في النفس الشعور الجمالي (الاستيتيكي) الذي يحسه المرء أمام قطعة فنية حقيقية.

بعد هذه المقدمة التقليدية ينتقل الشاعر الى غرضه الرئيس ! . وهو المديح فيقف جل القصيدة عليه . وقد حاول الشاعر ، كعادة المداحين من الشعراء ، أن يسبغ على المعتضد شخصية مثالية تتصف بكل مثل المجتمع العليا وتكاد تنحصر في اربع صفات : مجد باذخ ، ومكانة رفيعة ، وشجاعة منقطعة النظير ، وكرم لا يعرف الحدود . فلا يكاد يخلو بيت من بيوت القصيدة الاربعين الباقية من اشارة الى واحدة من هذه الصفات او عرض لها بشكل من الاشكال ، سواء أكان الحديث عن المعتضد ام عن ابنه اسماعيل ، ومما يلفت النظر براعة الشاعر في التعبير عن نفس الافكار بأشكال مختلفة وطرق متباينة ، إلا في القليل من الابيات حيث يحطم هذه الحدود :

الحاجب المنصور سيف الدولة الـ . . . (؟) معطى . . . من الحباء الا كبرا (١)

علق الزمان الأخضر المهدى لنا
من ماله العلق النفيس الأخطرا

ملك إذا ازدحم الملوك بمورد
ونحاه لا يردون حتى يصدرا

أندى على الاكباد من قطر الندى
وألذ فى الاجفان من سنة الكرى

(١) . كذا في الذخيرة ، ف ابن عمار

قداح زند المجـــد لا ينفك من
نار الوغى إلا إلى نار القـــرى

يختــــار إذ يهب الخريدة كاعباً
والطرف أجرد والحسام مجوهرا

أيقنت أنى من ذراه بجنـــة
لما ســـقاني من نداه الكوثرا

وعلمت حقاً أن روضي مخصب
لما ســـأت به الغمام الممطرا

يا ســـائلي ما حمص إلا خاتم
أبصرت اسماعيل فيه خنصرا

من لا توازنه الجبال اذا احتبى
من لا تسابقه الرياح اذا جرى

ماضي وصدر الرمح يكهم والظبى
تنبو وأيدي الخيل تعثر في البرى

لاشيء اقرأ من شفار حســـامه
إن كنت شبهت الكـتائب أسطرا

قاد المواكب كالكواكب فوقهم
من لامهم مثل السحاب كنهورا

وهكذا يستمر الشاعر يجول حول ممدوحه بشكل لانكاد نحسن تجاهه

بغير الارهاق الذى ارهق به الشاعر نفسه لكي ينحت من افكار سطحية مبتذلة ابياتاً ذات قيمة اسلامية . فبالاضافة الى التكلف البياني وجه الشاعر جهداً غير قليل للمحسنات البديعية كالطباق والجناس ، ولكن التكلف والتصنع فيها واضح بين يفقدها كل جمال فني او تأثير ادبي لقد كان عصر ابن عمار مولعاً بالصنعة شغوفاً بتزويق الكلام ، فلا جرم اذا رأينا نقاد العصر يعجبون بالشاعر ويطنبون في مدحه ، بينما تنحصر أهميته لنا بالتركيب اللغوى لأبياته ليس غير .

ولكن من حق الشاعر علينا ان نقول إن روحاً جديداً ابتدأ يظهر في ابيات القصيدة الاخيرة حين انتقل الشاعر للحديث عن نفسه وتصوير لهفته الى نوال الامير وجهده في ارضائه وجلب عطفه واملِه فى ان تحظى ابياته التي بذل فيها ما بذل من جهد وبراعة بالقبول لدى الملك .

واليك يامنصور قادت همتي
بزمامها جرد المذاكي الضمرا

مدت سنابكها القوادح للصفا
مرطا على متن الظلام معصفرا

يجعلن قبلتك البهية قبلة
ويردن ساحتك البهية مشعرا

خذها اليك وروضها لك ناضر
اسقيته ماء النعيم نميرا

نمقتها وشياً بذكرك مذهباً
وفتقتها مسكاً بحمدك أذفرا

من ذا يناجيني وذكرك منهل

أوردتــه من نار فكري مجمرا

ولئن وجدت نسيم حمدي عاطراً

فلقد وجدت نسيم برك أعطرا

واليكها كالروض زارته الصبا

وحنا عليه الطـــل حتى نورا

ان هذه اللهفة وهذا التوسل والرجاء المنبعث من هذه الالفاظ القويه التركيب المتينة البنيان قد يعطي هذه الابيات قيمة أدبية لا تجدها فيما سبق . ومع ذلك فاننا نترك الحـــكم عليها للقارىء حيث يجدها كاملة في القسم الثاني من هذا الكتاب .

لقد كان تأثير هذه القصيدة على المعتضد كبيراً جداً فأعجب بالشاعر وقربه اليه وضمه الى ديوان الشعراء (١) حيث يتمتع برزق خاص .

الدالية

وبالاضافة الى هذه الرائية فان لدينا ست قصائد لا بد أن يكون الشاعر قد كتبها في هذه الفترة من حياته ، أهمها قصيدة داليه تستحق أن نوجه نحوها اهتماماً خاصاً وعناية كبيرة . مطلعها :

ألا للمعالي ما تعيد وما تبدي

وفي الله ما تخفيه عنا وما تبدي

(١) المعجب ، ص ١١٧

ويبدو أن الشاعر نظم هذه القصيدة بعد الانتصار الرائع الذى احرزه الجيش الاشبيلي على البربر المقيمين فى قرمونة قرب إشبيلية . ويبدو واضحاً فى أبيات هذه القصيدة تحمس ابن عمار لهذا النصر وفرحه به ، ولا غرابة في ذلك فقد كان بين الأندلسيين والبربر حقد متبادل جدير بأن يفرح كلا منها بمصائب خصمه ، وقد كان لهذا الشعور دون شك . أثره في اعطاء هذه القصيدة قيمة خاصة ولنستمع الى الشاعر فى احدى مقاطعها يصف هجوم الأمير اسماعيل بن المعتضد على قرمونه :

ورب ظـــلام سار فيه الى العدى
ولا نجم الا ما تطلع من غمد

أطـل على قرمونه متبلجـاً
مع الصبح حتى قيل كانا على وعد

فأرملها بالسيف ثم اعارهـــا
من النار اثواب الحداد على الفقد

فياحسن ذاك السيف في راحة الندى
ويا برد تلك النار فى كبد المجد

افلا نحس برضى الشاعر وابتهاجه وبتشفيه بما حل بالبربر من ضيم ؟ .!

وعداء ابن عمار للبربر متأصل في نفسه وسنرى أنه كان ذا اثر كبير فى اعماله وسياسته طيلة حياته ، فلا عجب اذن في أن نحس بعواطف الشاعر واحساسه فى اباته التى يتحدث فيها عنهم . فيقول مشيراً الى ابن اسحاق البرزالي حاكم قرمونه وباديس بن حبوس حاكم غرناطة ، وكانا من اشد امراء البربر شكيمة واقواهم سطوة :

يهوداً وكانت بربراً فانتقض الظبي
وأنبئهم منهـــا بألسنـه لد

أقول وقدنادى ابن اسحاق قومه
لأرضك يرتاد المنية من بعد

لقدسلكت نهج السبيل الى الردى
ظباء دنت من غابه الاسدالورد

كأنَ بباديس وقد حط رحله
الى الفرس الطاوى عن الفرس النهد

الى الفرس الجارى به طلق الردى
سريعاً غنياً عن لجام وعن لبد

يحن الى غرناطة فوق متنه
كما حن مقصوص الجناح الى الورد

ظفرت بهم فارنح وأومض كؤوسها
بروقاً لها من عودها ضجة الرعد

لقد كان النزاع بين الاندلسيين والبربر صفة بارزة من صفات القسم الاول من عهد ملوك الطوائف فى الأندلس. وما نلاحظه في هذه القصيدة وامثاله ماهو الا انعكاس لهذا العداء المستحكم والنزاع الدامي.

وكما فعل ابن عمار في قصيدته الرائية السابقة، فعل في هذه القصيدة، إذخصص الأبيات الأخيرة منها لاستدرار عطف الملك واستجدائه وكسب رضاه ونواله. والواضح ان الشاعر لم يتورع عن الاستجداء الصريح والالحاح

فى طلب هبة الأمير مبيناً بوضوح أنه إنما يمدح ليحصل على الجزاء. ولا شك فى أن أصل ابن عمار الطبق وما كان يعانيه من فقر وعوز هما اللذان دفعاه الى سلوك هذا السبيل فى استجداء الأمير.

ولو قارنا اسلوبه هذا واسلوب ابن دراج وهو فقير مثله بأسلوب ابن زيدون مثلا وبغيره من الشعراء ذوى المراتب الأجتماعية الأكثر سمواً، لتبين لنا الفرق واضحا بين النفسيتين.

وابيات ابن عمار الأخيرة هذه قوية التركيب متينة البنيان ناجحة فى التعبير عن لهفة الشاعر وأمله وشدة ثقته بالأمير واعجابه بما بذله هو نفسه من جهد في نظم قصيدته:

ودونكها من نسج فكرى حلة
مطرزة العطفين بالشكر والحمـــد

الذ من الماء القراح على الصدى
واطيب من وصل الهوى عقب الصدى

وما هذه الأشعار الا مجامر
تضوع فيها للندى قطع الند

وكنت نثرت الفضل في وأعـــا
نثرت سقيط الطل في ورق الورد

وها انا باغ من نداك بقدر ما
يضاف لتأميلي ويعزى الى ودي

فأقسم لو قسمت جودك في الورى
على قدر التأميل فزت به وحدى

قنعت بما عندى من النعم التى
يفسرها قولي قنعت بما عندى

ورغم أن هذه القصيدة تفوق سابقتها، كما اعتقد في قيمتها الأدبية، فانها لم تحظ بالاهتمام الذى حظيت به القصيدة الرائية من قبل المؤرخين عدا صاحب الخريدة فقد خصها بقسط كبير من المدح والاطراء

اما القصيدة الثالثة التى لدينا من هذه الفترة فهى رائية (١) من البحر « المتقارب » تتكون من ثلاث عشر بيتاً يبدو ان الشاعر نظمها بعد معركة ناجحة خاض غمارها المعتضد ضد اعدائه، استعمل فيها الدهاء والرأى بالأضافة الى السلاح. وفي هذه القصيدة صور مليئة بالحركة والحياة. ساعد فى اعطائها هذه الصفة وزن القصيدة المتحرك وقافيتها « الساكنه »

تعاطى الخوارج حتى برز (م)
ت تقوم من خدها ما صعر

واقبلتها الخيل حمـــر البنود
دهم الفوارس بيض الغرر

فكروا فلم يغنهم من مكر
وفروا فـلم ينجهم من مفر

---

(١) ديوان ص ٣

ودارت دماؤهم كالكؤوس
وفاحت نفوسهم كالزهـــر

فعـــاقر سيفك حتى انحنى
وعربد رمحك حتى انكسر

اما القصيدة الرابعه (١)فهى كافية من البحر « الكامل » تتألف من عشرة ابيات فقط يصف فيها الشاعر مجلساً من مجـــالس الأنس حضره المعتضد .

وتتضح فى هذه الأبيات صفات شعر ابن عمار الرئيسه كاهتمامه بالمحسنات البديعية والبيانية وتعلقه بالتزويق اللفظى مع براعة فى اختيار الألفاظ وصياغة الأبيات تلفت النظر .

اما بقية مالدينا من شعر هذه الفترة (٢) فلا يكاد يلفت النظر فيه شيء إلا اننا نلاحظ فى احدى هذه المقطوعات ، وهى قطعة من قصيدة مطلعها :

أشاقك برق ام جفاك حبيب
فليلك فضفاض الرداء رحيب

امراً يلفت النظر يتصل بعلاقة الشاعر بالملك .

ولا نمتلك من هذه القصيدة سوى أحد عشر بيتاً فقط ، يمدح فيهـا الشاعر المعتضد ، ولـكنه يعبر فى الوقت نفسه عن خوف داخلي وحذر من وقوع مكر ويحاول تجنبه بالتحدث عن الوفاء والغدر ولا سيما وفاء الملك

(١) ديوان قص ٤ .
(٢) انظر الديوان قص ٦ ، ٧ ، ٨

ومحافظته على العهود وعزوفه عن الغدر .

مزحت فاني يا ابنة القيل لم اكن
لأفشي سراً ضمنته قلوب

سأشهد قومي أن طرفك من دمي
بريء وإن كان الفتور يريب

وكيف اري في للغدر نهجاً لسالك
وعهدي بالملك الوفي قريب

فتى نسخ الغدر اقتضاء وفائه
فلا تحكمن أن الوفاء غريب

ان الحاح الشاعر على هذه الناحية مع ما نعرفه من بطش المعتضد وغدره ليترك في نفوسنا انطباعاً قوياً عن حذر الشاعر وخوفه واحساسه بتغير نفس الملك تجاهه . مما ستبدو آثاره بعد ذلك كما سنرى .

ابن عمار والامير محمد بن عباد (المعتمد)

وفي إشبيلية تفتحت امام ابن عمار آفاق جديدة ، ترتبت عليها نتائج مهمة كان لها اكبر الأثر في مستقبله . ففي بلاط المعتضد تعرف الشاعر بالأمير محمد ابن الملك وخليفته على العرش . ويبدو أن صفات مشتركة وميولا متشابهة جمعت بين الرجلين ومتنت عرى صداقة وثيقة اصبحت فيما بعد مضرب

الأمثال (١)

وعندما أرسل الأمير محمد فاتحاً لشلب ثم حاكماً عليها، كان ابن عمار ساعده الأيمن ورفيقه المقرب اليه(١) وهناك في شلب اصبح الشاعر البائس الشريد شخصاً آخر لا يكاد يمت الى سابقه بصلة، فقد غيرت الحياة المترفة التي كان يحياها الى جانب الأمير في قصر الشراجيب كل مظهر من مظاهر حياته القديمة البائسة. لقد استجاب الرفيقان لدواعي المتعة والأنس واستسلما للملذات والمباهج وانغمرا في التبذل والمجون بشكل بقيت ذكراه عالقة في نفسيهما بعد ذلك بزمن طويل. فعندما أرسل المعتمد صديقه بعد ذلك بسنوات حاكماً على شلب، خاطبه، بابيات ذكر فيها هذه الحقبة السعيدة من حياته؛ قال فيها(٢)

ألا حيي أوطاني بشلب أبا بكر
وسلهن هل عهد الوصال كما أدرى

وسلم على قصر الشراجيب من فتى
له ابداً شوق الى ذلك القصر

منازل آساد وبيض نواعم
فناهيك من غيل وناهيك من خدر

وكم ليلة قد بت أنعم جنحها
بمخصبة الأرداف مجدبة الخصر

---

(١) المعجب، ص١١٧
(٢) قلائد، ص ٥، ديوان المعتمد ص١١

وبيض وسمر فاعلات بمهجتي
فعال الصفاح البيض والأسل السمر

وليل بسد النهر لهواً قطعته
بذات سوار مثل منعطف النهر

نضت بردها عن غصن بان منعم
نضير كما انشق الكمام عن الزهر

وباتت تسقيني المدام بلحظها
فن كأسها حيناً وحيناً من الثغر

وتطربني اوتارها وكأنني
سمعت بأوتار الطلى نغم البتر

وابن عمار نفسه لم ينس هذه الأيام الهانئة فقد بقيت ذكراها عالقة فى خاطره يستعيدها كلما حاقت به الكروب وداهمته المصائب، وها هو ذا يذكرها فى قصيدته التى بعث بها الى الأمير محمد بعد ذلك بسنوات وهو فى سرقسطة خائفاً من غضب المعتضد وبطشه وطامحاً بالحصول على عفوه ورضاه، قال(١) :

أشلب، ولا تنساب عبرة مشفق!
وحمص،(٢) ولا تمتاد زفرة نادم!

---

(١) ديوان قص ٩ .
(٢) يقصد بحمص (اشبيلية) اذ كانت تسمى كذلك لان جند حمص نزلوا فيها بعد الفتح .

كساها الحيا برد الشباب فانها
بلاد بها عق الشباب تمائمي

ذكرت بها عهدالصبا فكأنما
قدحت بنار الشوق بين الحيازم

ليالي لا ألوى على رشد لائم
عنانى ولا أثنيه عن غي هائم

أنال سهادى عن عيون نواعس
وأجني عذابى من غصون نواعم

وليل لنا بالسد بين معاطف
من النهر ينساب انسياب الأراقم

بحيث اتخذنا الروض جاراً تزورنا
هداياه في ايدى الرياح النواسم

تبلغنا انفاسه فنردها
باعطر أنفاس واذكى مناسم

تسر الينا ثم عنا كأنها
حواسد تمشي بيننا بالنمائم

سقتنا به الشمس النجوم ومن بدت
له الشمس فى جنح من الليل فاحم

وبتنا ولا واش يحس كأنما
حللنا مكان السر من صدر كاتم

هو العيش لا ما أشتكيه من السرى
الى كل ثغر آهل مثل طاسم

فيبدو واضحاً أن الصديقين الشابين لم يدعا سبيلا من سبل الأنس لم يسلكاه ولم يتركا باباً من ابواب المتعة لم يطرقاه، حتى اصبحا مضرب امثال الناس وموضع حديث البعيد والقريب. لقد كان لهذه الأيام السعيدة وهذه الحياة والصفات المشتركة أثرها الفعال في تشديد روابط الصداقه وتوثيقها حتى اصبح احدهما كما يقال لا يكاد يفارق الآخر. ومع ذلك فقد كان يخالج قلب ابن عمار الذى عرف الناس وخبرهم، قلق عميق من مستقبل هذه الصلة الوثيقة كما يقول دوزى (١). تدل على ذلك القصه التى يرويها مؤرخو الأدب الاندلسي والتي يقال أنها حدثت في هذه الحقبة من حياة ابن عمار، ويبدو أن لهذه القصة اساساً من الصحة لأنها رويت فى مصدرين: ذكرها ابن بسام في كتاب «الذخيرة» (٢) نقلا عن المعتمد بن عباد، ورواها عبد الواحد المراكشى في كتابه «المعجب» (٣) نقلا عن ابن عمار نفسه.

يقول ابن بسام... ويتعلق بهذا القتل الشنيع خبر غريب المسموع من ذلك الأوان وحديث طريف من الحدثان، اخبرت به عن غير واحد من وزراء المعتمد، وذلك أنه لما مضت لقتل ابن عمار ايام، حضروا مع المعتمد

---

(1) Mus.Esp,T.3P84.

(١)

(٢) الذخيرة ق ٢، ف. ابن عمار

(٣) المعجب ص ١١٧

في مجلس أنس . فلما طابت الأنفس وأخذت منهم حميا الاكؤس ، وراح المعتمد وهز عطفه ، وبدا على قسماته عطفه ، سئل عن هذا الخبر المستظرف الذى كانوا سمعوه من بعض السلف واقسموا عليه بتخليد ملكه في ان يحدثهم بحديث كان اليه ينسب ، وقالوا هو من فم مولانا اطيب . فقال لهم كلاماً معناه ، لعل هذا الاستخبار عن شأن ابن عمار . قالوا : أجل . وطفقوا يفدونه بالأنفس واكثروا فى وداده من شرب الأكؤس ، فأخبرهم أنه كان أيام مقامه بشلب قد غلب ابن عمار على نفسه ، وأخذ بمجامع انسه ، فأمره واخذ عليه : اذا دعا اصحابه أن يكون أول داخل وآخر خارج ، ليأنس به ويتمتع بأدبه ، فيجده ينفر نفار العثار ويتسلل من مجلسه تسلل الطريدة من يد الصائد . فلما ابى الا اطراداً عن اصله وطال عليه ذلك من فعله ، تقدم الى اصحاب سدته ليلة فى ترقبه ومنعه عن مذهبه ، وانذر وتهدد وابرق في ذلك وارعد . وقام ابن عمار كعادته فلم يحفل المعتمد ليلته بمكانه لما كان قدم من شأنه . فلما انفض من كان عنده التمسه ففقده ، وطلبه منتهى جهده فما وجده . واحضر من كان تقدم فيه ، فاخبر انه لم تقع له عين عليه . فرابه امره وخفى عنه سره ، فشهر فيما بلغنى سيفه واخذ الشمع بين يديه ، وجعل يطلبه حيث يحسبه ولا يحسبه ، فلما انتهى الى بعض الدهاليس ، اذا بحصير مطوى وابن عمار فيه اغمض من سر خفى ، عريان كالا فعوان . فأمر بحمله وهو قد تعجب من فعله . فلما استقر بالمعتمد المجلس جعل يبسط جانب ابن عمـــار ويؤنسه ، وابن عمار يبكى فيضحك ، ويشكو فيشكك . فلما سكن قليلا وأفرخ روعه ورقى دمعه ، سأله عن شأنه .

فاخبره أنه كلما كانت تأخذ منه الشمول يسمع كأن قائلا يقول : يامسكين هذا يقتلك ولو بعد حين . كلاماً هذا معناه . فلا يزال يطلب الأنس بوسعه فيبعد عليه ذلك ويمتنع حتى يصنع مايصنع الى ان كان له معه الذى قدر (١)

هكذا يروى ابن بسام هذه الحكاية مستنداً على حديث للمعتمد مع وزرائه . أما عبد الواحد المراكشي وهو أبعد عهداً عن عصر ابن عمار من سلفه ، فقد رواها بشكل يختلف بعض الاختلاف عن رواية ابن بسام . معتمداً على حديث لابن عمار نفسه . قال المراكشي :

«وله معه (اى لابن عمار مع المعتمد) أيام كونهما بشلب خبر عجيب . وذلك ان المعتمد استدعاه ليلة الى مجلس أنسه ، على ما كانت العادة جارية به ، الا انه في تلك الليلة زاد في التحفي به والبر له على المعتاد ، فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه : لتضعن رأسك معي على وساد واحد ! فكان ذلك . قال ابن عمار فهتف بي هاتف فى النوم يقول ! « لا تغتر ايها المسكين انه سيقتلك ولو بعد حين ! » قال : فانتبهت من نومي فزعاً ، وتعوذت ، ثم عدت ، فهتف بى الهاتف على حالته الاولى ، فانتبهت ، ثم عدت ، فسمعته ثالثة ، فانتبهت ، فتجردت من اثوابى والتففت فى بعض الحصر ، وقصدت دهليز القصر مستخفياً به ، حتى آتى البحر فاركبه واقصد بلاد العدوة فاكون في بعض جبال البربر حتى أموت . فانتبه المعتمد فافتقدنى فلم يجدنى . فامر بطلبي ، فطلبت له في نواحي القصر ، وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه ، فكان هو الذى وقع عليه ، وذلك أنه اتى دهليز القصر يفتقد الباب هل فتح ، فوقف بازاء الحصير الذى كنت فيه ، فكانت

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابن عمار

مني حركة فأحس بي وقال ما هذا يتحرك في هذا الحصير ؟ ثم أمر به فنفض ، فخرجت عرياناً ليس علي إلا السراويل . فلما رآني فاضت عيناه دموعاً وقال : يا ابا بكر ، ما الذي حملك على هذا ؟ فلم ار بداً من أن صدقته ، فقصصت عليه قصتي من أولها الى آخرها . فضحك وقال : يا ابا بكر اضغاث احلام ، هذه آثار الخمار ، ثم قال لي : وكيف اقتلك ؟ أرأيت أحداً يقتل نفسه ؟ وهل انت عندي الا كنفسي . فتشكر له ابن عمار ودعا له بطول البقاء ... » (١) .

ولا يهمنا الاختلاف بين الروايتين بقدر ما يهمنا اتفاقها في وصف متانة عرى الصداقة بين الشاعر والمعتمد وشدة تعلق هذا الأخير بالأول مما سيكون له اكبر الاثر في حياته المقبلة .

وهكذا كانت حياة ابن عمار في شلب ، حياة كلها متعة وانس ، وترف وبذخ بين جدران قصور الامراء حيث العيش فيها اشبه بالاساطير .

العودة الى اشبيلية

في عام ٤٥٠ هـ (١٠٥٨) قتل المعتضد ابنه اسماعيل لاتهامه بالتآمر ضده ودعا ابنه الأمير محمد (المعتمد) حاكم شلب ليحل محل ابنه القتيل ولياً للعهد وحاجبا للخليفة هشام المزعوم (٢) ، الذي اصطنعه ملوك بني عباد تبريرا لتسلمهم مقاليد الحكم . وهكذا عاد الامير الى إشبيلية يصحبه صديقه ابن عمـــار ليعيشا في بلاط المعتضد الملك المرعب .

(١) المعجب ، ص ١١٧ . الحلة السيراء ، ف ابن عمار . بنو عباد ، ج ٢ ، ص ٩١١

(٢) البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٣٤٨ ؛ المعجب ص ١٠٠

ولكن مقام الشاعر لم يطل من هذه المدينة إذ سرعان ما اضطر الى مغادرتها منفياً الى سرقسطة وشرق الاندلس . وقد ذكر ابن بسام في سبب هذا الفراق بين الصديقين أن ابن عمار « أوجس خيفة في نفسه من ابيه المعتضد ففر عن البلد ولحق بشرق الاندلس . . . (١) » اما عبد الواحد المراكشي فيقول في سبب ذلك ان المعتمد « سلم اليه (اى الى ابن عمار) جميع اموره فغلب عليه ابن عمار غلبة شديدة ، وساءت السمعة عنهما . . فاقتضى نظر المعتضد التفريق بينهما فنفى ابن عمار عن بلاده . . . (٢) » .

وسواء أكان سبب ترك ابن عمار لاشبيلية خوفه من بطش المعتضد ام نفيه منها ، فانه لم يترك دون شك هذه المدينة وحياته الهانئة الرضية فيها ، مختاراً راضياً ، بل مكرها حزيناً وخائفاً مترقباً . وواضح من قصائده التي نظمها بعد ذلك أنه لم يكن ليستطيع الرجوع اليها دون الحصول على عفو الملك ورضاه .

ابن عمار في المنفى

عاد ابن عمار الى حياته الشاقة المتعبة ، تمسك بخناقه الحاجه ويطارده الحرمان رغم رعاية المقتدر بن هود أمير سرقسطة له وعنايته به ، وطفق يتنقل بين هذه المدينة ومدن شمال شرقى الأندلس الأخرى ولا سيما لاردة حيث المستعين بن هود اكبر اولاد المقتدر ، دون كبير جدوى او نفع ، فقد كانت حياته عسيرة شقية تذكره دائماً بالايام السعيدة التي قضاها الى جانب صديقه في شلب وإشبيلية . لذا فقد كان هم الشاعر السعي بكل ما لديه

---

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ف ٠ ابن عمار

(٢) المعجب ، ص١١٧

من وسائل واساليب للحظوة بعفو المعتضد والعودة الى إشبيلية مرتع احلامه ومحط امانيه ، ولم تكن هذه الوسائل والاساليب تتعدى التوسل الى المعتضد حيناً والى ابنه الامير محمد حيناً آخر والى هذا الصديق او ذاك ممن يتمتع لدى ملك إشبيلية بحظوة وتأثير فى اطوار اخرى . وهكذا كان بعد ابن عمار عن إشبيلية وشوقه الشديد اليها مصدر إيحاء مستمر ومبعث الهام شعرى دائم له مدة بقائه فى هذه البلاد . فترك لنا نخبه من خيرة انتاجه الادبى رغم أنه نزر قليل إذا ماقورن بالمدة الطويلة التى قضاها الشاعر في تلك الاصقاع والتى يبدو أنها قاربت عشر سنوات .

إن مالدينا من شعر ابن عمار الذى لابد أن يكون قد نظمه في هذه الفترة لا يتجاوز في الواقع اربع قصائد ، واحدة كتبها الى المعتضد والثانية ارسلها الى المعتمد والثالثة والرابعة ارسلها الى أبي الوليد بن زيدون وزير المعتضد ومشاوره الاول . ولكن هذه القصائد على قلتها نماذج قيمة لاروع ما نظم ابن عمار من شعر وخير ماقدمه من مساهمة فى التراث الأدبي الأندلسي .

الميمية

اما القصيدة الاولى فميمية (١) من البحر الطويل تشتمل على ثلاثة وتسعين بيتاً ارسلها الشاعر من سرقسطه الى صديقه الأمير محمد (المعتمد) في إشبيلية وضمنها كل ماكان يجول فى نفسه من افكار وانطباعات ؛ ومايعتمل في قلبه من مشاعر وعواطف وانفعالات واحساسات ، كما سكب فيها كل ما يمتلك من

---

(١) ديوان ص ٩

مقدرة على نظم القصيد وبراعة في سبك الالفاظ ، حتى اننا لنستطيع اعتبارها النموذج الحى لشاعرية ابن عمار في وجوهها المختلفة ، في قوتها وضعفها ، في أصالتها ونكالها ، في تحليقها وهبوطها . إننا نستطيع أن نكتشف خلال هذه الابيات الثلاثة والتسعين شاعراً مبدعاً جديراً بأن يحتل مكاناً احسن بكثير من هذا الذى يحتله الآن ، شاعراً يجمع بين غزارة الشعور وتدفقه ، وتملك ناصية الصياغة الشعرية والصناعة الكلامية .

اما فاتحة هذه القصيدة فهي شكوى وتذمر ، ولكنها شكوى تختفي فيها العواطف الملتهبة خلف التكلف البياني الواضح والتشبيهات المصطنعة التي تكاد تقرب من الابتذال ، بل ويكاد ابن عمار يرد على قصيدة ابن زيدون اللامية المشهورة التي نظمها شاكيا مراره السجن وعنت الحياة وقسوة الدهر والتي قال في مطلعها (١)

الم يأن أن يبكى الغمام على مثلي
ويطلب ثأرى البرق منصلت النصل

وهلا اقامت انجم الليل مأتماً
لتندب في الآفاق ما ضاع من نبلى

فيقول (اي ابن عمار):

عـــلي والا ما بكاء الغمائم
وفى والا مانياح الحمـــائم

(١) الذخيرة ، ق ، ج١ ، ص ٢٧٣

وغني أثار الرعد صرخة طالب
لثأر وهز البرق صفحة صارم

وما ابست زهر النجوم حدادها
لغيري ولا قامت له في مآتم

وهل شققت هوج الرياح جيوبها
لغيري او حنت حنين الروائم

ويستمر كذلك محاولا تقليد الشعراء القدامي ، فيصف الخيل وسرعتها الى أن يصل الى التحدث عن ذكرياته السابقة في إشبيلية وشلب ، فنلاحظ آنذاك روحاً جديداً ابتدأ يسرى في القصيدة ، روحاً منشؤها الاخلاص والصدق والعواطف الفياضة ، وقد مرت بعض هذه الأبيات عند حديثنا عن حياة ابن عمار في شلب .

ينتقل الشاعر بعد ذلك الى ذكر حاله في سرقسطة ليتضح الفرق بين الماضي السعيد والحاضر الشقي، فهو يشكو من كل شيء : من صعوبة العيش ، وجفاء الناس وجهلهم وما يحيط به من دسائس وغنائم فيقول :

هو العيش لا ما أشتكيه من السرى
الى كل ثغر آهل مثل طاسم

وصحبة قوم لم يهذب طباعهم
لقـــاء أديب او نوادر عالم

صعاليك هاموا بالفلا فتدرعوا
جلود الأفاعى تحت بيض النمائم

ندامي ولا غير السيوف أزاهرى
لديهم ولا غير الغصون كمائمي

وما حال من ربته ارض أعارب
والقت به الاقدار بين الأعاجم

ويغضب ابن بسام لتحامل الشاعر على اهل سرقسطة هذا التحامل العنيف وهجوهم هذا الهجاء المقذع فيقول : « رما ينقضي عجبى من ابن عمار أن ينكر تلك الهيئة على اهل ثغر ابناء قتلي وبقايا اسرى فما خلوا من هيمة من النصارى اذ مسافة ما بينهم اقصر من ابهام الحبارى ، وبلدهم مجرعواليهم وموقد صاليهم ومخفق اعلامهم ودرية سهامهم . (١) » ويستمر ابن عمار قائلا :

يقبح لي قوم مقامي عندهم
وقد رسفت رجل السرى في الاداهم

يقولون لي دع ايدى العيس انها
تؤدى الى أيدى الملوك الخضارم

فديتهم لم يبعثوا حرص عاجز
ولا نبهوا اذ نبهوا طرف نائم

(١) ابن بسام . الذخيرة . ق ٢ ، ف ابن عمار

ولكنها الايام غير حوافل
بأرب اريب او حزامة حازم

واني لأدعو لودعوت لسامع
واني لأشكو لوشكوت لراحم

اريد حياة البين والبين قاتلي
وارجو انتصار الدهر والدهر ظالمي

ثم يعود يبحث عن خلانه واصدقائه الذين يرجو منهم ان يقفوا الموقف الذي يتطلبه الاخاء وتقتضيه الصداقة :

ونبئت اخوان الصفاء تغيروا
وذموا الرضى من عهدي المتقادم

لقد سخطوا ظلما على غير ساخط
عليهم ولاموا ضلة غير لائم

ومع ذلك فان الذي يراود احلامه ويستهوي خيالاته ، هو عفو المعتضد ورضاه . عند ذلك فقط تبدأ حياته من جديد رضية مشرقة فينمحي الماضي بكل ما فيه من عنف وقسوة وآلام وتزول الضغائن من النفوس ويبتسم الدهر وتزهو الحياة :

ولو أن عفواً من هنالك زارني
لزرت وما عدو الزمان بدائم

أجر ذيول الليل سابغة الدجى
واركب ظهر العزم صعب الشكائم

فاورد ودي صافياً كل شارب
والبس حمدي ضافياً كل شائم

وأغضي لمن يلقي بوجه مكاره
حياءً فألقاه بوجه مكارم

وما هو الا لثم كف محمد
وتمكين كفي من نواصي المظالم

ان اتفقت لي فالعدو موافق
على كل حال والزمان مسالمي

بعد هذه الموضوعات الشخصيه ينتقل الشاعر لمدح الأمير محمد وابيه المعتضد فيطيل في ذلك كل الأطالة ويفتن في استعمال البديع والبيان ويغوص خلف التشابيه النادرة والمجازات الغريبة فيستثير اعجاب نقاد عصره ومن جاء بعدهم ممن اولعوا بالصنعة وشغفوا بتنميق الكلام. ولكن رغم ذلك فاننا نحس بلوعه الشاعر وتلهفه الى رضى الأمير، نحس بشعور عميق يحرك الشاعر ويدفعه الى التوسل والرجاء والاستعطاف، بل وحتى الى المبالغة في المديح. فيقول مقدماً قصيدته الى الامير محمد:

ابا القاسم اقبلها اليك فانها
تناؤك مسكي والقوافي لطائمي

محملة عذراً فانك جملة
من الفضل لم استوفها بتراجم

فديتك ماحبل الرجاء على النوى
بواه ولا ربع الوفاء بقاتم

انا العبد فى ثوب الخضوع لوانني
ارى البدر تاجى والنجوم خواتمي

وما عز فى الدنيا طلاب لماجد
ولا اعتاص فى الايام ورد لحائم

ولـكن ذاك الظل اندى غضارة
لضاح وذاك البرق اوفى لشائم

وانى - اذا انصفت، بعدك خادم
لدهرى وكان الدهر عندك خادمي

الى أن يقول :

وثقت بحظى منك لم اخش نبوة
عليك وأرم بالظنون الرواجم

ولو نهضت بي قدرة كل ساعة
لأديت من تقبيل كفك لازمي

لعل الذى أقذى بترحة راحل
عيوناً سيجلوها بفرحة قادم

فترجع ايام مضت وكأنها
اذا امتثلتها النفس لذة حالم

ثم ينهي الشاعر قصيدته متمنياً للأمير السعادة والهناء وطول البقاء .

لقد حظيت هذه القصيدة كما مر باعجاب اهل عصر الشاعر ونقاده فاطنبوا في اطرائها ومدحها واقتباس ما جاء فيها من المعاني والافكار والتشبيهات. حتى ان ابن بسام يقول «اما معاني هذه القصيدة فحجة مسلوكة ومضغة ملوكة . قد كثر تجاذب الشعراء أهدابها وقرعوا بابها حتى صارت كالجمل المذلل والمهيع من السبل ... (١) ويذكر بعض مؤرخي الأدب الاندلسى كعبد الواحد المراكشي (٢) أن ابن عمار نظم هذه القصيدة فى سرقسطة وأرسلها من هناك الى الامير محمد بن عمار ، الا أن ابن الابار يذكر (٣) أن الشاعر كان في لاردة فى شرق الاندلس حين نظم قصيدته هذه وارسلها لصديقه من تلك المدينة. وسواء أصح هذا القول ام ذاك فان من الواضح أن ابن عمار نظم قصيدته بعد مفارقته لاشبيلية اثناء حكم المعتضد وأنه كان لا يزال قريب عهد بحياته السعيدة التي قضاها هناك .

أما القصيدة الثانية التي نظمها فى هذه الفترة فلدينا منها ابيات غزلية لابد ان تكون فاتحة قصيدة طويلة ارسلها الى المعتضد من منفاه . واهمية هذه الابيات التي لدينا تنحصر فى كونها خير نموذج لغزل ابن عمار

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابن عمار .
(٢) المراكشي ، المعجب ص ١١١ .
(٣) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ف ابن عمار .

ولأسلوبه في وصف مشاعر الحب والصبابة، وهو اسلوب قد يرضى نقاد عصر الشاعر ولكنه بعيد جداً عن أن يحدث هذا الاثر في نفوس من لايكتفون بالتنميق اللفظى والعبث البياني والمبالغة المملة، بل يبحثون عن العواطف العميقة والتحسس الفنى، يقول في مطلع هذه الابيات (١)

جاء الهوى ـ فاستشعروه ـ عاره
ونعيمه ـ فاستعذبوه ـ أواره

قالوا اضر بك الهوى فاجبتهم
ياحبذاه وحبذا أضراره

الى ان يقول واصفاً حبيبه:

من قد قلبي اذ تثنى قده
وأقام عذرى اذ اطل عذاره

أم من طوى الصبح المنير نقابه
واحاط بالليل البهيم خماره

غصن ولكن النفوس رياضه
رشأ ولكن القلوب عراره

سخرت ببدر التم غرته كما
أزرت على آفاقه ازراره

أتحس في هذه الطباقات المتكلفه والجناسات المصطنعه أى أثر للشعور

---

(١) انظر ديوان ص١٠.

الحي والاحساس العميق ؟ كلا طبعا . . إن هذه الظاهرة لدى كثير من الشعراء المتمكنين من النظم لتجلب اليها الانتباه . فما نعرفه عن ابن عمار يدل على انه كان منهمكا باللذات مغرما بالنساء، حساسا تجاه الغلمان ، فلم لا ينعكس هذا الميل في الشعر ؟!.. فنحن لا نكاد نلحظ في الشعر الذي نظمه الشاعر في هذه المناسبات سوى معان مبتذلة وافكار اخلقها الشعراء اعادة وتكراراً . أفنستطيع القول إن ابتذال المرأة نفسها في الاوساط الارستقراطية الاسلامية افقدها أثرها الروحي وجعل منها اداة للعبث واللعب والتمتع ؟ وهل يمكن ان تكون المرأة مصدر وحي والهام اذا لم تكن ذات منزلة رفيعه في نفس الشاعر وموضع احترامه وتقديره ؟!

وعلى كل حال فما لنا نتطلب من ابن عمار أن يخلص ويبدع وهو لم ينظم هذه الابيات تغزلا بحسناء او شوقاً الى حبيب وانما اتخذها وسيلة يبدأ بها قصيدته لينتقل بعد ذلك الى غرضه الاصيل وهو الاعراب عن شوقه الشديد لاشبيلية ومدحه لمليكها المعتضد عباد حيث يقول :

فوحسنه لقد انتدبت لوصفه
بالبخل لولا ان حمصاً داره

بلد رمتني بالمنى اغصـــانه
وتفجرت لي بالندى انهـــاره

بلدمتى أذكره هيج لوعتي
واذا قدحت الزند طار شراره

اما القصيدتان الاخريان اللتان لدينا من هذه الحقبة فقد ارسلها

الشاعر الى الوزير أبي الوليد بن زيدون الشاعر المعروف ، مستشار المعتضد الاول ويده اليمنى . والقصيدتان تمثلان نموذجاً رائعاً من ادب الرسائل الشعرية . فاما اولاهما فهي بائية من البحر الطويل لدينا منها اثنا عشر بيتاً ، مطلعها (١)

تأملت منك البدر في ليلة الخطب
ونلت لديك الخصب في زمن الجدب

يقول فيها معاتباً صديقه القديم :

أحين سقى صوب اعتنائك ساحتي
فنعمها واهتز روضي في تربي

ثنيت لعطف قد ثنيت مدائحي
عليه وسرب قد بذلت به سربي

أما انه لولا عـــوارضك التي
جرت فى جرى الماء في الغصن الرطب

لما ذدت طير الود عن شجر القلى
ولا صنت وجه الحمد عن كلف العتب

ولكن سأكني بالوفاء عن الجفا
وأرضى ببعد بعد ما كان من قربي

وان لفحتني من سمائك حرجف
سأهتف يابرد النسيم على قلبي

(١) ديوان ، ص ٨

وإذا قلدت جاهك مطلبي
واخفقت فيه قلت يازمني حسبي

أيظلم في عيني كذا قمر الدجى
وتذبو بكفي شفرة الصارم العضب

وأما ثانيتهما فهي لامية من البحر الكامل المجزوء، فيها من الابداع الشعري ما يلفت النظر ويجلب الانتباه، مطلعها (١) : (م)

كيف اعتززت على الدليل
وقطعت أسباب الوصول

وفي القصيدة عتاب مرير وشكوى قارصة من موقف ابن زيدون تجاه صديقه القديم رغم ما يجمعهما من ذكريات وما تمتعا به مشتركين من سويعات.

أبرزت في خلق الكريـ ... (م)
ـم وراءه خلق البخيل

ودعوتني حتى أجبـ.. (م)
..ـتك ثم حدت عن السبيل

جد بالقليل فان نفـ.. (م)
ـسي منك تقنع بالقليل

واذكر على زمن قطعـ (م)
ـناه بصافية شمول

---

(١) ديوان ص ١٠٤ ، الذخيرة ، ج ١ ، ١ ، ٣٧٣

اذ نسحب الأذيـــال ما
بين الخليج الى النخيـل

ونحل من سيف الغديـ.. (م)
ر بقبة الظـل الظليـــل

والروض ممطـــور تنم
عليـه أنفـاس القبول

والشمس ترمقنا خــلال (م)
الغيم عن طرف كليل

أبان يحـــدو الرعد من
ورق السحائب كالحمـــول

ويهز كف البرق في (م)
الآفاق مرهفة النصـــول

زمن ستبكيه الحمـــام (م)
معي وتذهل عن هديل

يـــابـــرق أد رســـالتى
تفديك نفسى من رسول

عـرج بشلب محييـاً
ماشئت من تلك الطلول

واطلع على شرفات حمص
قرارة الشرف الاثيـل

فاذا اجتلاك ابو الوليد
بناظـر اليقظ النبيـل

فاقرأه من قلبي سلامـاً
يقتضي حسن القبول

ثم يمضي الشاعر بعد ذلك فى مدح الوزير طالباً منه الشفاعة لدى الملك المـرعب :

إشفع عنـايتك الجليلة (م)
لي لدى الملك الجليـل

وعاقداً أمله كله عليه .

وواضح أن فى هذه الابيات غير قوة التركيب ومتانه التعبير شيئاً آخر يتفجر من الالفاظ فينفذ الى النفوس ، شيئاً نستطيع أن نقول إنه جزء من نفس الشاعر نجح فى أن ينتزعه انتزاعاً ويصله باحساسنا ، فشعرنا به دون أن نستطيع تمييزه بوضوح .

هذا كل مالدينا من شعر ابن عمار في هذه الحقبة العسيرة من حياته التى قضاها منفياً في سرقسطة وشمال شرقى الاندلس . إن مؤرخي الأدب الذين عنوا بأخبار الشاعر لم يحدثوا لنا بدايتها ، فكل ما نعرفه عن ذلك ، هو

أن ابن عمـــار نفى من إشبيلية كما ذكرنا بعد رجوع الامير محمد (المعتمد) اليها عام ٤٥٠ بفترة من الزمن لاسبيل الى تحديدها اعتماداً على ما لدينا من أخبار . ولـكن الشيء الذى اتفق عليه هؤلاء المؤرخون ، أن هذه الحقبة المريرة من حياة الشاعر انتهت بوفاة المعتضد عام ٤٦١ هـ (١٠٦٩ م) ومجيء ابنه المعتمد على عرش إشبيليه . إذ سرعان ما استدعى ابن عمار من منفاه ليحتل قرب الملك الجديد أعلى المراتب وأسمى المناصب

ابن عمار
في أثناء حكم المعتمد بن عباد

لقد أحدث مجيء المعتمد الى العرش تحولاً خطيراً فى حياة ابن عمار. فلم يعد ذلك الشاعر الأفاق الذى يعيش من إحسان الآخرين وعطفهم، ولا ذلك الذي يعتمد فى حياته على رضى وارتياح كبار رجال عصره الذين سخر كل مواهبه، ولاسيما الشعر به، لخدمة أغراضهم والاستجابة لأهوائهم. لم يعد ذلك الشاعر البسيط ذا الأصل المغمور والمنزلة التافهة والمكانة المزدراة، وإنما أصبح شخصاً آخر يختلف كبير الاختلاف عن سابقه، فقد استبدل بمهنته مهنة أخرى أسمى مركزاً وأعلى مقاماً، واتخذ لنفسه، بدل طبقته الواطئة طبقة اخرى أرفع جاهاً وأبهى حياة. لقد أصبح من خاصة الاشراف بكل ما يتطلبه الانتساب لهذه الطبقة من ترف وبذخ وحياة ناعمة ومشاعر خاصة. لقد أصبح رجل دولة وقابضاً على زمام حكم، مع جميع ماتقتضيه هذه الرتبة من غنى وقوة ونفوذ. وأما الشعر فلم يعد وسيلته الأصيلة للعيش، وإنما حلية وزينة تتطلبها مقتضيات الحياة الأرستقراطية ومركزه الاجتماعى الجديد.

إنه لما يبعث العجب أن نلاحظ الى اى مدى هائل أثر تبدل طبقة ابن عمار، أى تبدل حالته الاقتصادية ومنزلته الاجتماعية في شعره. ولو أن ذلك لايعنى أنه قطع صلته بماضيه، بل على العكس من ذلك فقد بقي لأيامه

الماضية اثرها الكبير فى حياته السياسية والادبية . وسنرى الشواهد على ذلك حينما نستعرض نشاطه السياسي والادبي .

ابن عمار السياسي

لقد كان من ألمع شخصيات عصره السياسية ، بل إنه نموذج فريد من نماذج الساسة فى العصور الاسلامية المختلفة ، يستحق منا كل عناية واهتمام . وقد كان لحياته الأولى ونشأته أثر واضح في سمة معرفته بالعصر الذين يعيش فيه والناس الذين يخالطهم . وها نحن نحاول في السطور القادمة إيضاح الخطوط الاساسية في سلوكه السياسي قبل أن نتطرق الى أعماله السياسية التي هزت إسبانيا المسلمة طيلة تسلمه مقاليد الوزارة في اشبيلية .

لقد كان همه الأول في هذا الميدان هو احتكار صداقة الامير - إذا صح هذا التعبير - وتقوية نفوذه لديه (١) إلى أن شهد فى نفسه القوة على العمل لحسابه الخاص والاستغناء عن سيده . ولم تكن الجهود التي بذلها للوصول الى هدفه هـذا صعبة التحقيق ، إذ لم يكن أمامه عند رجوعه الى إشبيليه سوى ابى الوليد بن زيدون وزير المعتضد . ولدى المؤرخين الاندلسيين إشارات عديدة الى الشعور غير الودى الذى كان يعتمل في نفس ابن عمار تجاه وزير دولة بني عباد المتنفذ ، والى المحاولات المختلفة التى قام بها للتخلص من غريمه . وقد نجح أخيراً في مسعاه عندما أقنع المعتمد بارسال ابن زيدون من قرطبة الى إشبيلية لاخماد ثورة قامت ضد اليهود هناك . ولم تكن حال ابن زيدون الصحية لتسمح له بتحمل مشقات السفر ومتاعبه فما كانت غير بضعة أيام على وصوله الى إشبيلية حتى لفظ أنفاسه الاخيرة في عام ٤٦٣ هـ

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابن عمار . ابو الوليد بن المصبحي .

(١٠٧١م) (١) .

لقد بقي ابن عمار صاحب النفوذ الأوحـــد تقريباً على المعتمد ، مبعداً عنه كل من لا يرغب فيه . وقـــد قلنا تقريباً ، لأن شخصية اخرى في حياة الملك لم تكن قليلة التأثير فيه حتى آخر أيام حياته ، ونقصد بها اعتماد الرميكية زوجة المعتمد الحسناء ، التي كان قد التقى بها على شاطيء الوادي الكبير في مرج الفضة في ضواحي إشبيلية ، فنتن بجمالها وشغف بها حباً ، فاشتراها من سيدها رميك بن الحجاج وتزوج بها . لقد كانت الشخص الوحيد الذي شارك المعتمد في سرائه وضرائه حتى نهـــاية حياته في منفاه النائـــي .

إن ما نعرفه عن علاقة ابن عمـــار باعتماد يشير الى أن الشاعر كان مع المعتمد حين التقى بهذه الجارية الحسناء ، كما نعلم ايضاً أنها كانت عدوته اللدود في آخر حياته ، بل إنها كانت سبباً رئيساً من اسباب القضاء عليه . ويذكر المؤرخون الاندلسيون أن سبب هذا العداء العنيف هو قصيدة نظمها ابن عمار في هجاء المعتمد (٢) وكان لاعتماد فيها من هذا الهجاء أوفى نصيب . حيث قال :

تخيرتها من بنات الهجـــان (م)
رميكـــية ما تساوي عقالا

فجـــاءت بكل قصير العذا (م)
.. ر لئيم النجارين عماً وخالا

---

(١) الذخيرة ج ١ ، ص ٣٥٥ ، عبد السلام الطود ، بنو عباد ، ص ١٤٣ .
(٢) انظر الديوان ، قص ٥٩

بصفر الوجوه كأن اسفها
رمام فجاءوا حيارى كسالا

ولكن ، لنا أن نتساءل ، أكان ابن عمار يصل في الاقذاع الى هذا الحد لو لم يكن العداء بينهما مستحكما منذ أمد طويل ؟ ! من الواضح أن كرها متبادلا كان متغلغلا فى نفسيهما قبل ذلك بوقت ليس بالقصير ، أى فى أثناء مقام ابن عمار في إشبيلية وهو في قمة مجده وعنفوان نفوذه ، وإلا لما اختارها ليصب عليها جام غضبه ويوجه اليها أقذع شتائمه . ولا نريد أن نزعم أن صداقة المعتمد الشديدة لابن عمار أثارت غيرة اعتماد فليس بين أيدينا من المعلومات ما يثبت ذلك ، الا أننا لانريد ايضاً ان نتغافل تماماً عن وجود أثر لعلاقه الملك بوزيره على علاقة زوجته به وشعورها نحوه وسلوكها تجاهه .

لقد استطاع ابن عمار أن يزيح من طريقه جميع منافسيه عدا اعتماد التى بقيت عدواً خطراً لم يكل عن محاربته حتى قاده الى حتفه .

أما فى ميدان السياسة العامة فقد كان ابن عمار يمثل اتجاهاً مهماً جداً في سياسة ملوك الطوائف فى إسبانيا المسلمة آنذاك . لقد كان لابد للساسة المسلمين في تلك الفترة المضطربة من التاريخ الأندلسي أن يختاروا ـ كما اعتقد ـ واحداً من هذه الخطوط السياسية الرئيسة الثلاثة ، متخذين مصالح دويلاتهم التي تكون جزءاً لايتجزأ من مصالحهم الشخصية قاعدة لسياستهم .

اولا : سياسة إسلامية . باعتبار أن مصلحة دويلاتهم مرتبطة بمصلحة

الاسلام ، وعندئذ لابد لهم أن يضعوا نصب أعينهم توسيع نفوذ الاسلام ومحاربة المسيحيين ، وتضحية جميع الأهداف الثانوية الاخرى فى سبيل هذه الغاية النبيلة السامية العليا . ولسنا الآن بصدد بحث إمكان تطبيق مثل هذه السياسة آنذاك ، ولكن ما نستطيع قوله ، هو أن أنصارها لم يكونوا كثيرى العدد بين الساسة الاندلسيين في حياة ابن عمار ، ولم يكن لهم تأثيرهم فى حياة البلاد السياسية آنذاك . وعلى كل حال ، فلم تكن هذه السياسة مطلقاً سياسة ابن عمار .

ثانياً : سياسة مسالمة وحفظ للتوازن . وذلك بقبول الحال الموجودة والمحافظه بكل الوسائل على التوازن السياسى ، والتشبث بفكرة التعايش السلمى بين جميع دول الطوائف . وربما كانت اسباب إتباع سياسة مثل هذه : هى الضعف ، او عدم التمكن من عمل غير ذلك ، او الاكتفاء بالوضع القائم . وقد كان أنصار هذه السياسة عديدين بين حكام المقاطعات الصغيرة والحصون المستقله القائمة هنا وهناك فى أطرافها . وقد اتبعت فى حياة ابن عمار السياسية بشكل يختلف قوة وضعفاً من قبل بنى الأفطس أمراء بطليوس ، وبنى زيرى أمراء غرناطه وبنى عامر أمراء بلنسيه وبنى طاهر أمراء مرسية ..الخ.

ولكن تزايد خطر المسيحيين فى الشمال فى أواخر هذه الفترة وضع ملوك الطوائف امام ظروف جديدة تفرض عليهم تبديل سياستهم والاتجاه نحو سياسة تقارب في مظهرها السياسة الاسلامية التى مر ذكرها ، وسنتحدث عن ذلك في حينه . إلا أن سياسه التعايش السلمي هذه لم تكن هي ابداً

سياسة ابن عمار .

ثالثاً : سياسة توسع وطموح ، تهدف الى توسيع رقعة المملكة بكل الوسائل الممكنة ، سواء أكان ذلك عن طريق الحرب او المؤامرات او الشراء او المعاهدات الخ ... وقد كانت أهم الدويلات التي اتبعت هذه السياسة بوضوح ممالك بنى عباد فى إشبيلية ، وبنى ذى النون في طليطلة . وبني هود في سرقسطة . وكانت قوة هذه الدويلات النسبية حافزاً مهماً دفع رؤساءها الى اتباع هذه السياسة .

ولكن هذه الامارات لم تكن مع ذلك على مبلغ من القوة بحيث تستطيع الدفاع عن نفسها تجاه الأمراء المسيحيين الاقوياء من جهة . والتوجه نحو التوسع والفتح ومهاجمة الحصون القوية والمدن المنيعة التابعة للدويلات الاخرى من الجهة الثانية . فليس هناك اذن سوى سبيل واحد لاتباع مثل هذه السياسة ، وذلك بضمان صداقة الدويلات المسيحية الشمالية بالتنازل لرغباتها وشروطها ، بل وبالتعاون معها إذ اقتضى الامر وقد كانت شروط الدول المسيحية ومتطلباتها الثقيلة سبباً مهماً من أسباب تحديد نطاق مثل هذه السياسة . ومع ذلك فقد كان ابن عمار بطلها الأول فى أقصى حدودها واوضح مظاهرها .

ولا شك أن اتجاه ابن عمار نحو هذه السياسة وتشبثه بها كان مرجعه الى معرفته التامة بحال الملوك الاندلسيين ، هذه المعرفة التى اكتسبها من سفراته الطويلة وتجاربه الكثيرة والتى أملت عليه موقفه تجاه

الملوك المسيحيين عموماً وتجاه الفونس السادس على وجه الخصوص .

كان أبو بكر يعرف ضعف ملوك الطوائف المسلمين ويدرك قوة ملك قشتالة النامية ، لذا وجه همه الى توثيق الروابط وتقوية الصلة بهذا الاخير . فقد كان الفونس السادس في الواقع الحكم الوحيد القادر على فرض وجهة نظره في النزاع المرير القائم بين الأمراء المسلمين ، فالجميع يدفعون له الأتاوات ويستميحونه الرضى والعطف ليتجنبوا هجماته ويحظوا بصداقته. ويبدو واضحاً من أقوال المؤرخين المسلمين أن ابن عمار كان يوجه عناية خاصة لأرضاء الملك المسيحي واكتساب وده وأن جهوده هذه آتت ثمارها وعادت عليه بنتائج لم يستطع نيلها غيره من ساسة المسلمين . فقد ذهب لزيارة الملك مرات عديدة ، آنا رسولا للمعتمد وطوراً بصفته الشخصية ، حتى أن بعض المؤرخين ليقول ، إنه كان موضع إعجاب الملك وتقديره (١) ، بل من المحتمل جداً ان لا يكون ابن عمار قد تمرد على المعتمد دون رضى الفونس السادس وتشجيعه أو على الأقل ، دون مشورته . وروى ابو الطاهر التميمي في هذا الموضوع أن الفونس السادس اهدى لابن عمار بعد احتلاله لمرسية التي تمرد فيها ، وطرده لابن طاهر كما سيأتي ذكره ، خاتما ، فلما سمع هذا الاخير بذلك قال متهكماً « أخاتم التأمير أم التأمين » فغضب ابن عمار عند سماعه بذلك وهدده بقصيدة قال فيها (٢)

---

(١) المعجب ، ص ١١٩ .

(٢) بنو عباد ج٢ ، ص ٩٨ . الحلة السيراء ، ف . ابن عمار ، الديوان ، قص

بلغت دعابتك التي أهديتها
في خاتم التأمين والتأمير

ولا نريد أن نحمل هذه الحكاية اكثر مما تتحمله ، إلا أنها اذا اضيفت الى القرائن الأخرى التي لدينا عن علاقة ابن عمار بملك قشتاله ، فانها توضح لنا دون شك جانباً من سياسة الوزير الأندلسي ، وتشعر بوجود علاقة خاصة بينهما دفعت ابن خاقان الى وصف ابن عمار بالتبعية [لألفونس ، اذ قال « واصطفاه العدو فاتفق به السكون والهدو ، وتهالك فيه كلفاً وهياماً وامطره من الحظوة غماماً ، واهتصر منه موادعة وائتلافاً ، استدر بها ملوك أوانه أخلافاً ، فارتاعت منه الأقطار وطاعت له البانات والأوطار ... »(١) . وأشار الى مثل هذا الرأي عبد الله بن زيري ملك غرناطة في مذكراته التي نشرها ليفي بروفنسال في مجلة « الاندلس (٢) الاسبانية ، واعطى أمثالا عديدة على الخدمات التي قام بها ابن عمار للملك المسيحي .

فقال مانصه « ولأنه (اى ابن عمار) قد استمال النصارى واندخل معهم بحيلة فتى مادهمه أمر من قبلهم وجهه (اى المعتمد) اليهم فيجلي من امرهم ما يضيق الصدر به الخ .. » .

إن من الطبيعي أن نعتقد أن علاقة الفونس بالوزير الاندلسي لم تكن نتيجة اعجاب شخصي وحب بريء ، وإنما كانت قائمة على اساس من المصالح

---

(١) قلائد العقيان ، ص ٨٦ .

(٢) مجلة الاندلس ، ١٩٣٥ ، ص ٣٢٤ ،

المشتركه، لذا نرى ملك قشتالة ينفض يديه من نصرة ابن عمار بعد هروبه من مرسيه، كما سيأتي ذكره، عندما لايجد فى هذا الأخير ما يغنى او يسمن من جوع. إلا أن هذا لا ينفي بعد نظر ابن عمار، ودقة حسابه في التمسك بصداقة الفونس السادس وتوثيق الروابط معه لتحقيق أهدافه التي لم تكن، كما اوضحنا، تتجاوز توسيع رقعة نفوذه وضرب منافسيه.

فبناء على مامر اذن، نستطيع القول إنه بالاضافة الى اسلوب ابن عمار الأول في العمل السياسى، ونقصد به احتكار صداقه ملك إشبيلية، كان همه الثانى، توثيق الروابط مع الفونس وتقوية الصلات به وجلب رضاه إذ كان لابد له من ذلك لكي يحقق مشاريعه ويطبق خططه وينفذ سياسته.

ونستطيع أن نضيف الى مامر من أساليب ابن عمار شيئاً آخر حرص على التزامه والتمسك به، وهو تقوية صلاته بالشخصيات الأندلسية وحرصه على ارضائها بمختلف الاساليب والطرق: ونظرة سريعة على ما لدينا من إنتاجه الأدبي (١) خلال مدة وزارته يدلنا بوضوح على كثرة علاقاته وتعدد اتصالاته بها. ولكن محاولة ابن عمار لتحقيق هذا الهدف لايعنى بأى حال من الاحوال، أنه كان ناجحاً فى ذلك، كما لا يعنى أنه كان مخلصاً فى علاقاته وفياً لاصدقائه: فالظاهرة الواضحة فى هذه العلاقات أنها تبدأ قوية عميقة لتنتهى بعداء شديد وحقد متبادل عميق. لقد كان

(١) انظر الديوان، قص ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٤٩، ٥٢

ابن عمار «وصولياً» - اذا اصح هذا التعبير - مع أخلص اصدقائه . فقد خان المعتمد صديقه وولى نعمته ، واستغل ضعف ابن طاهر ، رغم مابينهما من علاقات وثيقة ، ليوقع به . كما لم يسلم من لسانه السليط امير بلنسية عبد العزيز ابن أبي عامر (١) . والمعتصم بن صمادح اميرداني نفسه ، الذى كانت تربطه بالشاعر اوثق الصلات ، غضب عليه واستنكر اعماله (٢) . وسنرى انه أساء فى استعمال علاقته ببعض قواد الحصون ، فاستغل ثقته به ليقتله وينتزع قلعته . كما حاول أن يفعل الفعل نفسه مع بنى سهيل حكام حصن شقورة ففشل فى ذلك ووقع في الفخ الذى نصبه لغيره حيث آل الامر به الى السجن ، فتلفت يبحث عبثاً عن صديق ينتشله من وهدته ، فلم تصطدم عيناه بغير الشماتة والسخرية ، ولم ير سوى أعداء يتحينون له الفرص ويتمنون هلاكه .

قد يبدو للقارىء بعض التناقض فيما قلناه عن محاولة ابن عمار كسب الأصدقاء وما ذكرنا عن كثرة اعدائه . والواقع ان محاولات ابن عمار كانت قليلة الأثمار ، وان أثمرت فان ثمارها آنية وقتية ، سرعان ما تجف وينخر فيها الفساد ، إذ لم يكن الاخلاص مما ينسجم وسياسة ابن عمار واهدافه فقد كان ابو بكر رغم ذكائه مندفعاً تعميه المطامع وتمتلك عليه نفسه حب السلطان ، فلم يكن فى حال يستطيع معها تحقيق غايته هذه فى

(١) انظر الديوان ، قص ٥٨

(٢) « « « ٥١٣

ميدان العلاقات الشخصية اذ لم تكن هذه الغاية نفسها سوى وسيلة لتحقيق غاية اخرى اكبر منها وهي تحقيق مطامعه . ولا بد من الإشارة هنا الى ان ابن عمار لم يقصر جهوده على الحظوة بصداقة الحكام والامراء ، وانما توجه الى كل من وجد في علاقته به فائدة ونفعاً ، فوزع الهدايا وأغدق الاموال عند قدومه الى شلب والياً عليها وعند احتلاله لمرسية بعد خروج ابن طاهر منها ، وكان يهدف من كل ذلك الى الحصول على رضى الناس وتقريبهم اليه .

وسياسة ابن عمار هذه التي حاولنا رسم خطوطها الاساسية العامة ، كانت مستوحاة من معرفته العميقة بحال المسلمين في إسبانيا آنذاك . لقد كانت مستندة إلى ضرورة توسيع مملكة إشبيلية مع الحصول على رضى الملوك المسيحيين والتعاون معهم لتحقيق ذلك . وقد بدا لنا واضحاً أن هذه الغاية نفسها لم تكن هي آخر ما يطمح به ابن عمار ، بل كان طموحه يتجاوز ذلك ويجول حول شخصه ومصالحه الخاصة ، كما سنرى من تسلسل الحوادث . لذا نراه أول من ازدرى مصلحة مملكة إشبيلة وتمرد على أميرها المعتمد صديقه الحميم سابقاً ، عندما تهيأت له الفرصة وخلاله الجو .

ومع ذلك ، فإننا ، رغم نهاية ابن عمار المفجعة ، لانستطيع أن نقول إنه قد فشل فشلا تاماً في تحقيق غايته وتنفيذ مطامحه ، فقد كان اسمه يتردد في جوانب إسبانيا المسلمة فيبعث الرعب والهلع في نفوس ملوك طوائفها وأمراء حصونها وقلاعها(١) . وكان نفوذه في اشبيلية لايكاد يقل عن نفوذ الملك نفسه . ولكن طموحه الشديد وتعقد مشاكل تلك الفترة ،

(١) انظر قلائد العقيان ، ص ٨٦ .

بل وربما مساعدة الفونس السادس له ، منعته من إدراك عواقب أعماله والتنبوء بمصيره . كما لا بد من الاشارة الى أن اعنف ضربة وجهت له لم تأت من اعدائه وانما من اتباعه ومساعديه كما سنرى بعد قليل .

إذن فنستطيع القول إن ابن عمار كان مدركا كل الادراك لأهدافه وللاساليب التي يستعملها لتحقيق هذه الاهداف . ولكن اسبانيا المسلمة لم تكن في حال يمكن فيها وضع خطة دقيقة مضمونة النتائج متيسرة التطبيق، أيا كان واضعها. فقد كان النزاع محتدماً بين رؤساء المسلمين وامرائهم ، والشك المتبادل ، الذى كان يزيد فيه شعورهم بالضعف والخور ، وفقدانهم لأساس شرعي لسلطتهم يقربهم من رعاياهم ، أقول إن هذا الشك زاد في تعقيد الحالة السياسية وشجع المغامرين من أمثال ابن عمار على إدلاء دلوهم بين الدلاء وتجريب حظهم فى المعمعة . لقد كان هؤلاء المغامرون منتشرين آنذاك في كل جوانب الاندلس ولا سيما في بلاطات الملوك وقصور الامراء يتلمضون بانتظار فرصة سانحة وصفقة رابحة ولقمة سائغة . وكان محتدماً بينهم ، دون رحمة ولا شفقة ، نزاع مرير ترتبت عليه أفظع النتائج ، لاسيما في حكم المعتضد وأبيه ، فقد منح الأوا حديقة ملأها برؤوس ضحاياه الذين كان بينهم عدد غير قليل من وزرائه واعوانه(١) . ولم يكن أبوه القاضي أبو القاسم بن عباد بأكثر رحمة منه(٢) . أما في زمن المعتمد فقد استتب

---

(١) الذخيرة ق ٢ ، ف المتضد .

(٢) - - ، - القاضي ابو القاسم بن عباد .

الأمر في المملكة لبني عباد واستطاع وزيرهم ابن عمار ان يقبض على زمام الامور بيد من حديد ، فبدا الحال اكثر هدوءاً داخلها واقل اضطرابا . فقد اختفى منافسو الوزير الشاعر خوفاً من بطشه وإدراكاً لقوة نفوذه منتظرين الفرصة السانحة للنيل منه . ومع أن هذه الحال المضطربة قد اوقعت ابن عمار ومنعته من مواصلة طريقه الشائك ، فانها فسحت له المجال لاجتياز جزء مهم منه . ولم تكن نهاية الامراء الاندلسيين الآخرين بأسعد من نهايته على وجه العموم . فقد ذهب بعضهم كبني ذى النون وبني هود ضحية الملوك المسيحيين . وسقط الأخرون صرعى تحت سيوف المرابطين كبني عباد وبني الافطس وبني صمادح ، وفريق آخر كبني جهور وبني طاهر كانوا فرائس سهلة لجيرانهم الاقوياء وضحية نزاعهم مع بعضهم البعض .

هذه هي الخطوط الرئيسة لنشاط ابن عمار السياسي ولحياته الحافلة بالمطامع والاعمال والتنقل والتعطش للسيطرة والسلطان .

ابن عمار حاكما لشلب

ما ان جاء ابن عمار من سرقسطة إلى اشبيلية وابتدأ حياته قرب المعتمد حتى بدأ نشاطه السياسي بأن طلب من صديقه الملك تعيينه حاكماً لمدينة شلب التي نشأ فيها(١) . فقصدها في موكب كبير مثقلا بالهدايا التي وزعها على كل من رأى في اعطائه فائدة وجدوى . يجذب بذلك قلوب الناس

(١) المعجب ، ص ١١٨

ويستميلهم نحوه ، فقد سبق أن ذكرنا أن هذه وسيلة من وسائل ابن عمار واسلوب من اساليب عمله السياسي .

كما أشرنا أن كرمه امتد الى من سبق أن اعطاه مخلاة شعير في أيامه العسيرة فملأها بالفضة ، ولكنه كما يبدو لم يبق طويلا في شلب ، إذ سرعان ماترك مدينته وتوجه إلى إشبيليه حيث تولى وزارة المعتمد الاولى وبقي فيها يدير شؤون الدولة ، فيدبر المكائد ويحوك الشباك حتى ضج الأمراء منه وخافوا شره (١) ، او كما يقول ابن خاقان «فأرتاعت منه الاقطار وطاعت له الثنيات والأوطار» (٢) ، حتى كان عام ٤٧٠ هـ (١٠٨١-١٠٨٢م) فسافر في رحلة الى مرسيه لم يعد بعدها الى إشبيلية الا مكبلا بالحديد على حمار بين عدلي تبن .

وقد علل المؤرخون العرب وتابعهم في ذلك دوزي عودة ابن عمـــار السريعة الى عاصمة الملك بشوق المعتمد وتعلقه بصديقه وعدم استطاعته الابتعاد عنه وتعليل عاطفي مثل هذا لايمكن أن يبرر عودة الشاعر المغامر الطموح ، رغم مانعرفه عن صداقه ملك إشبيلية وقوة الروابط التي تصله به . فقد كان المعتمد آنذاك في الثلاثين من عمره ، وكان ابن عمـــار يبلغ التاسعة والثلاثين ، فلم يكن ماقوما به إذن في هذا السن يرجع لاندفاعات عاطفية فحسب ، هذا فضلا عن أن الصديقين سبق أن افترقا بضع سنين عندما

(١) مذكرات عبد الله بن زيري ، مجلة الأندلس ، سنة ١٩٣٥

(٢) القلائد ، ص ٨٦ .

كان الشاعر في المنفى هرباً من بطش المعتضد عباد . إذن فقد لعبت المصالح المشتركة للمعتمد وابن عمار ، ولا سيما لهذا الاخير ، دوراً رئيساً في تسنم الاخير وزارة الاول وتعهده لشؤون الدولة .

فلم يكن من مصلحة ابن عمار فى تلك الفترة القلقة الصاخبة أن يبقى بعيدا عن صديقه وملكه . فقد كانت كل مطامحه التي عرضنا لها قبل قليل ، والتي ابتدأت تتضح الآن ، تدفعه للذهاب الى إشبيلية والتمكن فيها قرب السلطان . وقد كان المعتمد نفسه فى أشد الحاجة لرجل مثل ابن عمار يساعده فى الاخذ بزمام الدولة والسير بها فى طريق التوسع والتقدم بعد أن استتبت له الامور في الداخل نتيجة سياسة البطش والعنف التي سار عليها والده . لقد كان لابن عمار صفات قل ان تجتمع في غيره ، فذكاؤه الوقاد ولباقته ومعرفته لأحوال البلاد وامرائها كانت خير مشجع للملك على اختياره لهذه المهمة الشاقة ولا نستطيع القول إنه أساء الاختيار نصل من ذلك الى أن عودة ابن عمار الى إشبيلية كانت بدوافع سياسية اكثر منها عاطفية .

ابن عمار وزيراً اولا لمملكة اشبيلية

إذن فقد أصبح ابن عمار بسرعة رجل دولة بنى عباد الاول . ولم يكن نفوذه وتأثيره يقتصران في الواقع على هذه الدولة فحسب ، بل قد تجاوزاها الى اكثر مناطق إسبانيا المسلمة . ويبدو صدى هذه الشهرة الكبيرة والنفوذ الخطير اللذين حصل عليهما فى الأوصاف التى أسبغها عليه مؤرخو العرب

والتى اشرنا اليها من قبل ، فهو مخيف (١) ، شديد الخبث ، واسع الشهرة (٢) فاذا اضفنا ذلك الى رأى الملك عبد الله بن زيرى ملك غرناطة الذى اوضحه في مذكراته (٣) والذى يبرر هذه الاوصاف بما يذكره من اعماله ، استطعنا أن نتمثل الدور المهم الذى كان يلعبه فى حياة الاندلس السياسية والتي سنرى وجوها منها في الصفحات القادمة .

فعندما نتحدث عن سياسة إشبيلية او سياسة المعتمد بين ٤٦١ هـ (١٠٦٩م) و ٤٧٤ هـ (١٠٨٢ م) ، فانما نتحدث فى الواقع عن سياسة ابن عمار نفسه فقد كان فملا العصب المحرك لهذا الاضطراب الذى شمل علاقات دولة بني عباد مع جيرانها حتى لقد أطلق عليه ملك غرناطه عبد الله بن زيرى إسم « وسيط السوء » فقد اكد هذا الملك الذى قاسى من ابن عمار الامرين « ارتباط المعتمد الى الخير وايثاره للصلح بعد زوال هذا هذا الفاسق ابن عمار عن دولته . فلم يرَ بعده (أى بعد ابن عمار) فتنة فيما بيننا وبينه (اى بين ابن زيرى والمعتمد) . فهو يعزو جميع الاضطرابات التى قامت بين المعتمد وغيره من ملوك الطوائف الى سياسة ابن عمار وتأثيره على الملك . ومع ذلك فعبد الله بن زيرى نفسه رغم عدائه الشديد للوزير الاشبيلي يعترف بأنه قدم لملكه خدمات جليلة . فقد دفع النصارى عن

(١) قلائد العقيان . ص ٨٦ . دوزى ، بنو عباد ج ٢ ٦٩ .
(٢) المعجب ص ١١٩ .
(٣) مذكرات الملك عبد الله بن زيري ، الاندلس ١٩٣٥ ج ٣ ص ٢٢٥ .

إشبيلية بضع مرات ، آنا بدهائه ، وآنا بمكائده كما اشرنا الى ذلك من قبل ولكن ملك غرناطة رغم اعترافه بأهمية النتائج التي توصل اليها ابن عمار ، لا يريد ان يرجعها الى ذكاء ابن عمار وبراعته السياسية وإنما يقول ان « كل ذلك بإقبال رئيسه وسعادة ايامه وهو (اى ابن عمار) بجهله يعتقد أن ذلك لا يتهيأ الا بسببه ويرد الحس كله الى نفسه ..» (١)

ولا نريد ان نزعم هنا أن سياسة ابن عمار لم تكن سياسة المعتمد نفسه ، او أن ننكر أن ما جرى من تبدل ، بعد نهاية دور ابن عمار فى حكم إشبيليه لا يرجع لرحيل ابن عمار بقدر ما يرجع الى تبدل عام فى الظروف التى احاطت بمملكة إشبيلية دفع المعتمد الى تعديل سياسته . فسياسة التوسع التى اتبعها ملك اشبيلية ووزيره لم تكن الا امتداداً للسياسة التي سار عليها المعتضد ولكن صفتها المميزة الخاصة بها كانت التعاون مع النصارى ، وذلك نظراً لأهمية الاهداف التى حاول الملك ووزيره تحقيقها ، فرغم هجمات المؤرخين المسلمين على ابن عمار ورغم الروح « الانتهازية » التي كانت تتمثل فى الوزير ، ورغم النفقات الباهظة التي كانت تتطلبها سياسته (نفقات حربية وأتاوات لأمراء المسيحية) ، نقول رغم ذلك فان هذه السياسة نجحت في توسيع رقعة مملكة إشبيلية الى حد كبير . لقد كان ابن عمار يضحى للمسيحيين بمبالغ طائلة ولكنه قلما كان يضحي لهم بالأرض ، وفي هذا الحساب دهاء وبراعة لا يمكن تجاهلهما .

(١) مذكرات عبد الله بن زيرى ، الاندلس ١٩٣٥ ، ص ٢٢٠

ابن عمار وقرطبة

عندما ارتقى المعتمد عرش إشبيلية ، كانت دولة بني عباد تسيطر على جنوب غربى شبه جزيره إيبيريا . وكانت قد نجحت في القضاء على الدويلات الصغيرة التى تكتنفها فضمتها تحت جناحها . ولم يبق في غرب شبه الجزيرة الا مملكة بنى الافطس فى بطليوس الواقعة شمال غربى إشبيلية ، والتى نجح المعتضد عباد في توجيه ضربات قوية لها واقتطاع اجزاء كبيرة من ممتلكاتها . ولم يكن وضعها الجغرافى مما تحسد عليه ، إذ كانت متاخمتها لبلاد النصارى تجعلها دائماً مطمح انظارهم وموقع ضرباتهم . لذا فقد كان على المعتمد أن يولي وجهه نحو الشرق والجنوب الشرقى . اى نحو دويلتى قرطبة وغرناطة . أما فى الشمال فقد كانت مملكة طليطلة القوية التى يحكمها المامون بن ذى النون الطموح ، صديق الفونس السادس ملك قشتالة وليون ، منافساً منافساً قوياً يحسب له بنو عباد ألف حساب . فليس من المستغرب أن تكون قرطبة هي هدف المعتمد الاول .

ولا نريد أن نبالغ في دور ابن عمار فى هذا الفتح ، إذ لم يكن قد مر على مجيئه سوى اقل من سنة ، إلا أن أثره لا يمكن أن يكون معدوماً في هذه الخطوة الجريئة التي تنسجم كل الانسجام مع سياسته ، ففى عام ٤٦٢ هـ (١٠٧١ م) طلب بنوجهور حكام قرطبه العون من بنى عباد ، بعد مظاهر الصداقة التى أبداها لهم المعتمد ووزيراه ابن زيدون وابن عمار ، ضد جيش طليطلة الذي يقوده المأمون بن ذى النون والذى هاجمهم من الشمال .

وسرعان ما أرسل المعتمد جيشه استجابة للدعوة ، مما اضطر ابن ذي النون على الانسحاب بجيشه . ولكن بدلا من أن ينسحب الجيش الاشبيلي ، هاجم المدينة واحتلها بالتمام مع قسم من سكانها وضمها الى مملكة ابن عباد . ولا نريد أن نطنب في وصف هذا الفتح فقد وجهنا نحوه اهتماماً اكبر في بحثنا عن المعتمد ، وانما نكتفي بالتنويه باهمية قرطبة الكبرى ، تلك المدينة التي كانت عاصمة الخلافة والتي بقيت حتى ذلك الوقت مركز الاندلس العلمي والثقافي ومحط انظار الاندلسيين ، فكان لفتحها أثر مادي ومعنوي كبير .

ابن عمار وغرناطة

ولم يكد ينتهي أمر قرطبة ويستتب الأمر فيها حتى وجه ابن عمار انظاره نحو غرناطة ، التي كان يحكمها آنذاك أمراء بني زيري ، من قبائل صنهاجة البربرية . وقد كان دور الوزير في هذا المشروع واضحاً ، إذ قد تحدث عنه بمرارة ملك غرناطة نفسه في مذكراته . فقد ظل يتربص الدوائر بهذه الدويلة الصغيرة وينتظر الفرصة الملائمة ، حتى سنحت له عند ابتداء التصادم والاحتكاك بين ملك غرناطة والفونس السادس ملك قشتالة القوى .

فقد أرسل هذا الأخير سفيره الكونت كاريون الى الملك عبد الله بن زيري يطلب منه أتاوة سنوية قدرها عشرون الف دينار ، اسوة بما كان يفعله ملوك الطوائف الاخرون ، فرفض ملك غرناطة ذلك ورد السفير المسيحي

دائماً يهدد بالويل والثبور . وفي طريق عودته وجد ابا بكر بن عمار ينتظره في باغه ، ليعرض له مشروعاً أسال لعابه . لقد كان الوزير الاشبيلي مستعداً لأن يدفع لألفونس خمسين الف دينار لقاء مساعدة هذا الاخير للجيش الاشبيلي على احتلاله غرناطة وضمها الى مملكة بني عباد . وبالاضافة الى ذلك فقد وعد الوزير السفير المسيحي بأن تكون جميع نفائس وكنوز قصور بني زيرى غنيمة باردة للقشتاليين . فوافق السفير على ذلك وأمضى مع الوزير الاشبيلي عقداً به . ولكن ابن عمار كان يعلم حق العلم أن مدينة حصينة كغرناطة سوف لاتترك نفسها فريسة سهلة للمهاجمين ، فقرر أن يبني بمساعدة المسيحيين حصناً قوياً أمام غرناطة يسد عليها السبل ويمنع عنها المؤن . وقد بني فعلا حصن بايلش . والملك عبد الله بن زيرى نفسه يروى لنا ما قام به ابن عمار ومدى نجاح خطته ، إذ يقول في مذكراته « رأى ابن عمار من عسكر الفونس ماقوى به على البنيان باعداد من الأموال جسيمه ، يسوقهم فيها تارات ، ويمدهم ويخادعهم حتى تم البنيان ، وجعل المعتمد يحاول ذلك بنفسه ويبرز أبداً على مقربة من غرناطة مدة كونه ، طمعاً فى أن يقوم معه أهل البلدة . فلما تم بنيانه ، قواه بالندب واتخذ فيه جميع الأقوات وأمرهم بالتضييق وكانت الحال شديدة .... وعند انصراف المعتمد عنه وعساكر الروم عبينا عسكراً كبيراً ونهضنا اليه فلم نقدر فيه على شي . وانقطع رجاء الناس من دولتنا لاجتماع المطالبين عليها مع الرومي ، وندمنا على التفريط أولا في معاقدته حسب ما سأل ...

فكان يلبلش قد أفسد وضيق على لحص (اى سهل) لحرناطة ... (١)

وهكذا يبدو أن ابن عمار قد احكم رسم خطته وقلبها من جميع الوجوه وضمن لها النجاح . ولكن شيئاً لم يكن في الحسبان أفسد عليه خطته واضطره الى إيقاف تنفيذ مشروعه، ولو موقتـــا . فقد قام عام ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) أحد المغامرين من قواد الحصون المحيطة بقرطبة المسمى بابن عكاشه ،متآمراً مع المأمون بن ذى النون ملك طليطلة، بمؤامرة استطاع فيهاأن يفاجىء قصر الامارة في قرطبة ويقتل الأمير عباد بن المعتمد وقائد الجيش الاشبيلي محمد بن مرتين ويعلن انضمام المدينه الى مملـكة ابن ذى النون الذي سرعان ما قصد قرطبة بجيشه وتهيأ للدفاع عنها ضد المعتمد بن عباد . ولـكن القدر لم يمهله ، إذ توفي بعد مقدمه بستة شهور فعاد المعتمد الى المدينة وبسط عليها نفوذه (٢) .

لقد كان لهذا الحدث أثره الـكبير في خطة ابن عمار ، إذ اضطر بعد دخول المأمون بن ذى النون قرطبه الى ان ينصرف عن غرناطه فيسحب من حولها جنوده ليستعين بهم فى استرداد قرطبة او ملافاة ما قد ينتج عن احتلال ابن ذى النون لها من نتائج سيئة . فاخلى حصن يليلش وتنفس ابن زيرى الصعداء .

ولـكن اطمئنانه هذا لم يطل اذ ما كاد الاشبيليون يستردون قرطبة

---

(١) مذكرات عبد الله بن زيري ، الاندلس ج ٣ . سنة ١٩٣٥ . ص ٢١٨ ،

(٢) انظر دراستنا عن المعتمد بن عباد . (تحت الطبع)

حتى عاد ابن عمار لموالاة مؤامراته لاحتلال غرناطة متوجها هذه المرة ايضاً الى الفونس السادس . ولنترك ملك غرناطة نفسه يحدثنا عن هذه المحاولات ويصف لنا الوضع السياسى المضطرب الذى كان يسود البلاد آنذاك، فيعطينا صورة واضحة للمسرح الذى كان يلعب فوقه ابن عمار ادواره. ولا بد أن نشير هنا الى أن ركاكة الاسلوب ترجع الى كون الملك البربري كان يكتب مذكراته ببساطة وبلغة لاتصنع فيها ولا تزويق .

يقول الملك ابن زيرى (١): « وبقى ابن عمار مرتهناً بما جعل على نفسه للنصرانى (اى الفونس السادس) من كراء يليلش فى تبعات كثيرة وجرايات جسيمة ، يقطعها له ، ويعده بها ، وادخل سلطانه (اى المعتمد) من ذلك فى تشغيب ، لأنه كان لا يريد أن يحمله يخلدالى راحة لكي يحتاج اليه فى تلك الفتنة ، لايقرعن ادخال ضرر على المسلمين . ومتى ما كان المعتمد يسعي فى تهدين الامر ونروم معه الصلح ، أو تنشأ مهادنة ، لاينام فى نقضها واشعال نار الفتنة ، فعاد ثانية الى النصرانى اذفونش وزين له غرناطة وصورنا عنده في صورة من لايقدر على كل شي من أجل الصبا ، وأنه ضامن له أموال غرناطة لتصير له بأسرها ، على أن يعاقده ، إن تمكن من البلدة ، أن يجعلها ملكه (أى ملك ابن عمـــار) وله (أى لألفونس) مالقي من اموالنا . والقي يده في يد اذفونش عاز ما عليه في الاقبال إليها ، واعطى على ذلك اموالا جسيمه ، ووعده بخمسين الف مثقال ، اذا تمت القضيه ،

---

(١) مجلة الاندلس ، سنة ١٩٠٥ ، ص ٣١٩ .

ليعطيها زائدة على ما يجد لمساعدته على السير ، فأدرك الرومى من ذلك طمع كثير ، وقال : هذه نصبة لست اخلو فيها من فائدة وإن لم تحصل الولدة، فأى فائدة لي في اعطاء بلدة من واحد لآخر الا تقويته على نفسى ، و كلما كثر الثوار ووقع بينهم التنافس، كان لي افاد (كذا) . فأتى على نية اخذ مال الفريقين ، يكسر رؤوس بعضهم ببعض ، ولا كان ايضاً من امله ان يأخذ البلاد لنفسه ، فانه عمل فى ذلك حساباً ، أن قال : انا من غير الملة ، وكل الناس يشنأ نى ، فبأي وجه أطمع في أخذها ؟ ان كان من باب الطاعة فأمر لا يمكن ، وان كان من وجه القتال، فيهلك فيها رجالي وتذهب اموالي وتكون الخسارة علي اكثر مما نرجوه إن صارت إلي ، ولو صارت لم تمتسك الا بأهلها ، ثم لايؤمنون ، ولا يمكن أن نستبيح اهلها ونعمرها بأهل ملتى ، ولكن الرأى كل الرأى تهديد بعضهم ببعض ، واخذ أموالهم ابداً حتى ترق وتضعف ، ثم هى تلقى بيدها اذا ضعفت وتأتي عنواً ، كالذي جرى لطليطلة ، إنما كان من فقر اهلها وتشتتهم مع اندبار سلطانها ، وصارت الى بلا مشقة ... »

ويواصل ابن زيرى كلامه فى مذكراته فيقول :

« وكنا نحن نعلم هذا من مذهبه ، على ما كان يخبر وزراءه . ولقد قال ذلك شيشلاند في حال هذه السفرة . وشافهنا بذلك ، وقال :

« إنما كانت الاندلس للروم في اول الامر حتى غلبهم العرب والحقوهم بأنحس البقع جليقية ، فهم الآن عند التمكن طامعين (كذا) بأخذ ظلاماتهم ، ولا يصح ذلك الا بضعف الحال والمطاولة ، حتى اذا لم يبق مال ولا رجال

اخذناهم بلا تكلف .

فكان الجميع (اى ملوك المسلمين وامراؤهم) يساير الامور ويدافع الايام ، ويقول : من هنا الى ان تتم الاموال وتهلك الرعايا ، زعمهم ، يأتى الله بالفرج وينصر المسلمين ! . .

فورد علينا من اقبال الفونش مع ابن عمار هول عظيم ، وصح عندنا انه لم يأت الا طالباً لملكنا ، قد استوثق من الفونش على ما قدمنا ذكره ثم ارسل (اى الفونس) الينا ينذر باقباله ويأمرنا بالخروج اليه ، يرى انه يذهب الى تجديد العهد والاجتماع بنا ، على ما يفعله مع السلاطين . فلم نشك ان ذلك للتقبض (كذا) علينا ، وانجاز ما عاقدهم (اى الاشبيلين) عليه .

فاجتمع الينا اهل الراى والمشورة ، وقالوا : ما الذى تذهب اليه ؟ هذا عدو قد جاء لطلبك ، ولا قدرة بك على منارأته ، وسواء عليك خرجت ام بقيت ، فان انت بقيت حلت بك الداهية العظمى ، ووقعت المفاسدة ، واصاب مطالبك سبيلا الى الامل ، وتكون هذه اشد من الاولى .

وقد رفضنا بطرة شولس (وهو سفير سابق لالفونس قدم لغرناطة يطلب الاتاوة للملك المسيحى فرده ابن زيرى) والقى ابن عمار يده فيه حتى نبى علينا بليليش ، والآن لم يتروح مخنقنا حتى نعود الى ما هو أدهى وامر . فلو رأت الرعايا بعض خلاف من هذا الجيش لم تبق ولا تذر لمشقة ماقددهوا به قبل ، وكاد الرجاء ينقطع ويتلف الكل حتى نؤخذ وهنا باليد على غير

صلح ، فلا يرقب فينا إلاً ولا ذمة . فالخروج اليه أيسر الأمرين . فان كانت سلامه شكرت رأيك وثبت ملكك . وإن كانت الاخرى ، كان خروجك عن أمان وصرت خيراً فى العافية (كذا) فاعزم على لقاء (أى الفونس) وقل له قولا ليناً ، ولله أن ينفذ قضاءه .

فاستعددنا لذلك جهدنا واجمعنا حوالينا من نثق به من رجالنا ، واخذنا أهبة للحال ، ولقيناه على مقربة من المدينة ، وبالغنا بالضرورة في إكرامه ، فاعرض علينا وجهاً بسيطاً وخلقاً حسناً ، ووعدنا ان يحامى عنا كما يحامي عن بلده .

ثم وقعت المعاملة ، ومشت الرسل منا اليه ومنه الينا ، يبين ما عوقد عليه ، وانه سيق سوقاً ، ويقول : انى قد تشبثت فى الامر ، ولم نعجل حتى نسمع ما عندكم ، فان جاملتمونى ورأيتم لقصدى وجهاً ، انصرفت عنكم على خير ، والا فها أنا مع من عاقدنى . وطلب خمسين الف مثقال . فشكونا اليه قلة البلاد ، وان ذلك لايقدر عليه ، وفيه من القطع لنا ما يفترصنا به ابن عباد (اى المعتمد) ، فانه لو أخذ غرناطة قوى عنصره ولم يطع اليك ، فخذ ما نقدر عليه واترك رمقاً لانستأصل من أجله ، وما تركت تجده عندنا متى ما طلبت . فقبل العذر بعد جهد عظيم ، وقاطعناه لقصده بخمسة وعشرين ألفاً ، نصف العدد ، ثم أعددنا له من الفرش والثياب والآنية كثيرا ، استدفاعاً لشره . وجمعنا ذلك كله فى خباء كبير ، ودعوناه اليه . ولما رأى الثياب استحقرها ووقع الاتفاق معه على زيادة خمسة آلاف مثقال لتتم بها

ثلاثون (كذا) الفاً، فاكملناها له لئلا ينفسد الاكثر عن الاقل. فعكر على ذلك كله وكاتب عليه نفسه، ورجع على ابن عمار يقول له: كذبت لي في قولك إن غرناطة في ضعف وإن صاحبها من صغر سنه لا يعقل. ورأيت من رتبتها وأحوالها ما خالف قولك. فرجع ابن عمار يسأله أن يعقد بيننا عقداً يوقف عنده. واستماله على اخذ اسطبة من عندنا. وكان معقلا عظيما مما يلي جهات إشبيلية، أخذه قائدنا كباب في الفتنة، وسألناه نحن خبر القلعة، فوقع الاتفاق على أن تكون قلعة أسطلير عوضاً عن أسطبة.

وكانت قاشتره ومارتش المعقلين على جيان، ومن أجلها انقطع صاحبها عمنا. ولم يكن لجيان معنى إلا بهما. فترامى ابن عمار في أمرهما على الفونش ووعده على مارتش بأموال، أنه يشتريهـــا، فعزم (أي الفونس) علينا فيها للطمع في المال، وعدنا نحن على قاشترة بالمطمر، وكان (اى المطمر) ايضاً حصناً قد اشترك في نظره مع نظرنا ابن ذي النون. فضمن خيره (كذا) ان يعطيه لنا عوضاً منها (اى من قاشترة). فدافعنا الأمر جهدنا فلم نقدر على أكثر، فعل القوي مع الضعيف، ثم إنه عقد العقد بين يديه على ذلك، وانه لا يتعدى منا أحد على صاحبه. وذكر فيه ما نعطي كل عام من الضريبة. فجمل علينا عشرة الاف مثقال في العام وطيب لنا الكلام بأن قال: طمع ابن عمار أن نغدر بك، ومعاذ الله من ذلك، أن يشيع في الدنيا أن مثلي كبير في الروم يقصدك وانت كبير في جنسك، ثم نغدر بك. فابق على أمان، لا أكلفك الا الضريبه، توجه الي بها كل عام دون مطل. وإن تأخرت بها أتاك رسولى

عنها، وتلزمك عليه نفقات فبادر بها . فقبلنا قوله ورأينا اعطاء عشرة الاف في العام ندفع بها مضرته، خيراً من هلاك المسلمين وفساد البلاد . إذ لم تكن بنا قدرة على ملاقاته ومكابرته ولا وجدنا من سلاطين الاندلس عونا عليه، إلا من يسوقه الينا لهلاكنا . فبقيت الأمور على مصالحة ومهادنة ورفاهية لايسمع فيها بفتنة .

ومما هيأه الله، ان فقدنا وسائط السوء بعد ذلك بفقد ابن عمار وشغله في مرسيه ... الخ ...(١)

في هذا الجزء القيم من مذكراته، يوضح لنا ملك غرناطة عبد الله بن زيري الدور الخطير الذي كان يلعبه ابن عمار في الحياة السياسية لاسبانيا المسلمة في ذلك العصر، والاسلوب الذي كان يلجأ اليه لتحقيق اغراضه والوصول الى اهدافه ؛ عارضاً أثناء ذلك صوراً دقيقة للأوضاع السياسية في تلك الفترة المضطربة من تأريخ المسلمين في تلك البلاد . إن المعلومات التي يمكن أن نستخلصها من هذه السطور التي نقلناها عن الملك الأندلسي ومن تلك التي لم ننقلها ؛ لذات أهمية كبرى في إدراك كثير من تيارات السياسة الاندلسية ودور الملوك المسيحيين الخطير وموقف امراء الطوائف منهم، مما لا يدخل الآن في صميم هذا البحث . ان ما يهمنا قبل كل شيء هو ادراك سياسة ابن عمار ومعرفة اساليبه في العمل واهدافه التي سبق أن أشرنا اليها ؟ ولا شك أن هذه الأساليب والأهداف تتمثل بأوضح

---

(١) الاندلس ، سنة ١٩٣٥ ، ص ٣١٩ ، ص ٣٢٣ .

وجوهها في مغامرة ابن عمار هذه ، ولا سيما ما يختص منها بعلاقته بألفونس السادس وعمله معه ، مما سنأتي الى بحثه بشيء أكثر من التفصيل .

إذن فلم يستطع ابن عمار تنفيذ خطته التي وضعها لضم غرناطة الى مملكة بني عباد ، رغم الجهود الكبيرة التي بذلها في هذا السبيل ، ولكنه مع ذلك لم يخـــرج من الصفقة صفر اليدين ، فضم بعض الحصون المهمة الى مملكة إشبيلية متهيئاً لمغامرة اخرى وباحثاً عن فريسة جديدة . فوقع نظره على مرسية المدينة الغنية الواقعة على ساحل البحر الابيض المتوسط ، والتي كان يحكمها ، مستقلا فيها ، الأمير الأديب ابن طاهر . ولكن قبل ان يبدأ بهذه المغامرة كان عليه أن يتجنب خطراً كبيراً كان يهدد إشبيلية آنذاك وهو خطر القشتاليين مسيحيي الشمال الذين كانوا يرون في ضعف ملوك الطوائف دوافع قوية تحثهم على استنزاف اكبر المنافع منهم . فزحفوا على إشبيلية وهددوها بالويل والثبور ، فكان ابن عمار هو رجل الساعة .

ابن عمار ومسيحيو الشمال

لقد سبق أن ذكرنا أن الوزير الاشبيلي كان يدرك قوة المسيحيين في الشمال الى جانب ضعف ملوك الطوائف المسلمين وتخاذلهم ؛ لذا فقد جعل أول أهدافه السياسية التقرب من الفونس السادس وجلب رضاه وتجنب خطره بجميع الوسائل الممكنة ، وأهم هذه الوسائل المال . فكانت مملكة إشبيلية ، كغيرها من الدويلات الأندلسية آنذاك ، تدفع للملك القشتالي ، أتاوة سنوية معينة تجنباً لشره وحفظاً لصداقته . وكان الفونس يعرف قوة مركزه

وضعف موقفهم ، فاستغل ذلك إلى اقصى حدود الاستغلال . فكان كلما وجد الفرصة سانحة للحصول على قطعة من الارض او مبلغ من المال لم يتركها تفلت من يديه ، فيزحف بجحافله مرعداً مزبداً ، يخرب الحقول ويحاصر المعاقل حتى يخضع الأمراء المسلمون لارادته فيهدئوه بما يقدمون اليه من مال .

ورغم جهود ابن عمار الكثيرة فى الحصول على رضى الملك المسيحى فيبدو أن ألفونس بعد عقده اتفاقيته التي أشرنا اليها مع غرناطة بفترة لانستطيع تحديدها ضبطاً ، رغم أننا نستطيع القول إنها لايمكن أن تكون قبل ٤٦٨ ه ، وهو التاريخ الذى يرجح أنه عقد فيه معاهدته مع غرناطة ، ولا بعد ٤٧٠ ، إذ أن ابن عمار كان يدبر بعد هذه السنة مؤامرته ضد مرسية كما سيأتى ذكره . نقول ، رغم جهود ابن عمار ، فقد زحف ألفونس السادس بجيشه على مملكة إشبيلية وعددها بالدمار . ويروى لنا أحد المؤرخين المسلمين ، وهو عبد الواحد المراكشي ، فى كتابه « المعجب » قصة ظريفة عن الدور الذى قام به ابن عمار في صد هذا الهجوم ، يبدو أن الخيال قد ساهم فى نسجها لحد غير قليل ، ومع ذلك فنحن ننقلها هنا نصاً ثم نناقش ماجاء فيها بعد ذلك . وقد نقلها عنه دوزى دون ان يشك فيها(١) .

قال عبد الواحد المراكشي (٢) :

ولم يزل المعتمد يعده (أى ابن عمار) لكل أمر جليل ويؤهله لكل

(١) Mus Esp., T. 3. P. 102 -

(٢) المعجب ، ص ١١٩ .

رتبة عالية. وكان ابن عمار مع هذا لا يناط به أمر الا اضطلع به وكان فيه كالسكة المحماة. واشتهر أمره ببلاد الأندلس، حتى كان ملك الروم الأذفنش، اذا ذكر عنده ابن عمـــار قال: هو رجل الجزيرة ا وكان ابن عمار هو الذى رده عن قصد إشبيلية وقرطبة واعمالها. وذلك أنه خرج في جيوش ضخمة يقصد بلادالمعتمد طامعاً فيها، نخافه الناس، وامتلأت صدور أهل تلك الجهات رعباً منه، وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه. فتولى ابن عمـــار رده بألطف حيلةوايسر تدبير، وذلك أنه أقام سفرة شطرنج في غاية الابداع لم يكن عند الملك مثلها، جعـــل صورها من الأبنوس والعود الرطب والصندل، وحلاها بالذهب، وجعل أرضها فى غاية الاتقان. نخرج من عندالمعتمد رسولا الى الاذفنش، فلقيه في أول بلادالمسلمين، فأعظم الاذفنش قدومه وبالغ فى إكرامه، وأمر وجوه دولته بالتردد الى خبائه والمسارعة في حوائجه. فاظهر ابن عمار تلك السفرة، فرآها بعض خواص الأذفنش فنقل خبرها اليه. وكـان العلج - أعني الاذفنش - مولعاً بالشطرنج، فلما اتى ابن عمار سأله: كيف أنت فى الشطرنج؟ وكان ابن عمار فيه طبقة عالية - فاخبره بمكانه فيه. فقال له: بلغنى أن عندك سفرة فى غايه الانقان. قال ابن عمار. نعم، فقال: كيف السبيل الى رؤيتها؟ فقال ابن عمار لترجمانه: قل له أنا آتيك بها على أن العب معك عليها، فان غلبتني فهى لك، وإن غلبتك فلي حكمي:. فقال له الأذفنش: هاتها لننظر اليها؟ فأمر ابن عمار من جاء بها. فلما وضعت بين يدى العلج صلب وقال: ماظننت أن إتقان

الشطرنج يبلغ إلى هذا الحد ! . ثم قال لابن عمار : كيف قلت ؟ فأعاد عليه الكلام الأول . فقال له الأذفونش: لا ألعب معك على حكم مجهول لا أدرى ماهو، ولعله شيء لا يمكنني :. فقال ابن عمار : لا ألعب إلا على هذا الوجه. وامر بالسفرة فطويت . وكشف ابن عمار سر ما اراده لرجال وثق بهم من وجوه دولة الأذفنش ، وجعل لهم اموالاً عظيمة على أن يؤازروه على أمره، ففعلوا . فتعلقت نفس العلج بالسفرة ، وشاور خاصته فيما رسمه ابن عمار . فهو نوا عليه وقالوا له : إن غلبته كانت عندك سفرة ليس عند ملك مثلها وإن غلبك فما عساه أن يتحكم ؟ وقبحوا عنده إظهار الملك العجز عن شيء يطلب منه . وقالوا له إن طلب ابن عمار مالا يمكن فنحن لك برده عن ذلك . ولم يزالوا به حتى اجاب ، وارسل الى ابن عمار فجاء ومعه السفرة . فقال له : قد قبلت مارسمته . فقال له ابن عمار : فاجعل بيني وبينك شهوداً سماعهم له : فامر الأذفونش بهم فحضروا ، وافتتحا يلعبان . وكان ابن عمار -كما ذكرنا- طبقة في الاندلس ،لايقوم له أحد فيها . فغلب الأذفنش غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين،لم يكن للعلج فيها مطمع. فلما حقت الغلبة قال له ابن عمار: هل صح أن لى حكمي؟. قال : نعم، فما هو ؟ .قال:أن ترجع من هنا الى بلادك: فاسود وجه العلج وقام وقعد ، وقال لخواصه : قد كنت أخاف من هذا حتى هو نتموه على : . في أمثال لهذا القول . وهم بالنكث والتمادى لوجهه ، فقبحوا ذلك عليه ، وقالوا له : كيف يجمل بك الغدر وأنت ملك ملوك النصارى في وقتك : فلم يزالوا به حتى سكن ، وقال : لا أرجع حتى

آخذ أتاوة عامين خلاف هذه السنة ! فقال ابن عمار : هذا كله لك . وجاءه بما أراد ، فرجع وكف الله بأسه ، ودفعه بحوله وحسن دفاعه عن المسلمين ، ورجع ابن عمار الى إشبيلية وقد امتلأت نفس المعتمد سروراً به . » (١)

هذه هي الحكاية التي رواها المراكشي وواضح أن الخيال قد يكون أسهم في تكوينها لحد غير قليل ، لاسيما وأن المؤرخون الذين عنوا بحياة ابن عمار والذين سبقوا المراكشي ، فكانوا اقرب منه الى عهد الوزير لم يشيروا لها بوضوح رغم تولعهم بالبحث عن طرائف الاخبار . ومع ذلك فنحن لانستطيع ان نعرض عنها إعراضاً تاماً ونضرب عنها صفحاً ، إذ يبدو أن فيها نصيباً غير قليل من الصحة ، لا سيما ما يتعلق منها بجهود ابن عمار الناجحة في رد غارة الفونس بالوسائل الدبلوماسية وأهمية هذا العمل فدوزي يذكر في كتابه عن المسلمين في اسبانيا ، أن أحد المؤرخين الاسبان قدماء وهو كاسكاليس ، ذكر أن الفونس السادس كان يوفي برهانه عندما يلعب الشطرنج فقد فعل ذلك مع احد المسلمين رغم عظم أهمية الرهان (٢) ويشير منندث بيدال عند كلامه عن الفونس السادس في كتابه عن اسبانيا في القرن الحادي عشر الى ان هذا الملك قد قام بغارات متواليه حوالي عام ١٠٧٩ (اى ٤٧٠ ـ ٤٧١ هـ) على مملكتي بطليوس وطليطله ويذكر تفاصيل ذلك .

---

(١) المعجب : ص ١٢١
(٢)

1- Mus Esp., T. 3, P. 101
2- M, Pedal, Es, ana del cid, T. 2

أن الممكن جداً أن تكون إشبيلية قد نظمت علاقتها معه باتفاق كهذا الذي عقده ابن عمار . والمعاهدة نفسها التي ذكرها المراكشي تنسجم كل الانسجام مع الأساليب الدبلوماسية المتبعة في ذلك العصر . وفضلاً عن ذلك فقد مدح أحد شعراء البلاط الاشبيلي وهو حسان بن المصيصي الوزير ابن عمار وأشار الى جهوده العظيمة في دفع النصارى عن المملكة بالحيلة والتدبير (١) وأوضح من هذا وذاك هو أن ملك غرناطة عبد الله بن زيرى عدو ابن عمار اللدود يذكر نجاح ابن عمار في رد عادية النصارى عن البلاد فيقول : «ولانه (أي ابن عمار) كان قصد استمال النصارى والدخل معهم بحيله ، فمتى ما دهم أمر من قبلهم وجهه (اى المعتمد) اليهم ، فينجلى من أمرهم ما يضيق الصدر به ، وكل ذلك بأموال رئيسه وسعادة أيامه ...» (٢) .

كل هذه الاشارات واخرى غيرها تدل على دور ابن عمار السياسي في دفع النصارى عن مملكة اشبيلية مستعملا المال والحنكة السياسية ، وأما ماعدا ذلك مما ورد في حكاية عبد الواحد المراكشي فلا يهمنا الاقليلا .

يبدو لنا مما مر دور ابن عمار المهم في حيـــاة إسبانيا المسلمة في ذلك الوقت ، والأسلوب السياسى الذى اتبعه في عمله والذى حاولنا ايضاح خطوطه العامة فى صفحات سابقة ، فاحرز نجاحاً غير قليل لاسيما اذا اخذنا بنظر الاعتبار الظروف الحرجة المضطربة التي كانت تمر بهـــا البلاد آنذاك . ولا شك أن اهم مظاهر هذه السياسة هي أن مملكة

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ف حسان بن المصيصي .
(٢) الاندلس ، ١٩٣٥ ، ص ٢٢٥

اشبيلية لم تدخل طيلة وجود ابن عمار في وزارة اشبيلية في نزاعات خطيرة مع مسيحيي الشمال كما كان شأن بطليوس وطليطلة وسرقسطة . لقد اصبح ابن عمار بعد اعماله السياسية هذه ألمع الشخصيات السياسية في اسبانيا المسلمة آنذاك ، وكانت له اليد الطولى في ادارة امور مملكة اشبيلية وتوجيه سياستها . لقد اصبح الشاعر البائس المتشرد المهمل محط الانظار ، يستدر رضاه ويتجنب شره ، اصبح الوزير الاول لاكبر ممالك الاندلس واقواها نفوذاً واكثرها ثروة . ولكن مطامعه لم تكن لتقف عند حد ، فطفق يقلب نظره فيما حوله باحثاً عن فريسة يسيرة ، فلفتت انظاره مرسيه المدينة الغنية في شرق الاندلس التي كان يحكمها الامير الكاتب ابن طاهر فحاك حولها الشباك ودبر لها المكائد ، ورغم ما احرزه من نجاح في جهوده هذه ، فان نجمه ابتدأ يأفل وينحدر نحو الافق بعد أن توسط قبة السماء زمناً ليس باليسير . إن حملة مرسيه تعتبر في الواقع فاتحة صفحة جديدة في حياة ابن عمار سنأتي للحديث عنها بعد قليل .

نشاط ابن عمار الادبي أيام وزارته

للمعتمد في اشبيلية

بقي علينا أن نبحث في هذه الحياة الصاخبة التي قام فيها ابن عمار السياسي البارع باهم الادوار عن ابن عمار الشاعر ، ولكن جهودنا مع الاسف لا تكاد تحظى بما نأمله من ثمار . اذ يبدو أن حياة ابن عمار الجديدة ، ولا سيما تبديل طبقته قد وضعه في حال يختلف تماماً عما اعتاد سابقاً عليه . فلم يكن من السهل عليه أن يتكيف لها ولما توحيه من موضوعات شعرية لم يألفها في حياة الشباب المريرة . فمن الطبيعي أنه لم يحتج

الى المدح والتكسب بالشعر كما كان يفعل سابقاً ؛ ولم يكن في حال يفسح فيه للعواطف الثائرة والمشاعر الملتهبة مجالا واسعاً من نفسه ومشاغله . لقد كان الشعر حلية يتحلى بها الوزراء ويستخدمونها كلما تطلبت المناسبات والظروف ، وهذه المناسبات والظروف لم تكن في اكثر الاحيان عميقة التأثير في نفس الشاعر بحيث تدفعه الى الابداع ، فلا بد مثلا أن يرد الشاعر على صديق ارسل إليه قطعة شعرية بأخرى مثلها ، ولا بد له حين يتبارى الشعراء في مجلس لوصف منظر معين اوحال معينة أن يدلي بدلوه بين الدلاء وأن يرهق قريحته لتجود بما يتيسر لها من ابيات ، ترضي ذوق الصحب وتحظى على وجه الخصوص بإعجاب الامير ، الى آخر ما هنالك من مناسبات مماثلة .

إننا في الواقع لا نكاد نرى في هذه الفترة أثراً لناظم الرائية والميمية والدالية التي مرت في الفترة الاولى من حياته ، بل إن كل ما هنالك قطع أكثرها لا يتجاوز بضعة أبيات متناثرة ، نظمت لتحية صديق اوللرد على رسالة او استجابة لرغبة غير منبعثة من نفس الشاعر بل مفروضة عليه من خارجها ، وغزل متكلف بحسنا، او نلام . وهذه الأبيات في أغلبيتها الساحقة تسيطر عليها نزعة عقلية ، وتعنى بهاجهداً فكرياً مقصوداً في رصف الكلمات وانتقالها بالزخرفة اللفظية والبيانية والصنعة الظاهرة البادية التكلف . فالشاعر يقصر جهده على ابداء براعته اللغوية ، ومقدرته على اللعب بالالفاظ ، فلا نكاد نشعر تجاهها بأي احساس فني أو قيمة أدبية الا في مقطوعات قليلة وأبيات متناثرة هنا وهناك تحاول فيها العواطف أن تشق طريقها بجهد

خلال البهرجة الكلامية والتصنع اللفظي ، نذكر منها على سبيل المثال قوله يصف جدولا يصب في غدير : (١) .

ومطرد الأجزاء يصقل متنه
صبا اعلنت سر الندى في ضميره

كأن حبابا ريع تحت حبابه
فسارع يرمي نفسه في غديره

جريح باطراف الحصى كلما جرى
عليها شكى أوجاعه بخريره

شربنا على حافاته دور سكرة
واكثر سكراً منه عينا مديره

وقد لاح نجم الصبح باد كأنه
مطرق جيش مؤذن بأميره

الا أن من الواضح أن حكمنا هذا على شعر ابن عمار في هذه الفترة يعوزه كثير من الدقة والاحكام ، إذ لاشك أن مالدينا من انتاج الشاعر لا يعدو أن يكون قليلا من كثير اختفى ولم يصلنا منه الا النزر اليسير . فقد يكون لما اختفى قيمة ليست لما بين يدينا منه ، وإن كان المألوف أن يكون مؤرخو الأدب عنوا باختيار أحسن ما لديه واكثره تأثيراً في نفوسهم . على أن ما سبق أن ذكرناه حول موقف المؤرخين القدامي ، ولا سيما منذ

(١) ديوان ، ص ، ٥٨ .

القرن الخامس الهجري يجعلنا لا نعتد كل الاعتداد بأذواقهم واختيارهم ، فقد يكون فى ما اهملوه أصالة وإبداع يفوقان ما في الذي نقلوه . ومع ذلك فان في حياة ابن عمار فى هذه الفترة ما يبرر لحد ما هذا الضعف الذي نشاهده في شعره وهذا الهزال الذى نراه فى قصائده .

فأولا ، لم يعد ابن عمار شاعراً ممتهناً كما كان سابقاً ، بل اصبح وزير دولة كثير المشاغل والمهام ، فمن الطبعى جداً أن تأخذ الادارة والسياسة جزءاً غير قليل من وقته وتفكيره وأن يغدو الشعر بالنسبة له وسيلة لهو وتسلية ، ينظمه غالباً عندما يخلو لنفسه ويسمر مع ندمائه مستجيباً لحاجة المجتمع الأرستقراطى الاندلسي الذى سبقت الاشارة اليه فنجد المراسلات الشعرية أو ما يدعى بالاخوانيات تشغل جزءاً غير قليل من إنتاجه الادبي ، كما يحتل وصف مجالس الأنس والتشبيب جزءاً مهماً آخر . اما المديح فقد كان ينظمه أيضاً . ولاسيما في أول هذه الفترة ، ولكنه يختلف عن مديحه فى القسم الاول من حياته ، فهو فى الغالب مدح صديق لصديقه او وزير لملكه ، يغلب الولاء فيه على الاستعطاف والاستجداء . وهذه الانتاج بجملته كما ذكرنا لا يكاد يقف على قدميه أمام المقاييس الأدبية الحديثة اذ يغلب عليه كما قلنا سابقاً التصنع والتكلف والزخرفة اللفظية والبيانية بشكل غير مستساغ في اكثر الاحيان .

وثانياً . فقد كان لتبدل طبقة ابن عمار تأثيره أيضاً فى إضعاف إمكانياته الأدبية . فلم يكن من عادة ابن عمار أن ينظم إلا نادراً في غير المديح وما يتعلق به من موضوعات كالشكوى والاستعطاف . أما الآن

فقد وجد نفسه أمام موضوعات جديدة ، عليه أن يجيد فى وصفها ، ومن الطبعى أن لايستطيع القيام بذلك بسهولة ويسر، لا سيما و أن الدوافع التى كانت تدفعه سابقاً كالحاجة أو الخوف لم يعد لها وجود الآن . وسنرى أن شعر ابن عمار يكتسب حيوية وقوة عندما تتوافر له هذه الدوافع ويجد نفسه ثائر المشاعر مضطرب العواطف . لقد سبق أن ذكرنا أن الشعر لم يكن عند ابن عمـــار غاية فى ذاته وإنما كان وسيلة لتحقيق آماله وبلوغ مآربه ، وقد كانت مآربه وغاياته تنحصر فى كسب المال والجاه والحصول على المنصب والتقرب من السلطان ، وقد تحققت أمنياته هذه وتوافرت بين يديه . فلم يعد الشعر إذن ذلك السلاح الفعال والسبيل الذى لابد منه للحصول على ما يطمح فيه ، بل أصبح كما ذكرنا مسلاة ولهوا .

وعلى ذلك فعلينا أن ننتظر الفترات التاليه من حياة ابن عمار حين تجتاح حياته العواطف لنرى قابلياته الأدبية تتفتح وتثمر .

ابن عمار

بين عامى ٤٧١ و ٤٧٧ للهجرة

(١٠٧٨ — ١٠٨٤ للميلاد)

إن هذه السنوات الست من حياة ابن عمار حافلة بالاحداث مليئة بالمفاجآت ، بل إن أحداثها ومفاجآتها ذات أهمية حاسمة فى حياة الشاعر ، نقلته من طور الى طور جديد ومن حال الى حال يختلف عن سابقه، حتى قادته اخيراً الى مصيره الذى سنأتى الى ذكره . أما ما لدينا من انتاجه الادبى فى هذه الفترة فهو نزر يسير ، إلا أنه يلفت النظر آنا لقيمته الادبية ، وحينا لفائدته التأريخية والاخبارية ويمكننا أن نضع فى القسم الاول بائيتيه [١] المتين أرسلها الى المعتمد معتذراً ، وثائيته [٢] التى توخت نفس الغرض ، إذ أنها تحتل مكانها فى الصف الاول من إنتاجه الأدبى .

ابن عمار ومرسية

أما البائيتان فقد نظمهما بعد محاولته لاحتلال مرسية . ولهذا الحدث أهمية خاصة في حياة الشاعر ، فقد مر ذكره لدى جميع المؤرخين الذين تعرضوا لابن عمار وتحدثوا عن حياته مع بعض الخلاف في التفاصيل .

(١) الديوان ، قص : ٥ ، ٥٥

(٢) « ، قص : ٥٦

فقد كانت مرسية الهدف الجديد للوزير الاشبيلي بعد أن فشلت جهوده لاحتلال غرناطة، واكتفى بضم بعض حصونها إلى مملكة إشبيلية، وبعد أن استطاع أن يبعد، ولو لأمد محدود، الخطر المسيحي فيقوى مركزه ويعلو شأنه.

نظر ابن عمار وهو في قمة مجده حوله باحثاً عن فريسه جديدة يرضى بها طمعه ويحوك حولها مؤامراته، فوجدها في أمارة مرسيه المتاخمه لمملكة إشبيلية من الشرق. وكانت مرسيه هذه تكون، بعد انحلال الخلافة في قرطبة، جزءاً من أملاك زهير العامري، ثم ضمت بعد مصرع زهير في حروبه مع غرناطة الى مملكة بلنسية. أما في هذه الفترة التي نتحدث عنها فكانت مستقلة يرأسها أمير عربي ينتسب الى قيس، يذكر المؤرخون عنه أنه كان واسع الثراء لحد كبير، إذ أن أملاكه الخاصة كادت تبلغ نصف المقاطعة(١)، هو أبو عبدالرحمن بن طاهر. وابن طاهر علم من أعلام الأدب الأندلسي في القرن الخامس، فقد كان كاتباً طويل الباع في مضمار الترسيل، واسع الاطلاع في ميدان الادب (٢)، خصص له مؤرخو الأدب العربي الاندلسي (٣) فصولا مسهبة، وحفظوا لنا من كتاباته ورسائله نماذج تستحق كل اهتمام وتقدير، بل إن ابن بسام نفسه وقف عليه كتاباً

---

(١) الذخيرة، ق ٢، ف ابن طاهر.

(٢) الحلة السيراء، ف ابن طاهر.

(٣) نفس المصدر. الذخيرة، ق ٣، ف ابن طاهر. قلائد العقيان ص ٥٨. المعجب، ص ١٢١

خاصاً وسمه بـ « سمط الجواهر فى ترسيل ابن طاهر » (١). ولكنه كان فى سياسته ، من الأمراء الذين يحرصون على العيش بسلام بعيداً عن مطامع الطامعين ، تصله ببقية أمراء الطوائف روابط الود والصداقة . وقد يكون السبب الأول فى انتهاجه هذه السياسة ضعفه ووهن قواه العسكرية . وكان هذا السبب ذاته من الأسباب التي شجعت ابن عمار على أن يتجه بنظره نحو مرسية دون غيرها من الأمارات . وقد تأكد ابن عمار من ضعف ابن طاهر عن المقاومة عند ما مر عام ٤٧١هـ (١٠٧٨ م) (٢) بمرسيه في طريقه الى برشلونة لمقابلة اميرها الكونت رايموند بيرانجيه الثانى ، إذ انتهز فرصة وجوده فى مرسيه فاتصل بطائفة من وجهائها الذين وجد لديهم استعداداً لضرب ابن طاهر فعقد معهم الصفقات وضمن منهم المؤازرة والتأييد . وفى برشلونة بذل ابن عمار جهده لاقناع الكونت رايموند بمساعدته وصور له سهولة الفتح ويسره ووعده بمبلغ عشرة الاف مثقال من الذهب ثمناً لمؤازرته وتأييده (٣). وتم عقد اتفاق بين الأمير المسيحي والوزير الاشبيلي حول هذا الموضوع . ولكي يضمن كل منهما تنفيذ العقد ، فقد وضع ابن عمار الرشيد بن المعتمد رهينة لدى رايموند ، وقبل هذا الاخير إعطاء ابن اخيه رهينة لدى ملك إشبيلية .

ويقول دوزى ، إن المعتمد كان يجهل تفاصيل هذه الاتفاق ، وإن

(١) الذخيرة ق٢ ، ف ابن وهبون .
(٢) بني عباد ، ج٢ ، ص ٩٣ .
(٣) مذكرات الملك عبدالله بن زيري ، الاندلس ، ١٩٣٥ ، ص ٢٢٤ .

ابن عمار لم يشأ أن يخبره عنه ، لأنه كان واثقاً من وصول المال في الوقت المحدد له . ولكن قولاً مثل هذا يصعب الأخذ به ، إذ أن ابن أخي رايموند كان رهينة لدى المعتمد لهـذا الغرض ذاته ، كما كان ابنه نفسه لدى الأمير المسيحي ، وليس من المعقول أن تقوم حملة مهمة مثل هذه ، عقد عليها المعتمد آمالا كبيرة ، بل وساهم فيها شخصياً لحد كبير ، دون أن يكون له علم بأهم شروطها . بل إن تسلسل الحوادث نفسها لا يدل مطلقاً على مثل هذا الجهل . الا أن من الواضح كما سنرى أن هـذه الحملة كانت سبباً في اساءة العلاقات وتعكير الجو بين الملك ووزيره ، ومناسبة لتبادل رسائل أدبية شعرية قيمة مما سنأتي لذكره في حينه .

وهكذا توجه الجيش الاشبيلي ، يسانده عـدد من الجنود البرشلونيين لمحاصرة مرسية ، ولكن المدينة لم تستسلم للغزاة بالسهولة التي كان ينتظرها ابن عمار . وما لبثت أمور الجيش الاشبيلي أن ساءت عندما استفحل الخلاف بين المسيحيين والاشبيليين لأسباب لا نعرفها بدقة ، وان كانت الاشارات الواردة في كتب التأريخ تشير الى أن سببها الرئيس كان الخلاف حول المبلغ الذى تعهد به الوزير الاشبيلي للأمير المسيحي والتأخر فى اعطائه من جهة ، والخيبة التى شعر بها هذا الاخير عندما رأى صعوبة قهر المدينة بعد أن صورها له ابن عمار فريسة سهلة يسيرة المنال من جهة اخرى (١) . فكان أن ألقى الرشيد بن المعتمـد فى السجن وقبض على الوزير الاشبيلي وشتت شمل قوته حين حاولت انقاذه ، وطالب ريموند فضلا عن ذلك بثلاثين الف

(١) مذكرات الملك عبد الله بن زيري ، الأندلس ١٩٣٥ ، ص٢٢٣ .

دينار لقاء مجيئه واطلاق أسيريه .

وفي هذا الوقت ذاته كان المعتمد يسير على رأس جيشه متقدماً ببطء نحو مرسيه ومعه ابن أخي الكونت ريموند . ولكنه ما كاد يصل قرب جيان حتى قدمت عليه فلول جيش ابن عمار تنبئه بما حدث ، فاشتد غضبه على وزيره وأمر بالقاء ابن اخي الكونت رايموند في السجن مكبلا بالحديد ، ثم توجه الى مدينة جيان حيث أرسل الى الامير المسيحى المبلغ الذى طلبه لكى يطلق سراح ابنه ووزيره ، وما كادت النقود تصل حتى اطلق سراحهما . ويذكر فريق من المؤرخين أن المعتمد سك نقوداً ناقصة الوزن خدع بها الكونت ولم يفتبه هذا الأخير لهذه الخدعة إلا بعد إطلاقه لسراح اسيريه (١) .

أما ابن عمار فقد خرج خائفاً يترقب . لقد عرف أن الملك لابد غاضب عليه ، ناقم لفشله . ولم يجد في موقفه الحرج هذا من سبيل يلجأ اليه لانقاذ نفسه من محنته وتخليصها من ورطته سوى الشعر .

وهنا تبدو ظاهرة ذات معنى في إنتاج ابن عمار الأدبي سبق أن اشرنا اليها ومى أن شاعرنا لايجيد إلا إذا تملكه الخوف وملأ نفسه القلق واستبد به الرعب ، إذ أن أبياته لا تصبح مجرد عبث لفظي وزخرفة بيانية او بديعية مصطنعة ، وانما تزخر بالشعور الصادق وتفيض بالاحساس العميق والعاطفة الجياشة . ومرد ذلك طبعاً الى الاخلاص فى التعبير ، إذ قل ما نراه في الشعر

---

(١) الحلة السيراء ف ابن عمار

الذى تفرضه المناسبات والذى يكون القسم الأكبر من انتاج ابن عمار الأدبي . فاذا وجد هذا الاخلاص وأضيف الى تمكن الشاعر من ناصية النظم وقبضه على زمام اللغة ، جاء شعره رائعاً ينفذ الى النفس ويحرك أوتار القلب ويبعث فيها ذلك الشعور بالارتياح والمشاركة العاطفية ، ذلك الاحساس الذى نطلق عليه المتعة الادبية اوالتذوق الفني .

البائيتان

ويبدو أن الشاعر كان قلقاً حقاً ، تملأ نفسه المرارة والخيبة ، فقد فشل مشروعه بعد أن أنفق في سبيله ما أنفق من جهة ، وفقد من الجهة الاخرى ثقة ملكه ورضاه . ومن المحتمل أن لا يصل الألم والقلق بابن عمار الى هذا الحد لو لم يكن في مثل هذا الموقف الحرج يعصر قلبه الخذلان وتملأه مرارة الهزيمة . ولنترك ابيات الشاعر نفسها تصف لنا النزاع الذى كان يعانيه والصراع الذى يتجاذبه والقلق الذى كان يملك عليه نفسه ويستحوذ عليه ، إذ يقول (١) :

أأركب قصدي أم أعوج مع الركب ؟
فقد صرت من أمرى على مركب صعب

وأصبحت لا أدرى أفي البعد راحتي
فأجعله حظي أم الخير فى القرب ؟

(١) الحلة السيراء . ف ابن عمار ، 1 • Mus . Esp . T . 3 , P . 109

على أنني أدرى بأنك مؤثر
على كل حال ما يزحزح من كربي

فهو رغم تردده وقلقه ، يدرك أن الملك أقرب الى العفو عنه والتجاوز عن إساءته ، بل إنه لا يتصور أن المعتمد يمكن أن يقف غير هذا الموقف أو يسلك معه غير هذا المسلك ، فهو رغم جريرته التي سببها الحظ العاثر لم يخن الملك او يقوم بعمل يقصد به النيل منه وإضعاف سلطانه ، كما لم يكن ضعف الرأى او العجب والكبرياء سبب نكبته وإنما هي ظروف أقوى منه واشد بأساً من من رأيه وتدبيره :

أيظلم فى عينى كذا قمر الدجى!
وتنبو بكفي شفرة الصارم العضب!

جنانيك فيمن انت شاهد جده
وليس له حاشا انتصاحك من حسب

وما جئت شيئاً فيه يبغي لطالب
يضاف به رأى الى الضعف والعجب

سوى أنني أسامتني لملمة
فللت بها حدى وكسرت من غربي

أما أنه لولا عوارفك التي
جرت في جرى الماء في الغصن الرطب

لما سمت نفسي ما أسوم من الأذى
ولا قلت إن الذنب فيما جرى ذنبي

سـاستمنح الرحمى لديك ضراعة
واسأل سقياً من تجاورك العـذب

وإن نفحتني من سمائك حرجف
سـأهتف يابرد النسـيم على قلبي

ففضلا عن قيمة هـذه الابيات التأريخية ، لأنها تعكس لنا مرحلة من مراحل العلاقة بين المعتمد ووزيره ، فان قيمتها الأدبية لايتطرق اليها الشك . ولعل مصدر هذه القيمة الاخيرة ، هي في أن الشاعر لم يتقصد اللعب بالألفاظ وإظهار براعته فى رصف الكلمات وزخرفة العبارات واستعمال المحسنات البديعية ، بل اراد التعبير فعلا عن شعور عميق كانت تضج به نفسه ويفيض به قلبه ،كان يريد ان تنعكس في كلماته مشاعر الألم والخوف والخيبة والحذر والرغبة فى استرضاء الملك وكسب وده ؛كان يريد أن يهز مشاعر المعتمد ويجلب إعجابه واستدر عطفه ، ولذلك استكملت القطعة الأدبية عناصـرها الاصيلة وهى مضمون قيم ناضج في شكل رائع منسجم .

وقد كان لهذه القطعة أثرها في نفس المعتمد فاجابه قائلا (١) .

لدى لك العتبى تزاح عن العتب
وسعيك عندى لايضاف الى ذنب

---

(١) الديوان ، ص ٥٥ .

وأعز علينا أن تصيبك وحشة
وأنسك ماتـــدريه فيك من الحب

فدع عنك سوء الظن بي وتمده
الى غيره فهو الممكن في القلب

قريضك قـــد ابدى توحش جانب
فجاوبت تأنيســاً وعلمك بي حسبي

تكلفته أبغي بـــه لك ســـلوة
وكيف يعاني الشعر مشترك اللب

ومما يتصل بهذه الابيات والتي سبقتها أبيات اخرى تشابهها في الوزن والروى ، بل إن مؤرخي الأدب كثيراً ما خلطوها بعضها بالبعض الآخر وأوردوها في المناسبة نفسها ، ولا نجد غير ابن الابار وحده يميزها من الابيات المارة الذكر ، ويذكر نقلا عن أحد جامعي ديوان ابن عمار ، ابي الطاهر التميمي أنها قيلت في حال أوجبت إيحاشاً بين المعتمد ووزيره(١) ، وهي لا تقل عن الأبيات السابقة من حيث قيمتها الأدبية ، وتكاد تعكس نفساً تشبه تلك النفس التي جادت بالاولى ، كتب ابن عمار :

أصـــدق ظني أم اصيخ الى صحبي
واقضي عزيمي أم أعوج مع الركب

إذا انقدت مع رأيي مشيت مع الهوى
وإن أتعقبه نكصت على عقبي

(١) الحلة السيراء ، ف ابن عمار ، رواية ابي الطاهر التميمي . الذخيرة ق ٢ ، ف ابن عمار .

وإنى لتثنيني إليك مودة
يغيرها ما قد تعرض من ذنبي

فما أغرب الايام فيما قضت بـه
تريني بعدي عنك آنس من قربي

أخافك للحق الذى لك في دمي
وأرجوك للحب الذى لك فى قلبي

وكم قد فرت عناك بى من ضريبة
ولا بد يوما ان يفلل من غربي

وأعلم أن العفو منك سجية
فلم يبق إلا أن تخفف من عتبي

ولي حسنات لوأمت ببعضها
الى الدهر لم يرتع بنائبه سربي

ولا بد مابيني وبينك من ....
يطبقها مابين شرق الى غرب

ويبدو ابن عمار، فى هذه الابيات، التي ربما تكون قد قيلت بهذه المناسبة أو في أخرى مثلها، رغم قلقه وتردده، أربط جأشاً وأشد ثقة بنفسه، بل إنه يمتن على الملك بمآثره واعماله ويذكره بخدماته وحسناته التي يذكرها له الدهر.

وعلى هذه الابيات أجابه المعتمد بقوله (١) :

تقدم الي ما اعتدت عندى من الرجب
ورد تلقك العتبي حجاباً عن العتب

متى تلقني تلق الذى قد بلوته
صفوحاً عن الجاني رؤوفاً على الصحب

سأوليك مني ماعهدت من الرضى
وأصفح عما كان إن كان من ذنب

فما أشعر الرحمن قلبي قسوة
ولا صار نسيان الأذمة من شعبي

وهذه الأبيات كما ذكرت كثيراً ما تختلط لدى المؤرخين مع الابيات السابقة وتمتزج بها بحيث يصعب إثبات ما قيل منها في هذه المناسبة او مالم يقل. ولكن ما نستطيع تأكيده هو أن روحاً واحداً تقريباً يتخللها ويكسبها قيمة ادبية متقاربة ، مصدرها شعور الشاعر المتدفق واخلاصه فى التعبير ومقدرته عليه .

وكان في جواب المعتمد لابن عمار مايطمئنه ويبث في نفسه الثقة برضاه وعفوه ، فيقدم اليه وينال الصفح منه . وقد حاول المعتمد حل المشكلة التي اوقعه ابن عمار فيها باتفاقه مع حاكم برشلونة المسيحى ، مرسلاً اليه عشرة آلاف قطعة من الذهب التي اتفقا عليها ، ولكن الامير المسيحي لم يعد

(١) الحلة السيراء ، ف ابن عمار . الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابن عمار .

يقبل بغير ثلاثين الفاً ، فلم يكن من المعتمد ، كما يقال ، الا أن ارسل اليه الثلاثين الفاً التي طلبها ولكن بوزن أقل من الوزن المقرر ، فتسلمها رايموند ولم ينتبه اليها اليها الا بعد اطلاقه سراح الرشيد ، ولات حين غضب (١) ، كما سبق أن اشرنا الى ذلك من قبل .

ولدينا حول هذا الموضوع وثيقة تأريخية لا بد من الاشارة اليها وهي رسالة كتبها ابو بكر بن القصيرة على لسان المعتمد الى صديق له نجدها في مخطوط الذخيرة لابن بسام ، القسم الثاني ، يقول فيها : - « لم يغب عنك من مجلى الحال بمرسيه وجه أجلوه ، ولا انطوى من نجواه امر أنشره وأبديه ، وها أنا أعرض عليك من باطنها ، ماربما خفى ، وأنهى اليك من نجواه ما لعله لم ينم وجهه ولا انهى ، وذلك أن الافرنج ايام تلومهم على صاحبها وإحداقهم بجانبها أرسلوا الى من اعيانهم من قرب على وجه مراماً . فاستجبت لندائهم ، ولم يكد يخالج ببالي شك فى صدق أنبائهم ، واذا الامر بخلاف ما ذكروه وعلى غير ماسهلوه . ووقع من المطاولة ما وقع ، وآلت الحال معهم الى ما قد فشى وسمع ، فأعدت لها الحيل مع فلان ، لاطاله حصرها والاباحة بقهرها ، وصاحبها مع ذلك أعمى عن رشده ، يقدم رجلا ويؤخر أخرى فى إعطاء صفقه يده ليقضي الله تعالى قدره ويبلغ امره (٢) » .

فهو يبرر في هذه السطور القصيرة فشله في حملته الاولى على مرسيه ويعرب عن تصميمه على حصارها وقهرها وقراره بايداع هذه المهمة الى ابن عمار نفسه .

---

(١) الحلة السيراء ، ف ابن عمار ، بنو عباد ، ج ٢ ، ص ٨٩ .
(٢) الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابو بكر بن القصيرة .

الحملة الثانية على مرسية

ان مانعرفه مما نقله لنا المؤرخون العرب (١) ، هو أن ابن عمار كان المحرض الأكبر على القيام بهذه الحملة والمصمم عليها ، فقد ادعى أنه تسلم كثيراً من رسائل التأييد والتشجيع من أشراف مرسية ونبلائها واستعدادهم لمد يد المعونة والمساعدة له اذا ما غزا مدينتهم . فما كان من المعتمد الا أن استجاب لهذا الاغراء ووافق على مشروع ابن عمار وعهد اليه بتنفيذه. ويذكر ابن قاسم الشلبي عند تحدثه عن هذا الموضوع أن ابن عمار ذكر للمعتمد أو زور أن اهل مرسية قد داخلوه وخاطبوه وأظهر له كتباً ذكر أنهم كتبوها اليه .

وسار بعد استعداداته الخطيرة هذه الى قرطبة حيث ألحق بجيشه جزءاً مهما من حاميتها وقضى ليلة بصحبة أميرها الفتح بن المعتمد حاكم المدينة ، حتى اذا ما بدت خطوط الفجر قدم اليه أحد اتباعه ينبهه الى ان وقت السفر قد حان فيجيبه ابن عمار :

اليك عني فليلي كله صبح
وكيف لا وسميرى الحاجب الفتح

ويترك الجيش الاشبيلي قرطبة متوجهاً الى مرسية ، وفي طريقه اليها يمر بحصن بلج . وبلج قائد عربى من شقير قدم على رأس حملة تأديبية عندما

---

(١) الذخيرة ، ق ، ف ابن عمار

ثار البربر فى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) مرسلا من قبل الخليفة فى دمشق وقد قام بدور مهم في حياة الاندلس قبل الامارة الاموية لامجال للتحدث عنه الان . وكان يحكم حصن بلج هذا حاكم من سلالته عرف بابن رشيق . فما كاد ابن عمار يصل الحصن حتى استقبله ابن رشيق بحفاوة وترحاب وقدم له من ضروب المساعدة والتأييد ما اقنع ابن عمار باخلاصه له وتآزره معه ، فالحقه بركابه وتعاون واياه على تنفيذ غرضه .

وسار ابن عمار بجيشه يعاونه ابن رشيق وضرب حصاراً محكماً حول مرسيه ، ولا سيما بعد استيلائه على حصن موله الذى كان يحمى الطريق الرئيس الذى يمون المدينة بالزاد والطعام (١) . وكان لاحتلال حصن موله اثر كبير في اهل المدينة ، فشعروا بالضيق والحرج . ولاشك ان تأثر العامة بمثل هذه الازمات يأخذ شكلاً مؤلماً في غالب الاحيان . بل ان نصيبهم هو الاوفر عادة من النتائج السيئة التى تترتب على هذه المشكلات . فاذا اضفنا الى ذلك ما بذله ابن عمار من المال والوعود لوجهاء المدينة ونبلائها أدركنا أن المدينة لم تكن لتستطيع الصمود طويلا امام جيش اقوى منها عدة واكثر عدداً ، اذا لم يتيسر لها من يساعدها ويشد أزرها ممن يجاورها من الأمراء الاقوياء . ولكن لم يكن من سبيل للحصول على هذه المساعدة والمؤازرة ، فابن عمار قد ضمن صداقة الفونس السادس وحياده . ولم يكن لابن عبد العزيز ابن ابى عامر أمير بلنسية قدرة على حشر قصه فى

(١) الحلة السيراء ، ف ابن عمار .

مأزق مثل هذا رغم صداقته لابن طاهر أمير مرسيه ورغبته القويه في مساعدته ورغم مقته لابن عمار ونفوره منه ، فقد كانت المشكلات الداخلية والخارجية تهدده بالويل والثبور . وقل مثل ذلك عن عبد الله بن زيرى امير غرناطة الذى لم يكد يصدق أنه تخلص من مؤامرة ابن عمار ومن مكائده ، فلم تكن له رغبة إذن في الدخول معه في صراع جديد ، رغم أنه كان ينظر الى حركة الاشبيليين هذه بغيظ وحسد (١) .

بعد أن أحكم ابن عمار حصاره لمرسيه وتأكد من عدم قدرتها على الصمود وأدرك ان سقوطها اصبح مسألة زمن ليس غير ، عاد لاشبيلية تاركاً لابن رشيق أمر قيادة جيشه وتنفيذ خطته وبقي هناك ينتظر ورود الانباء .

روى ابن القاسم الشلبي ، قال (٢) « وما زال ابن رشيق يغاديها ويراوحها بالغارات ويداخل اهلها فى القيام على ابن طاهر ويمنيهم الحظوة ، حتى لان قيادهم وصرحوا له بالانحياز ووصلت كتبهم على يديه الى ابن عمار وهو باشبيلية . قال ابن قاسم ، ولقد شهدت ابن عمار فى القصر باشبيلية يقرأ هذه الكتب وكانت أزيد من عشرين ، فلما استوفاها قال لنا كانكم بفتح مرسيه من غد الى بعد غد ، فكان كذلك » وقد حدث ذلك فعلا ، فلم تكد تمضى ايام حتى استسلمت مرسيه نتيجة تمرد في داخل المدينة أسنده وأيده المحاصرون ، فأسقط فى يدى ابن طاهر ولم يستطع حتى الفرار فوقع اسيراً في أيدي أعدائه .

---

(١) مذكرات الملك عبد الله بن زيري ، الاندلس ١٩٣٥ ، ص ٢٢٤ .

(٢) بنو عباد ، ج ٣ ، ص ٨٥ .

وما كادت الانباء تصل الى ابن عمار فى اشبيليه حتى استأذن المعتمد بالرحيل وترك اشبيلية فى موكب حافل تخفق فوقه الرايات وتضرب حوله الطبول . تتبعه مئات المطايا والبغال المحملة بنفائس الهدايا وفاخر الثياب . ويجتاز هذا الموكب الرائع قرطبة فى احتفال كبير يحف به الناس تملأه نشوة النصر ويشيع فى نفسه الزهو والخيلاء . ومنها يمضي الى غيرها من المدن التى تقع فى طريقه حتى يصل مرسيه . إن من الطريف أن يبقى هذا المشهد ماثلا في ذاكرتنا بضع سنوات بعد ذلك عند عودة ابن عمار الى قرطبة حاسر الرأس بين عدلي تبن على حمار هزيل والناس تلقي فى وجهه الشتائم وترميه بالحجارة .

وصل ابن عمار مرسيه فدخلها بموكبه المهيب ناثراً العطايا والهبات ، سالكاً مسلك الملوك فى توقيعاته (١) حتى اذا كان اليوم الثانى جلس فى قصر الامارة يستقبل المهنئين ويوزع الجوائز ، وقد ارتدى قلنسوة طويلة اعتاد المعتمد أن يختص بلبسها وكان يكتفى بان يكتب في ذيل ما يقدم اليه ... « ينفذ هذا إن شاء الله » ، دون ان يذكر المعتمد سيده او يشير اليه كما تقتضي الاصول الادارية المتبعة آنذاك وكانت هذه بادرة خطرة لسلسلة من اعمال العصيان والتمرد قام بها ابن عمار وكان لها اكبر الاثر فى مستقبله السياسي .

---

١ الحلة السيراء ، ف ابن عمار

تمرد ابن عمار في مرسية

لاشك أن بذور التمرد كانت متمكنة في نفس ابن عمار منذ زمن ليس بالقليل قبل دخوله لمرسية . وكانت تغذي هذه البذور وتدفعها الى الانبات عوامل عديدة أهمها :

أولاً :ـ الفترة المضطربة التي كانت تعيش فيها بلاد الأندلس آنذاك ، فلم تكن ثمة حكومات قوية تستطيع فرض سيادتها وسلطانها على جميع البلاد، بل كانت الخلافات والنزاعات الداخلية تفعل فعلها في إضعاف شوكة ملوك الطوائف وفل عزمهم والفت في عضدهم ، وكان ابن عمار يعرف ذلك حق المعرفة ويدرك أن اشبيلية نفسها ليست في وضع يساعدها على أن تدخل منفردة في نزاع حاد وصراع عنيف .

ثانياً : ـ اعتداد ابن عمار بنفسه وإيمانه بحنكته السياسية ودهائه في إدارة دفة الحكم ـ بل لانبالغ اذا قلنا إنه كان يعتقد أن إدارة دولة بنى عباد وتوسيع نفوذها يرجع الفضل فيها اليه ، لذا فلا يرى أنه مدين لسيده بشيء وقد رأينا أنه كتب للمعتمد يوماً من قطعة :

ولي حسنات لو أمت ببعضها
الى الدهر لم يرتع بنائبه سربي

وسنراه وهو فى أحرج ساعاته يطلب من المعتمد العفو والمغفرة مذكره بخدماته السابقة حين يقول في قصيدة :

وإن رجائى أن عنـــدك غيرما
يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح

ولم لا وقد أسلفت وداً وخدمة
يكران فى ليل الخطايا فيصبح

ويتحدث عن غروره هــذا عبد الله بن زيرى ملك غرناطة فيقول ، عدا ماذكرنا سابقاً من رأيه حول نجاحه في رد المسيحيين عن إشبيلية وإرجاع ابن عمار كل الفضل الى نفسه ، « إنه (اى ابن عمار) بفسوقه كان يتكبر على اولاده (اى اولاد المعتمد) ويضيق عليهم ويسيء الصنيعة مع من يجب عليه إكرامه من قرابة سلطانه، والمعتمد في هذا كله يصبر »(١) .

ثالثاً : ـ صــداقة ابن عمار لألفونس السادس ملك قشتالة وثقته بتأييده وإسناده . وكان الوزير الاشبيلي كما ذكرنا يدرك أهمية الفونس في الأندلس وتأثيره الكبير على توازن القوى . فضمانه لصداقته وتأييده ، كسب ذو قيمة خطيرة وتشجيع كبير له على الاستغناء عن سيده السابق . ولدينا فى هذا الموضوع قصة طريفة يرويها لنا ابن الأبار فيقول ، إن ابن عمار كان يتختم بخاتمين . وإنه حكي أن ابن طاهر غمز على رسول ابن عباد المعلم بخاتميه وأنه نسب أحدهما للمؤتمن بن هود والثانى لأذفونش بن فردلند ! ! وقال أبو الطاهر التميمى إن الوزير أبا بكر بن عبد العزيز قد

(١) مذكرات الملك عبد الله بن زيري ، الاندلس ، ١٩٣٥ ، ص ٣٢٥ .

« ندر فيه حين بلغه أن أذفونش ملك الروم أعطاه خاتماً عند اجتماعه به ولياذه فراراً من الوحشة الواقعة بينه وبين ابن عباد وتخوفاً منه ، فقال « أخاتم التأمير ام خاتم التأمين » (١) فقال ابن عمار عندما بلغه ذلك قصيدته التي مطلعها « قل للوزير وليس رأى وزير » والتي سنعرض لها فيما بعد .

رابعاً : ـ غنى مرسية وثروة ابن طاهر كما ذكرنا ، فقد كان واسع الثراء وتقدر املاكه بنصف كورة مرسية .

خامساً : ـ عدم وجود أساس شرعي للسلطة غير المال والقوة في الأندلس آنذاك . فمن امتلك المال استطاع تجنيد المرتزقة وجمع الاتباع وضم الاعوان ، ونظرة بسيطة على الاصول التي انحدر منها ملوك الطوائف تثبت لنا هذه الحقيقة . فلم يكن ابن عمار إذن يتحرج عن طلب الملك والسلطان مادام المال متوفراً لديه وما دامت ظروف البلاد تشجعه على ذلك كل التشجيع .

كل هذه العوامل وأخرى غيرها دفعت ابن عمار الى التفكير في التمرد في مرسية وقطع كل علاقة تربطه بالمعتمد بن عباد . وقد بدت مظاهر هذه الرغبة كما رأينا منذ بدء قدومه الى مرسيه ، بل إن اشارات كثيرة سبقت هذا القدوم كانت تعرب عن نيات الوزير المبيتة ، وتدل على أن المعتمد نفسه ، لم يكن غافلا عن هذه النيات ، حتى ان ابن الابار يروى لنا رواية تبعث على الدهشة والاستغراب فهو يقول نقلا عن أبي بكر محمد بن

(١) ابن الأبار الحلة السيراء ، ف ابن عمار .

القاسم الشلبي ما تلخيصه « إذ ابن رشيق لما قرىء كتابه المضمن دخول مرسية ، باشبيلية ، ارتاح ابن عمار واعمل نظره في اللحاق بها واشار على المعتمد بذلك ، فما خالفة فواقاً ، فلم يترك ابن عمار باشبيلية فى ملك سلطانه ولا ملك أحد من معارفه فرساً عتيقاً ولا مطية ولا زاملة إلا استخرج ذلك من أيديهم رغبة ورهبة وأحضر له التجار ما بأيديهم على اختلاف بضائعهم من الديباج والخز الى ما دون ذلك من نفيس الكساء ليعم بذلك أهل مرسية على قدر منازلهم عنده ، ولم يخف عن ابن عباد وجه مراده ، فلما سلم عليه مودعاً ، قال له : سر الى خيرة الله ولا تظن أني مخدوع ، فقال (ابن عمار) : لست بمخدوع ولكنك مضطر . فخلم عنه وخرج من إشبيلية ، وأقام بظاهرها أربعة ايام يستوفي أغراضه ثم رفع ألويته وقرع طبوله ، وسار لا يمر ببلد من اعمال ابن عباد الا استخرج منه كل ذخيرة حتى وصل الى مرسية . . » (١)

ويذكر ابن زيرى ملك غرناطة فى حديثه عن محاولة ابن عمار فتح هذه المدينة أنه « كان الناس يتوقعون عليه الفساد عند محاولة أمرها (اى مرسية) » (٢).

ابتدأت شقة الخلاف تتسع بين المعتمد وابن عمار وازداد الخلف بينهما شدة وقوة ، لا بسبب الأعداء ، كما يدعي ابن عمار في أبيات بعث بها الى المعتمد

(١) الحلة السيراء ، ف ابن عمار . دوزى ، بنو عباد ، ج٣ ، ص ٩٧ .
(٢) مذكرات الملك عبد الله بن زيري ، الاندلس ، ١٩٣٥ ، ص ٢٢٤ .

حيث يقول (١) :

أظن الذي بيني وبينك أذهبت
حلاوته عنى الرجال الخبائث

تذكرت لا أني لفضلك ناكر
لدى ولا أني لعهدك ناكث

ويؤيده في هذا الادعاء دوزى (٢) . وإنما بسبب ما اوضحناه من مطامح ابن عمار ومطامعه واعتداده بنفسه ورغبته القوية فى أن يشيد لنفسه سلطاناً مستقلاً يناسب ما يعتقد أنه يمتلك من عزم وحزم ودهاء. لقد كان واثقاً كما قلنا ، من استطاعته الصمود فى معقله الجديد لاسيما وأن الفونس يقف الى جانبه . وسنرى أن شعره في هذه الفترة يعكس نفسيته واعتداده الشديد بنفسه وغروره الذى قد يبعث على الاستغراب من رجل فى مثل مركزه قد خبر الحياة وعرف حلوها ومرها . ولكن العوامل التى كانت تحيط به والتى سبق أن أشرنا اليها تخفف لحد كبير من هذا الاستغراب .

لقد كان ابن عمار يعتقد بأنه قادر بما يملك من قوة ومن تأييد على أن يقف فى وجه جميع ملوك الطوائف في الأندلس . ولم تكن علاقاته سيئة مع المعتمد بن عباد ملك إشبيلية وسيده القديم فحسب ، وإنما كانت كذلك مع ملوك الطوائف الآخرين . فابن عبدالعزيز ابن أبي عامر أمير بلنسية يبطن له الحقد

(١) ديوان ص ٥٦ .
(٢) 2 - Mus. Esp. T. 3. P; 109

والضغينة (١) . والمعتصم بن صمادح أمـــير المرية وحليف المعتمد كان ينظر اليه بريبة وحقد وقلق (٢) وقل مثل ذلك عن علاقاته بابن زيرى أمـــير غرناطة (٣) . ومع ذلك فلم يكن يعتقد أنهم سيكونون مصدر خطر عليه وسبباً فى آذاه ، فكان يسلقهم بلسانه ، ويكيل لهم الشتم والسباب ويهددهم بالويل والثبور .

وعلى ذلك فقد سلك ابن عمار في مرسيه بعد أن نما شعوره بقوته واعتداده بنفسه ، مسلك الأمراء المستقلين متمرداً على المعتمد وناكثاً عهده معه . وعندما عاتبه هذا الاخير متمثلا بالبيتين التاليين :

تغير لي فيمن تغـــير حارث
وكل خليل غـيرته الحوادث

أحارث إن شوركت فيك فطالمـــا
نعمنا ومـــا بيني وبينك ثالث

أجابه ابن عمار بقصيدة من خيرة قصائده يتنصل فيها من مسؤولية التمرد ويلقي بتبعتها على التمـــامين والجبناء ، ويحاول أن يستعيد ثقة المعتمد به ، مظهراً فى الوقت نفسه خدماته الجليلة المهلك وتضحياته السابقة فى سبيله . وليس في هذه القصيدة اعتذار و أسف وانما فيها عتاب ومنه ، فلنستمع اليه يجيبه على بيتيه السالفين (٤) :

---

(١) ديوان قص ٥٦ .
(٢) « « ٥٦ .
(٣) مذكرات الملك عبد الله . الاندلس . ج٣ ، ص٢٢٥ .
(٤) ديوان ، قص ٥٦ .

لك المثل الأعلى وما أنا حارث
ولا أنا ممن غـيرته الحوادث

ولا شاركتك الشمس فى وإنه
لينأى بحظى منك ثان وثالث

فديتك ما للبشر لم يسر برقه
ولا نفحت تلك السجايا الدمائث

ثم يشير كما ذكرنا سابقاً الى أن الوشايات والنمائم هى التي سببت هـذه القطيعة وأوجدت سوء الظن . ويعود بعد ذلك ليذكر ملك إشبيلية بخدماته السابقة وتضحياته الكثيرة في سبيل تقويم دعائم مملكته وتوسيع رقعتها معاتبه على عدم تقديره لخدماته ومكافأته على تضحياته :

أبعد مضت خمس وعشـرون حجة
تجافت بنا تلك الخطوب الكوارث

مضت لم تربّ مني أمور شـوائب
ولا تليت عـنى مسـاع خبائث

حلت يداً بى هكذا وتركتنى
نهاباً وللأيام أيـد عوابث

وهل أنا الا عبـد طاعتك التي
إذا مت عنها قام بعـدى وارث !

ويحذره، لا بلهجة التابع لسيده، وانما بلهجة الند للند، تحذيرا فيه شدة وامتنان، يدل على أن الوزير لم يعد يحمل لمليكه ما كان يحمله له من ارتباط وثيق وطاعة تامة واخلاص لا تشوبه الشوائب.

أعد نظراً لا نوهن الرأى إنه
قديماً كباه وأدرك رائث

ستذكرني إن بان حبلي وأصبحت
تئن بكفيك الحبال الرثائث

وتطلبني إن غاب لمرأى حاضر
وقد غاب مني للخواطر باعث

أعوذ بعهد نطته بك أن ترى
تحل عراه العاقدات النوافث

وقصيدة ابن عمار هذه من أدب الرسائل الشعرية التي كانت سائدة آنذاك. ولا شك أنها نموذج جيد من نماذج هذا الادب؛ إذ أنها تعكس لنا بالاضافة الى أفكار الشاعر، عواطفه وأحاسيسه، بل إننا نتمكن أن نتلمس خلالها حالة الشاعر النفسية وموقعه الحقيقي من الملك. كل ذلك بأسلوب متماسك ينسجم مع غايات الشاعر ومقاصده من نظم الأبيات.

إذن فقد ساءت العلاقات بين المعتمد وابن عمار وبتدأ هذا الاخير يسلك سلوك الأمير المستقل ويظهر بوادر تمرد، دفعت الاول الى أن

يظهر امتعاضه واستياءه في مناسبات مختلفة ، ومن الطبعى أن تتسع شقة الخلاف يوما بعد يوم وأن ينتهى كل ذلك بعـــداء مستحكم وحقد عنيف كما سنرى .

قلنا إن ابن عمار بعد دخوله لمرسيه اعتقل أميرها السابق ابن طاهر . ويذكر أنه بعد أن سلبه ملكه وأملاكه حاول مجاملته فبعث اليه وهو فى الأسر بكسوة حسنة ، ولكن ابن طاهر رفضها وقال للرسول (١) إنه لا يريد سوى سروال قصير وكساء رث وكان ابن عمار أيام عسره وفقره فى مطلع حياته الادبية قد قدم على ابن طاهر يستدر عطفه ويستجدى كرمه بشعره وهو مرتد ملابس رثه تتألف من سروال مهلهل ورداء قصـــير ، فقصد ابن طاهر تذكيره بماضيه والتهكم من منبته ، فامتعض ابن عمار وذكر لجلاسه غرض ابن طاهر من تعريضه هذا .

ثم أمر باعتقال ابن طاهر فى قلعة مونتيكادو . وكان ابو بكر (٢) بن عبد العزيز بن ابى عامر أمـــير بلنسيه صديقاً حميماً لابن طاهر ، فشفع له لدى المعتمد . وبعد مفاوضات حول هذا الموضوع تم الاتفاق على إطلاق سراح ابن طاهر بشرط أن ينزل عن إحدى القلاع التي كان يحكمها أحد اقرباء هذا الاخير ، وهو ابو بكر بن موسى ، لابن عمار . وما كاد ابن طاهر يتملص من القيود ويقصد بلنسية حتى نكث باتفاقه ورفض تسليم القلعة ، يحرضه

---

(١) الحلة السيراء ، ف ابن طاهر ،

(٢) الحلة السيراء ، ف ابن عمار .
2 - Mus . EsP . T.3, p.111 .

على ذلك ابن عبد العزيز أمير بلنسية وعدو ابن عمار اللدود (١) . وأخذ الغضب من ابن عمار كل مأخذ فنظم في ذلك قصيدة (٢) ، ضمنها كل حقده على ابن طاهر وابن عبد العزيز منددا بهما ومتهماً إياهمـــا بشتى التهم ، ولا سيما بنقض العهود والوعود ، ولم يكتف بذلك ، بل هدد بلنسية بالويل والثبور . يقول فيها :

خبر بلنسية وكانت جنة
أن قد تدلت في سواء النار

غـــدرت وفياً بالعهود وقلما
عثر الوفي سعى الى الغـــدار

ويدعو أهل المدينة الى الثورة والتمرد ضد حكامها :

يا أهلها من غائب أو حاضـــر
وقطينها من حاضر او سار

جازوا بني عبـــد العزيز فانهم
جروا اليكم اسوأ الاقـدار

ثوروا بهم متأولين وقلدوا
ملكاً يقوم على العدو بثار

ثم ينتقل للتحدث عن ابن طاهر ذاكراً مخالفته للعهد :

---

(١) الحلة السيراء ، ف ابن عمار
(٢) ديوان ، قص ٥٨ .

جاء الوزير بها يكشف ذيلها
عن سوأة سوأى وعار عار

نكث اليمين وحاد عن سنن التقى
وقضى على الاقبال بالادبار

الى أن يقول :

ما كنتم كأمة صالح
فرماكم من طاهر بقدار

هذا وخصكم باشأم طائر
ورمى دياركم بأسوأ جار

لا بد من مسح الجبين فانما
لطمته غدراً غير ذات سوار

وينتقل بعد ذلك للفخر بنفسه ، ولعل هذه الابيات أحسن ماتحتويه القصيدة . إذ تلوح خلالها بوضوح غطرسة ابن عمار وكبرياؤه واعتداده بنفسه والصورة التي لديه عنها . وسنجد أننا نستطيع أن نرى خلال هذه الاوصاف مميزات شخصية ابن عمار كما حاولنا رسمها في السطور السابقة والتالية ، وسنرى أنها كانت سبباً في إثارة المعتمد نفسه ودفعه الى التهكم بوزيره القديم :

كيف التفلت بالخديعة من يدى
رجل الحقيقة من بني عمار

رجل تطعمه الزمان فجاءه
طرفين فى الاحلاء والامرار

سلس القياد الى الجميل فان يهج
فدع العنان لهبة التيار

طبن بأغراض الامور مجرب
فطن لأسرار المكائد دار

ماض اذا برزت اليه مصمم
هون اذا التفت عليه مدار

كشاف مظلمة وسائس أمة
نفاع أهل زمانه الضرار

عجباً لأشمط راضع ثدى الوغى
منه وطوراً في القنا الخطار

شراب أكواس المدام وتارة
شراب أكواس الدم الموار

وأظن أن ابن عمار نجح كل النجاح في رسم صورة رائعة قوية للسياسي البارع فى ذلك العصر، وذكرنا بوضوح الصفات التي يجب ان

تتمثل فيه، يدل ذلك على أنه كان مدركاً كل الادراك لما يجب ان يكون عليه رجل السياسة وأنه بذل جهده في أن يكون كذلك. ومما يلفت النظر فى هذا الموضوع البيت الاخير، والواقع أن هذه الصفة كانت مصدر فخر واعتزاز فى الأرستقراطية الأندلسية، بل إنها صفة من صفات الرجل المثالي لهذه الطبقة وهو المسرف في اللهو في ساعات الأنس والمسرف فى الشجاعة عندما يتطلب الأمر ذلك.

وفى أخر هذه القصيدة يهدد ابن عمار بلنسية بالويل والثبور ويتوعدها بالشر المستطير:

جرار أذيال القنا ظنوا به
قد جاءكم فى الجحفل الجرار

وكأنكم بنجومه ورجومه
تهوى اليكم من سماء غبار

الى آخر القصيدة.

وكان لهذه القصيدة نتائج خطيرة جداً. إذ ما كادت تصل الى المعتمد وكان الموقف بينهما آنذاك قد بلغ حداً كبيراً من التوتر حتى خطرت له خاطرة سرعان ما نفذها، فقد رأى في اعتداد ابن عمار بنفسه وافتخاره بها، وهو الذى انتشله آل عباد من وهدة الفقر والتشرد، رأى في ذلك سخرية ما بعدها سخرية، فاذا به يكمل بيت الوزير المدعى:

كيف انتقلت بالخديعة من يدي
رجل الحقيقة من بني عمار

بأبيات بالروي نفسه والقافية عينها، يقولها على لسان الشاعر معتداً بمذهبه الكريم وماضيه اللامع وامجاد اسرته العتيدة، بل إنه ليذهب الى أبعد من ذلك فيذكر شمس أم ابن عمار وقصرها المنيف وحياتها الباذخة، كل ذلك بتهكم لاذع وسخرية مرة، فما كان لابن عمار كما رأينا مجد يعتد به او اسرة يذكرها، وانما قضى حياته الاولى فريسة للفقر وضحية للحرمان، وعانى من قسوة العيش وفضاضة الزمن ماجعله مضرب المثل في الرجل المغمور يرقى سلم المجد والشاعر الشريد يصل مصاف العظماء والوزراء والحكام لذا فقد مست فيه ابيات المعتمد جرحاً كاد الزمان يأسى عليه، فاذا به كما يذكر مؤرخو الاندلس يثور ويسخط ويأخذ منه الحنق والغضب كل مأخذ فينظم أبياتاً لاذعة كلها شتم وسباب للمعتمد وذويه مطلعها:

ألاحي بالغرب حياً حلالا
أناخوا جمالاً وحازوا جمالا

فمن أجداد المعتمد الذين يعتد بهم غير رعاة للابل في بطون الصحراء أنهكهم الجدب وأضناهم العدم:

وعج بيومين (١) أم القرى
ونم فعسى أن تراها خيالا

---

(١) يومين، هي القرية التي نشأ فيها بنو عباد.

لتسأل عن ساكنيها الرما
د ولم تر للنار فيها اشتعالا

ويذهب الى أبعد من ذلك فيتناول اعتماد الرميكية زوج المعتمد ويصمها وأولادها باقبح الصفات :

أيا فارس الخيل يازيدها
حميت الحمى وأبحت العيالا

أراك تورى بحب النسا (م)
ء وقد ما عهدتك تهوى الرجالا

تخيرتها من بنات الهجا (م)
ن رميكية ما تساوى عقالا

فجاءت بكل قصير العذا (م)
ر لئيم النجارين عماً وخالا

بصفر الوجوه كأن استها
رماهم فجاءوا حيارى كسالا

قصار القدود ولكنهم
أقاموا عليها قروناً طوالا

ويتلو ذلك بهجاء مقذع ، شديد الاقذاع للمعتمد نفسه فيصفه بأقبح الصفات وينعته بأبشع النعوت . (١)

---

(١) الحلة السيراء ، ف . ابن عمار .

ويذكر مؤرخو الأدب الاندلسي أن ابن عمار حرص على أن لا تتجاوز هذه الأبيات خاصته المقربين اليه ، فقد كان على اعتداده بنفسه يخشى غضب المعتمد ، إلا أن القصيدة مع ذلك تسربت لابن عبد العزيز أمير بلنسيه فأرسلها هذا بدوره مسرعاً الى المعتمد ، فما من فرصة أحسن من هذه لاثارة حقد ابن عباد على عدوه اللدود . ويقولون إن ابن عبد العزيز حصل على قصيدة ابن عمار هذه بفضل تاجر يهودي من أهل المشرق عهدت اليه هذه المهمة لقاء جائزة مغرية ، فتسرب الى حاشية ابن عمار وحصل على ثقته وانخرط في سلك خواصه ، فسمع فيمن سمع هـذه القصيدة ، بل ويقولون إنه نجح في الحصول على نسخة منها بخط ابن عمار نفسه (١) .

ومهما كان شأن هذه الرواية التي قد تكون ضرباً من الحكايات النادرة والنكت المختلقة ، فان قصيدة ابن عمار هذه وصلت الى يدي المعتمد فأثارت حفيظته وألهبت غضبه وأضرمت حقده وقضت على آخر ما تبقى من ذكريات صداقته لوزيره القديم . وكان شأن اعتماد ، التي خصها ابن عمار في قصيدته بنصيب وافر من سبابه وشتمه ، شأن زوجها ، بل وربما كان حقدها أعمق اثراً وأقوى جذوراً ، فقد سبق أن ذكرنا علاقاتها السيئة بوزير زوجها المقرب اليه ، ويؤكد سوء هذه العلاقة ، تخصيص ابن عمار هذا الجهد في ابياته للنيل منها والغض من قدرها ومنشئها .

وقيل إن ابن عمار لم ينظم هذه الأبيات ، وانها إنما قيلت على لسانه

---

(١) الحلة السيراء ، ف ، ابن عمار .

لاثارة غضب المعتمد وإضرام نار الحقد في قلبه ، وذكر أن ابن عبد العزيز هو مدبر هذه المكيدة وملفق هذه التهمة (١) .

ولكننا نرجح أن ابن عمار قد قال هذه الابيات فعلا فهى تلتئم مع نفسيته وينسجم أسلوبها وافكارها مع أسلوبه وأفكاره . ثم إن المعتمد ذكر بصراحة ووضوح فى رسالة بعث بها لأحد معارفه من الحكام أن ابن عمار قد اسرف في الكلام القبيح والسباب الشائن لحد لا يمكن التغاضي عنه (٢) . ولا نعتقد أن هجاء ابن عمار لابن عباد كان يصل لهذه الدرجة من الخطورة لو لم يكن بهذا الشكل الذى رأيناه فى هذه القصيدة .

إذن فقد انقطع آخر خيط يصل بين ملك إشبيلية وحاكم مرسيه المتمرد . وأصبح المعتمد يتربص الدوائر بوزيره القديم وينتظر الفرصة السانحة للانتقام منه والبطش به ، ولم يعد في الامكان أن يغتفر هو ولا اعتماد واولادهما سباب ابن عمار وشتائمه .

ولكن شاعرنا الذى كان يعرف حق المعرفة حال ملوك الطوائف آنذاك ، لم يكن ليكترث كثيراً بغضبهم أورضاهم ، فانطوى على نفسه يتمتع بملكه الجديد ويعب كؤوس المتعة واللهو بكل وسائلها المتيسرة وسبلها المعروفة . وابن عمار ، كما عرفناه ، شديد التعلق بالخمر ، قوى الميل لمجالس الأنس وما فيها من لهو وطرب منعطف نحو اللذات الحسية لا تكاد تفوته منها واحدة ولعل احساسه بأنه بعيد عن متناول أيدى أعدائه شجعه على الانصراف الى لهوه

---

(١) الحلة السيراء ، ف ابن عمار

(٢) الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابو بكر بن القصيرة .

وعبثه وأنسه . فترك امور الادارة في أمارته لمساعده ابن رشيق الذى لم يتوان عن تقوية نفوذه ووضع أتباعه وأعوانه فى المراكز الحساسة والوظائف المهمة (١) .

وليس بين أيدينا مما أنتجه ابن عمار فى هذه الفترة غير القصائد التي مرت الاشارة اليها (١) ، وهي كما يبدو بوضوح غير ذات قيمة فنية كبيرة ، فليس فيها سوى طائفة من الافكار المضطربة حاول الأديب سردها قاصداً الافراط فى السب والاغراب في التحقير ، ولكن قيمتها التاريخية فى حياة الأديب ذات خطرين . إذ أنها كشفت عن ناحية مهمة من نفس ابن عمار ، ورسمت لنا صورة عن حاله مع أمراء الطوائف المسلمين وموقفه منهم .

ورب سائل يسأل ، كيف جاز لابن عمار وهو الذكي الأريب أن يخلق لنفسه الاعداء ويحيطها بهم ، دون أن يخشى على سلطته منهم ويحذر من تألبهم عليه . والجواب عن ذلك أنه ، بالاضافة الى ادراكه مدى قوتهم ، كان واثقاً بتأييد أمراء النصارى ولا سيما الفونس السادس ملك قشتالة ومناصرتهم له . وكان الفونس كما سبق أن ذكرنا هو المحرك الوحيد لميزان القوى - قبل تدخل المرابطين - في تلك البلاد التي تقطعت أوصالها وهدت النزاعات الداخلية والهجمات الخارجية قواها .

---

(١) الحلة السيراء ، ف ابن عمار ، مذكرات عبد الله بن زيري ، الاندلس ١٩٣٥ ص ٣٢٤ ، بنو عباد ، ج ٢ ، ص ١٠٢

(٢) ديوان ، قس ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ .

ابن عمار وطليطلة

في هذا الوقت الذى استقر فيه الأمر لابن عمار في مرسيه كانت مدينة طليطلة تجتاز أزمة عنيفة جداً ، هي تلك التي أودت بها وأخرجتها من حضيرة الاسلام ، فقد اندلعت في المدينة عام ٤٧٤ هـ (١٥٨٢م) ثورة صاخبة قام بها فريق من شيوخ المدينة ضد ملكها القادر بن ذى النون . وفى الوقت نفسه كانت جنود ألفونس السادس حليف القادر تحوط المدينة لتمنع أهلها من الخروج منها ولتنتظر فرصة مناسبة للانقضاض عليهـــا وانتزاعها من أيدى المسلمين . ودامت هذه الحال في طليطلة مدة سنتين دون أن تحل الأزمة ودون أن يستطيع الملك أو أهل المدينة الثائرون القبض على زمام الامور (١) . فليس من الغريب إذن أن نرى ابن عمار وهو رجل المؤامرات والدسائس يأبه للامر ويحشر أنفه فيه محاولاً استغلاله لمصلحته، بل العجيب أن لايحدث ذلك .

فما كادت حاله تستقر في مرسية حتى قرر حوالي ٤٧٥هـ (١٠٨٣) او فى اوائل ٤٧٦هـ (١٠٨٤) التدخل مباشرة في أمر طليطلة ، فتوجه اليهـــا تاركاً في مرسية مساعـــده ابن رشيق يدير الامور ويرتب شؤون المدينة . وفى طليطلة اتصل ابن عمار بأشراف المدينة وادعى أنه رسول من ملك قشتالة المسيحي ألفونس السادس واقترح عليهم مشروعاً أمل أن يحظي هو عند تنفيذه بحصة الأسد . ويقول عبد الله بن زيرى ملك غرناطة آنذاك فى

1 - Levi - proveual , Islam d' occident . p. 127-132

مذكراته ، وهو الوحيد الذى روى لنا هذه الحادثة (١) ، إن ابن عمار كان مرسلا من قبل الملك المسيحي وانه كان في خدمته . الا أن كره ملك غرناطة الشديد لابن عمار وتسلسل الحوادث كما سنرى وطبيعة المشروع الذى عرضه كلها تشير الى انه كان يعمل قبل كل شيء لحسابه الخاص وإن كان لم يغفل الفونس من هذا الحساب ، وربما كان واثقاً من رضاه وموافقته على اقتراحاته .

ويتلخص مشروع ابن عمار الذى قدمه لنبلاء طليطلة وأشرافها ، فى ان يطرد أهل طليطلة أميرهم القادر بن ذى النون ويحكموا أنفسهم مباشرة بواسطة مجلس من الأشراف على أن يؤدوا لألفونس السادس أتاوه سنوية معينة ، أسوة بما يفعله الامراء الاندلسيون الآخرون ليأمنوا شره ويحظو بحمايته . واعتقد فريق من الاشراف الطليطليون بصحة مهمة ابن عمار ووافقوه عليها واتخذوا الأهبة لتنفيذ مشروعهم ، الا أن القادر علم بالمؤامرة قبل تنفيذها فأحبطها ، ونكل بالمتآمرين ففروا ملتجئين الى الملك المسيحى . أما ابن عمار نفسه فتوجه نحو سرقسطة ، وهناك وردته الأنباء المريعة بثورة ابن رشيق مساعده وحليفه في مرسية وتمرده عليه واغتصابه حكم المدينة واستيلائه على ثروة ابن عمار الطائلة لنفسه وطرده لعائلة هذا الأخير من المدينة ، فأسقط فى يد ابن عمار ولم يجد وسيلة لاسترداد ملكه السليب . نظر حوله فلم يجد سوى أعداء يكيدون له ويتربصون به الدوائر ، بل ان

---

(٢) مذكرات الملك عبدالله بن زيري ، الاندلس ، ١٩٣٥ ، ج٣ ، ص ٣٢٤ .

ألفونس نفسه استقبل هذا الحدث ببرود تام، حتى ليقال إنه علق عليه بقوله، إن ابن عمار كالسارق الذى سرق منه ماسرقه (١). ويبدو أن ابن رشيق لم يهمل الفونس من حسابه حين قام بحركته فاسترضاه بما يكفل بقاءه محايداً على الاقل (٢).

ويذكر الملك عبد الله بن زيرى في مذكراته بعد ان يروى مغامرة ابن عمار فى طليطلة أن « ليس كل الناس علم بسر الامر كما نصفه » (٣).

ولعل في هذا تفسيراً لعدم ورود هذه الحادثة فيما رواه لنا المؤرخون من حياة ابن عمار والغموض الذى احاط بخروجه من مرسية.

ورغم أننا لا نستطيع تحديد غرض ابن عمار من مغامرته في طليطلة، ولا نعرف فيما اذا كانت لحساب ألفونس السادس كما يذكر ملك غرناطه أو كانت لحساب غيره، فإن مانعرفه عن نفسية ابن عمار وأغراضه يدفعنا الى التساؤل فيما اذا كان شاعرنا لم يجد في طليطلة وهى في أزمتها الخانقة فريسة سهلة المنال يرضى بها طموحه ويقنع مطامعه ؟!.. وعلى كل حال فقد كان حصيد ابن عمار من هذه المغامرة فشلا ذريعاً وضربات قاضية. فضلا عن فشل مؤامراته فإن غيابه عن مرسيه كلفه غالياً وفسح المجال لابن رشيق الطموح لكى يضرب ضربته بحذق وبراعة.

وكان ابن رشيق كما قدمنا قد أحكم تنظيم خطته فوضع أصدقاءه

(١) الحلة السيراء، ف ابن عمار. بنو عباد، ج٢، ص١٠٤

(٢) الحلة السيراء، ف ابن عمار. بنو عباد، ج٢، ص١٠٤

(٣) مذكرات الملك عبد الله بن زيري، الاندلس، ١٩٣٥. ج٢ ص. ٣٢٥.

واقرباءه في المراكز المهمة ، وولاهم إمرة القلاع الحصينة ، وجمع حوله الجند (١) ، ثم ولى وجهه شطر ألفونس السادس حليف ابن عمار الوحيد فأرضاه بالمال والهدايا كما ذكرنا ، حتى اذا تم له الأمر فى الداخل والخارج وجه ضربته الى رئيسه وأغلق أمامه ابواب المدينة .

ابن عمار في سرقسطة

لم يجد ابن عمار بعد أن يئس من الرجوع لمرسية من ملجأ يأوى اليه سوى سرقسطة في الشمال الشرقي من اسبانيا المسلمة حيث يحكم المؤتمن بن هود الذى يكاد يكون الوحيد من بين الأمراء الاندلسيين المسلمين الذى لاتزال علاقاته طيبة بابن عمار ، فاستقبله استقبالاً حسناً وخصص له منزلا يسكنه هو وأهله ومنحه رزقاً يساعده على العيش (٢) .

ولكن الاقامة لم تكن ممتعة فى سرقسطة بعد فقد المال والاصدقاء وزوال الملك والسلطان ، فأزمع السفر الى الاررة التابعة لأمارة سرقسطة ، حيث يقيم حاكماً فيها المظ.. بن هود . ولكن الاقامة هناك لم تكن اشد إمتاعاً له من إقامته في المد..ة الأولى فعاد بعد فترة وجيزة الى كنف المؤتمن يتحين الفرص للقيام بعمل ما يظهر فيه براعته ودهاءه ويرضى به حاجته الى الحركة والعمل .

ورغم حال ابن عمار السيئة والضربات العنيفه التي حاقت به ، فانه لم ييأس من

(١) الحلة السيراء ، ف ابن عمار . ، بنو عباد ، جـ٢ ، ص ١٠٢ .
(٢) الحلة السيراء ، ف ابن عمار . بنو عباد ، جـ٢ ، ص١٠٤ .

استعادة نفوذه وتحقيق مطامعه ولم يفقد ثقته بنفسه ، ولكن الفرص لم تكن كثيرة والظروف لم تكن مواتية .

وأخيراً سنحت فرصة نادرة لم يتوان ابن عمار عن انتهازها ، فقد تمرد أحد قواد الحصون المنيعة في أمارة سرقسطة على المؤتمن . وكان من معارف ابن عمار ، فاقترح هذا الاخير على الأمير أن يكفيه شره ويعيد الحصن الى الطاعة والخضوع . فنسح المؤتمن المجال لابن عمار لابداء دهائه وبراعته في هذا الامر ، فلم يطلب شاعرنا منه غير عدد قليل من الجنود سار على رأسها الى الجبل الوعر حيث يقوم الحصن المنيع .

كان ابن عمار يعرف عن صاحب الحصن الشيء الكثير ، يعرف أنه عنيد ، وأنه الحاكم الوحيد في الحصن وأن لا أحد غيره ينازعه القيادة و يجرأ على طلبها . واستناداً على معلوماته هذه وضع خطته . فما كاد يصل مع جنوده أمام الحصن حتى طلب مقابلة قائده للمفاوضة ، فوافق هذا الأخير اعتماداً على سابق المعرفة التي بينهما . على أن يذهب ابن عمار نفسه الى الحصن ، فوافق ابن عمار على ذلك وذهب مع اثنين من رجاله الأشداء . فارتقى حتى وصل الباب ففتحت له ودخل القلعة المنيعة . وكان قد أوصى رجليه بأن يهجما على قائد الحصن حالما يمسك هو بيده ، ويقتلاه . وحدث هذا ، اذ ما كاد يتقدم القائد لاستقبال ابن عمار صديقه القديم حتى هجم الرجلان عليه وأوسعاه طعناً فسقط مضرجاً بدمائه قبل أن ينتبه أتباعه من

المفاجأة فيتدخلوا لمنعها وايقافها . ولكن فات أوان التدخل ، فبهت الجميع ووقعوا حائرين ولم يجدوا بداً من طلب الأمان من ابن عمار لأنفسهم فمنحهم إياه ، وعاد الحصن خاضعاً للمؤتمن ، فسر بذلك واعجب بدهاء ابن عمار ومكره (١) .

وحسب ابن عمار أن محنته انتهت ، وأن ابواباً من الأمل تفتحت أمام عينيه . وكان المؤتمن نفسه يرجو منذ آوى ابن عمار ، أن يستطيع الاستفادة منه واستغلال مواهبه لتنفيذ اغراضه (٢) ، لذا ما كاد ابن عمار يقترح على المؤتمن ويتعهد له باخضاع قلعة شقورة العصماء بأسلوبه الخاص حتى وافقه الملك على ذلك وأرسله مع جيش صغير لتحقيق هذا الغرض .

وقلعة شقورة هذه القائمة على قمة جبل وعر بقيت مستقلة بعد أن استولى المقتدر بن هود على مملكة علي بن مجاهد العامري أمير دانية . وكان يحكمها أحد أبناء علي المسمى سراج الدولة ، ثم تولى ادارتها بعد موته بنو سهيل الذين كانوا يشرفون على تربية اولاده الصغار ، وكان بنو سهيل يرغبون في بيع القلعة الى أحد الأمراء المجاورين ، ولكن ابن عمار وعد المؤتمن بأنه سيحصل عليها بأيسر سبيل .

سار ابن عمار الى الحصن يقود كتيبة صغيرة من الجند ، وما كاد يصل الى القلعة الشامخة حتى طلب من بني سهيل أن يأذنوا له بمقابلتهم ، مصمماً كما يبدو على أن يستعمل الأسلوب نفسه الذي لجأ اليه في القلعة السابقة .

(١) الحلة السيراء ، ف ابن عمار . بنو عباد ، ج٢ ، ص١٠٥ .

(٢) مذكرات عبد الله بن زيري ، الأندلس ١٩٣٥ ، ص٣٢٦ .

ولكن حدث في هذه المرة مالم يكن يتوقعه الشاعر المغامر . إذ ما كاد يصل باب الحصن مع تابعيه ويسحب هو أولا لمدخله المرتفعة حتى ألقى جنود القلعة القبض عليه وأنذروا صاحبيه اللذين فرا هاربين ليعودا بجنود سرقسطة من حيث أتوا بعد أن يئسوا من انقاذه . أما هو فسيق مقيداً الى بني سهيل الذين كانوا يحقدون عليه لابيات هجاهم بها قبل ذلك بوقت قصير ، فألقوا به فى السجن ووجدوا فيه غنيمة باردة قد تدر عليهم الربح الوفير (١).

ابن عمار في سجن شقورة

لقد حدث القبض على ابن عمار فى شقورة في ربيع الاول من عام ٤٧٧ﻫ (آب ١٠٨٤م) . ولهذا التأريخ أهمية خاصة إذ أنه يحدد نهاية النشاط السياسي لابن عمار ، ولكنه فى الوقت نفسه يشير الى ابتداء فترة أدبية خصبة فى حياته رغم قصرها . فلم يكن لابن عمار اثناء إقامته بسرقسطة وشمال شرقى الاندلس نشاط أدبي يستحق الذكر - اذا استندنا الى ما وصلنا من إنتاجه في هذه الفترة ، فكل ما انتجه مقطوعات صغيرة لاتثير الاهتمام ولا تسترعي الانتباه [٢] . وقد اعتدنا ان نرى الخوف والقلق

(١) الحلة السيراء ، ف ابن عمار ، بنو عباد ، ج . ، ص ٨ . .

1 - Mus EsP . T. 3, p. 114 .

(٢) الديوان ، قس .

والهلع من الموت تثير في الشاعر أعنف المشاعر واعمق الأحاسيس ، وتدفعه الى الانتاج الأدبي القيم ، فلا عجب إذن إن رأينا قريحة ابن عمار تتفجر في هذه الفترة بعد نضوب ، ولا غرابة في أن نراه يلوذ بالشعر مرة أخرى حين ضاقت به السبل وأعيته الحيل ، مستثيراً عطف وشفقة آسرية ، ونادبا حظه العاثر ومصيره التعس .

واهم مالدينا من انتاج ابن عمار في سجن شقورة رائية (١) جميلة كتبها الى صديقه القديم الفضل بن حسداي يصف له فيها حالته البائسة الشقية وافتقاد الصحب والاصدقاء :

أدرك اخاك ولو بقافية
كالطل يوقظ نائم الزهر
فلقد تقاذفت الركاب به
في غير موماة ولا بحر
طمحت صحابته بلا سنة
وتساقطوا سكرى بلا خمر

ثم ينتقل الى وصف قلعة شقورة المنيعة وصفا به كثير من الروعة والابداع وقوة التأثير :

بمارج أدت الى جرد
حتى من الأنواء والقطر

---

(١) ديوان ، قص ٦٧ .

طال كأن الجن إذ مردت
جعلته مرقاة الى القمر

وحش تناكرت الوجوه به
حتى استربت بصفحت البدر

قصـر تمهد بين خافقتي
نسرين من فلك ومن وكر

متحير سـال الوقار على
عطفيه من كبر ومن كبر

ملكت عنان الريح راحته
فجيادها من تحته تجرى

ويستمر في قصيدته منتقلا بعد ذلك الى التوسل الى صديقه بأن لا يقطع بينهما الأسباب ، ففي الكتابة اليه عزاء عما لقيه من عنت الدهر .

وأهم ما نلاحظه في هذه القصيدة هو أن شاعرية ابن عمار تتفتح بعد أن منعتها مشاغل السياسة والادارة من الظهور والتدفق ، فيبدو لنا خياله الخصب وعواطفه الزاخرة ومقدرته على التعبير، كل ذلك باسلوب متين رائع .

حاول بنو سهيل بعد أن القوا ابن عمار في الاغلال والقيود ان ينتفعوا منه . وكانوا يعلمون حق العلم أن كثيراً من ملوك الاندلس وامرائها يدفعون ثمناً غالياً للحصول عليه والانتقام منه ، فعرضوه للبيع وقرروا

تسليمه لمن يدفع الثمن الأكبر . وحاول هو ان يستجير بمن تبقى له من الاصدقاء (١) ،فلم يحظ بغير الاعراض وعدم الاكتراث ، وقال هو واصفاً هذا الحال :

أصبحت في السوق ينادى على
رأسي بأنواع من المال

فهل فتى يبتاعني ماجد
أخدمه مدة إمهالي

والله ماجار على نقده
من ضمني بالثمن الغالي

فلم يكن بين امراء الاندلس من يرغب فى منافسة المعتمد بن عباد في هذا المضمار ، كما لم يكن فى أخلاق ابن عمار وماضيه مايشجعهم على اصطناعه والاستفادة من خدماته وأدرك هو هذه الحقيقة بعد أن فشل في استنجاد الاصدقاء ، وعرف أن المعتمد سيطلبه وأنه سوف لايكون رحيماً به . فاستبق الحوادث وكتب اليه يستجير به ويرجو منه شراءه واطلاق سراحه (٢) . ولكن المعتمد لم يكن في حاجة لهذا الطلب ، فما كاد يعلم بوجود ابن عمار فى شقورة حتى ارسل ابنه الراضي الى بني سهيل ، فقاده اليه فى حال مزريه مكبلا بالاعلال ، بل واشترى القلامة نفسها منهم ، ولم تجد الابيات التي نظمها في مدح الراضي (٣) عند قدرمه شيئاً في استثارة عطفه ورحمته .

(١) ديوان ، قص ٦٩ .
(٢) ديوان ، قص ٧٠ .
(٣) ديوان ، قص ٧١ .

ابن عمار في سجن المعتمد

وصل ابن عمار قرطبة حاسر الرأس تثقله القيود ، وقد وضع على بغل بين عدلي تبن ، وقدم الناس من كل انحاء قرطبة ليشاهدوا ذلك الذي خرج قبل سنوات قليلة في موكب حافل كمواكب الملوك قائداً الجيش الاشبيلي لاحتلال مرسية ، وهو يعود الآن ذليلا مهانا يسخر منه الناس وترجمه العامة ، بل يقال إن جواري المعتمد أنفسهن اللائي سبق أن مسهن بهجائه خرجن ليسخرن منه ويضحكن لمرآه على هذه الحال (١).

واقتيد الى المعتمد فوبخه وأنبه وذكر له افضاله وعدد مآثره ثم سرد خيانات ابن عمار ، بل ويقال إنه اخرج اليه قصيدته الهجائية (اللامية) مكتوبة بخط يده ويصف عبدالواحد المراكشي - صاحب المعجب - دخوله القرطبة فيقول : « فدخلها (اى قرطبة) ابن عمار أشنع دخول وأسوأه ، على بغل بين عدلي تبن ، وقيود ظاهرة للناس ، وكان المعتمد أمر باخراج الناس خاصة وعامة حتى ينظروا اليه على تلك الحال ؛ وقد كان قبل اذا دخل قرطبة اهتزت له ، وخرج اليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤساؤهم ، فالسعيد منهم من يصل الى تقبيل يده او يرد عليه ابن عمار السلام ، وغيرهم لا يصل الى تقبيل ركابه او طرف ثوبه . ومنهم من ينظر اليه على بعد لا يستطيع الوصول اليه . فسبحان محيل الاحوال ومديل الدول » ويستمر عبد الواحد المراكشي قائلا :

(١) بنو عباد ، ج٣ ، ص ١٠٨ . 1 • Mus , EsP , T,3, p.115 .

« فدخل ابن عمار قرطبة كما ذكرنا ، بعد العزة القعساء والملك الشامخ والرياسة الفارعة ، ذليلا خائفاً فقيراً لا يملك الا ثوبه الذي عليه ، فسبحان من سلبه ما وهبه ومنعه ما كان به أمتعه » ويذكر المؤرخ في هذا الباب حادثة حدثت لابن عمار رواها بعض الموكلين به والتي تدل على فطنته وذكائه كما يقول المؤرخ « قال : لما قربنا من قرطبة بحيث يرانا الناس ، خرج فارس من البلد يركض يقصدنا ، فلما رآه ابن عمار وكان معتماً ـ أزال العمامة عن رأسه ، فجاء الفارس حتى وصل الينا ، فنظر الى ابن عمار ودخل معنا في الصف فمشى ؛ فسألناه فيم جاء ؟ فقال : الذي جئت فيه صنعه هذا الرجل قبل أن أصل اليه ، فعلمنا أنه ارسل ليزيل عمامته ».

ثم يتحدث المراكشي عن لقاء ابن عمار بالمعتمد فيقول : « فأدخل على المعتمد على الله على الحالة التي ذكرت ، يرسف في قيوده ، فجعل المعتمد يعدد عليه أياديه ونعمه ، وابن عمار في ذلك مطرق لا ينبس ؛ الى أن انقضى كلام المعتمد ، فكان من جواب ابن عمار أن قال : ما أنكر شيئاً مما يذكره مولانا ـ أبقاه الله ـ ولو أنكرته لشهدت به على الجمادات فضلا عمن ينطق ، ولكن عثرت فأقل ، وزللت فاصفح . فقال : هيهات ، إنها عثرة لا تقال . وأمر به فأحدر في النهر الى إشبيلية ، فدخل به إشبيلية على الحال التي دخل عليها قرطبة . وجعل في غرفة علي باب قصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك ، ـ وهو باق الى وقتنا هذا (اي الي وقت المؤرخ في القرن السابع) ـ فطال سجنه

هناك »(١). وقد فتح أمامه امتداد مدة سجنه باب الأمل، لاسيما وأنه علم أن بعض الشخصيات الكبيرة تحاول التأثير على المعتمد للعفو عنه، منهم الرشيد بن المعتمد (٢). ويذكر ابن بسام ان ابن مجقور حاكم شاطبة كتب رسالة للمعتمد يرجوه فيها العفو عن ابن عمار، ولكن المعتمد رفض هذا الطلب فى رساله كتبها ابو الوليد بن طريف كاتبه على لسانه وهذه الرسالة تستحق منا وقفة قصيرة لأهميتها واحتوائها على رأى المعتمد بوزيره السابق.

التهم الموجهة لابن عمار

تتضمن هذه الرساله نص الاتهام الذى وجهه ملك اشبيلية لابن عمار والذى كان في نظره لايحتمل أية شفقه اورحمه، لذا رأيت أن أنقلها هنا كما كتبت عن المعتمد لأنها أعن وثيقه تاريخيه. بين يدينا حول الموضوع:
قال الكاتب عن لسان المعتمد:

« وقفت على وجوه السلامة المقتام فيها الى شـرف محتدك وصفاء معتقدك أكرم استتمامه في الشفاعه فيمن أساء لنفسه حظ الاختيار، وسبب لها النكبه والعثار بغمطه لعظيم النعمة، وقطعه لعلائق العصمة، وتخبطه فى سنن غيه واستهوانه وتجاوزه في ارتكاب الجرائم، واسرافه حتى لم يدع للصلح موضعا، وخرق ستر الابقاء بينه وبين مولى النعمه عنده، فلم يترك فيه موقعا. وقد كان قبل استشراء رأيه وكشفه لصفحة المعاندة وابدائه

(١) المعجب، ص١٢٤، ص١٢٥.
(٢) الذخيرة ق٢، ف ابن عمار.

عذره في جميع جناياته مقبول ، وجانب الصفح له معرض مبذول ، لكن غيرته الغواية عن طريق الهداية ، فاستمر على ضلاله ، وزاغ عن سنن اعتداله ، وأظهر المناقضه ، وتعرض بزعمه الى المساورة والمعارضه ، فلم يزل يريغ الغوائل وينصب الحبائل ، ويركب في العناد اصعب المراكب ، ويذهب منه في أوعر المذاهب ، حتى علقته تلك الاشراك التي نصبها ، وتشبثت به مساوىء المقدمات التي جرها وسببها ، فذاق وبال فعله ، ولا يحيق المكر السيء الا بأهله . ولم يحصل في الانشوطة التي تورطها ، والمنحسة التي اشتملت عليه وتوسطها ، إلا ووجه العفو قد أظلم وباب الشفاعة فيه قد أبهم . ومن تأمل أفعاله الذميمة ومذاهبه اللئيمة ، رأى عنه الصفح بعيداً ، والابقاء عليه داء حاضراً . ومثلك برجاحة ميزانه ومعرفته بابناء زمانه لم يجهل بدء حاله من القل والضعة ، وارتقاءه الى الرفعة والسعة ، وانتقاله من ذل الخمول الى العز العريض الطويل ، وتدوله عقائل الأموال وجلائل الاحوال »

وفي فصل منها :

« فغوق لمناضلة الدولة نباله ، وأعمل في مكايدتها جهده واحتياله . ولم يقتصر على ذلك ، بل تجاوز الى إطلاق لسانه بالذم الذي صدر عن لؤم نجاره ، والطعن الشاهد بخبث طويته واضماره . ومن جهل مقدار تلك التي كان سوغها أولا ، أخلق به أن لا يغيره مقدار العفو عنه آخراً . ومن بعد هذا الفساد كيف يرجى استصلاحه ، ومن استبطن مثل علته كيف يؤمل فلاحه ، ومن لك بسلامة الأديم النغل وصفاء القلب الدغل . وعلى ذلك فلا

أعتقد عليك فيما عرضت به من وجه الشفاعة غير الجميل ولا أبدى فيه حسن التأويل . ولو وفدت شفاعتك في غير هذا الأمر الذي سبق فيه السيف العذل، وأبطل عامل الأقدار فيه الألطاف والحيل ، لتلقيت بالاجمال ، وقوبلت ببالغ المبرة والاحتفال . . » (١) .

أعتقد ان هذه الرسالة تغنينا عن كل شرح وتعليق وتثبت ما سبق أن قلناه عن مواقف ابن عمار من ملكه وتدل على مدى خطورة التهم الموجه اليه وتصميم المعتمد على عدم التغاضي عن اخطاء وزيره القديم .

نشاط ابن عمار الادبي في سجن اشبيلية

لم ينقطع ابن عمار طيلة مقامه فى السجن عن إرسال قصائد التوسل والاستعطاف الى المعتمد وأبنائه ومن يلمس منه المساعدة والتأييد ، لدينا منها ثلاث قصائد تستحق كل عناية واهتمام لما فيها من شعور عميق وإحساس فياض ، أوجدتها حال ابن عمار اليائسة وخوفه من الموت .

اما أولى هذه القصائد فهي دالية بعث بها الشاعر الى الرشيد بن المعتمد يذيل اليه توسلاته ومشاعره الثائرة ، وهي قصيدة فياضة بالعواطف والشعور . يمتزج فيها الخوف بالامل والجزع بالاستعطاف ، يبدو فيها اسلوب ابن عمار الشعرى الاندلسي بأجلى وجوهه . فمدا الرقة البادية فى كل بيت من ابيات القصيدة نرى بوضوح أثر الطبيعة التي غذت خيال الشاعر ، فاستوحى منها

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابو بكر بن القصيرة .

صوراً نقل بها كل ما يعتلج فى نفسه من مشاعر وأحاسيس ؛ ثم نجد بعد ذلك فى هذه القصيدة نفسية ابن عمار واخلاقه وهو في هذا الموقف الرهيب ، نجده يستخدم السلاح الوحيد الذي يمتلكه في تلك اللحظة الحرجة الى أقصى مايستطيع من الاستعمال فتأتى قصيدته نابضة بالحياة والعواطف ، واذا احس القارىء ببعض الاضطراب فى افكار القصيدة وتسلسل أبياتها العاطفي فما ذلك إلا لأن الشاعر كان مضطرباً أشد الاضطراب فاختلطت احساساته وتصادمت مشاعره ، فهو يفتتح قصيدته بهذه الصورة الصاخبة صخب شعور الشاعر والمنيفة عنف دقات قلبه (١) .

قل لبرق الغمام ظاهر بريدى
قاصداً بالسلام قصر الرشيد

فتقلب فى جوه كفؤادى
وتناثر في صحته كالفريد

وانتحب في صلاصل الرعد تحكي
ضجتي في سلاسلي وقيودى

فاذا ما اجتلاك او قال ماذا
قلف إني رسول بعض العبيد

بعض من أبعدته عنك الليالي
فاجتني طاعة المحب البعيـــد

ثم ينتقل لمدحه ويتوسل اليه ويستعطفه مستذكراً ايام الصفاء ومقارناً

(١) ديوان ، قص ٧٢ .

لما بما هو فيه من عنت وتعاسة :

كنت أشد وعليك يادوحة المجـ (م)
ـد ويا روضة الندى والجود

إذ جناحي نـــد بظلك طلق
ولساني رطب على التغريد

وأنا اليوم تحت ظل عقاب
لقوة محوة الجناح صيود

أتقيهـــا بناظر خافق اللحـ (م)
ـظ مروع وخاطر مزؤود

غير أني سأصطفى لك جهدى
من ثناء طيب وذكر حميد

في قليل من القوافي كثير
وذلول من المعاني شرود

كلمات كأنها الدر نظماً
طوقت منك أى طوق وجيد

ثم يمدحه بكل ما يمكن أن يمدح به ملك ، فأبوه الشمس وهو بدر النجوم ، وريحانة العلى ودرة التاج وفرند الحسام ووسطى الفريد ونكته الخطبة وقصد الحديث وبيت القصيد ، وعين اللواء في الحرب وقلب الحديد ، وهو

فى الميل ليلة القدر وفى النهار يوم العيد . ثم يذكر محله من ابيه المعتمد ومنزلته الكبيرة لديه ويتوسل إليه في أن يشفع له عنده وهل غيره أولى بهذه الشفاعة :

والى أين في الشفيع إذا ما
لم ألذ منك عنده بالرشيد

بفتى نازح المكان مطل
غائب الشخص ذى اعتناء عتيد

مشفق يستجيب لي من قريب
وأنا أستغيثه من بعيد

لوأطلت علي رحمة عينيه
انجلت شدتى وذاب حديدى

والقصيدة كما نرى تحتوى على مجموع من التعابير الأدبية البارعة تلفت النظر وتجلب الاهتمام ، تدل على دقة الحس وقوة الادراك .

وعدا هذه القصيدة التي أرسلها ابن عمار للرشيد بن المعتمد ، فلدينا قصيدة أخرى كتب بها الى الفتح بن المعتمد الملقب بالمأمون (١) يتوسل فيها اليه أن يشفع له لدى والده وينقذه مماهو فيه من العذاب ، يفتتحها بتساؤل بارع يوجهه لنفسه :

هلا سألت شفاعة المأمون ؟!
أو قلت ما فى نفسه يكفيني ؟!

---

(١) ديوان ص ٧٣ .

ما ضـــر لو نبهته بتحية
يسرى النسيم بها على دارين

وهزرت منه فقد يقلب سيفه
يوم الجلاد الحين بعد الحين ؟!

ثم يمزج التوسل بالرجاء والمدح كما فعل في قصيدته السابقة ويتفنن في ذلك أيما تفنن ، فيصفه تارة بالتقى وآنا بالمهابة وطوراً بالتواضع وباشياء اخرى لا نكاد نحد :

متوقد الجنبات كل دوحه
يجنى ونجر صفحه بعيون

دانت لأيدى المجتنين قطوفه
ودنا اليهم من ظلال غصون

ونأى لأبصار العصاة فانما
يتوهمون نعيمه بظنون

ويتخلل المدح وصف لحالته المؤلمة وحظه العاثر مقارناً بين ماضيه وحاضره

كم أسكب العذب الفرات على فمي
يرمي يدى باللؤلؤ المكنون

واليوم قد أصبحت في غمراته
إن لم تغثنى رحمة تنجينى

بمدت سواحله على وأدركت
أمواجه فتلاعبت بسفينتي

لاشك في أن غريق تبابه
إن لم يمد الفتح لي بيمين

وأنهى قصيدته بالتوسل الى الفتح المأمون في أن لا يأل جهداً لدى أبيه لانقاذه من سجنه وانتشاله من وهدته ، وهذه القصيدة كسابقتها تستحق الاهتمام وتلفت النظر بتعابيرها البارعة وما يزدحم في جوانبها من مشاعر وأحاسيس .

* * *

ويقال إن المعتمد ضجر من رسائل ابن عمار وتوسلاته فأمر أن لاتعطى له وسائل الكتابة ، فتوسل ابن عمار اليه في أن يسمح له للمرة الأخيرة بورقتين فأعطاهما اليه . فكتب على احداهما قصيدة استعطاف طويلة أرسلها الى الملك ، فوصلت اليه مساء وهو في مجلس مع خاصته : فقرأها ، ويقال إنه أحس بالعطف والشفقة على صديقه القديم فأرسل اليه بعد انفضاض مجلسه ووبخه وعنفه ، فاعتذر ابن عمار وتوسل الى الملك بدموعه آناً وباعتذاراته آناً آخر وباثارته للذكريات السابقة مرة ثالثة حتى ليقال إن المعتمد أجابه بما فهم منه ابن عمار تشجيعاً ووعداً بالخلاص (١) .

وقصيدة ابن عمار هذه التي أرسلها للملك ، حائية حصلت على إعجاب مؤرخي

1 - Mus. Esp. T.3, p.50 بنو عباد ، ج٢ ، ص ١٨ .

الادب فأطنبوا فى مدحها والاشادة بها . ولا شك انها ن أحسن ما أنتجه الشاعر، ففيها نحس الاخلاص والعواطف الحارة، فيها يمتزج الخوف بالأمل واليأس بالرجاء . هاجم فيها اعداءه وحاول أن يبعث في نفس الملك عواطف الرحمة والشفقة ، وأن يثير فى خاطره ذكريات الماضي والأعمال والخدمات الجليلة التى قدمها لمملكته افتتحها بقوله (١) :

سجاياك إن عافيت أندى وأسمح
وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح

وإن كان بين الخطتين مزية
فانت الى الأدنى من الله أجنح

ويتوسل اليه ذاكراً أعداءه وحساده ، ومشيراً الى ما قدمه للملك من خدمة في الماضي :

حنانيك في أخذى برأيك لاتطع
عداتى وإن أثنوا على وأفصحوا

وماذا عسى الأعداء أن يتزيدوا
سوى أن ذنبي واضح متصحح

نعم لي ذنب غير أن لحلمه
صفات يزل الذنب عنها فيسفح

---

(١) ديوان ، ص ٥٧٦

وإن رجائي أن عندك غـــيرما
يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح

ولم لا وقد أسلفت وداً وخدمة
يكران في ليل الخطايا فيصبح

وهبني وقد أعقبت أعمال مفسد
أما تفســد الأعمال ثمة تصلح

أقلني بما بيني وبينك من رضى
له نحو روح الله باب مفتح

وعف على آثار جرم جنيته
بهبة رحمى منه تمحو وتصفح

ويتحدث عن أعدائه ويصف شماتتهم بتأثر ومرارة :

تخيلتهـــم لادر لله درهم
أشاروا الجاهي بالشمات وصرحوا

وقالوا سيجزيه فلان بفعله
فقلت وقد يعفو فلان ويصفح

وهكذا يتوسل ويرجو ويهاجم ويدافع في آن واحد الى أن ينهي قصيدته مسلماً أمره للملك ليفعل به ما يشاء :

سلام عليه كيف دار به الهوى
الى فيدنو او على فينزح

ويهنيه إن مت السلو فنني
أموت ولي شوق إنيه مبرح

والقصيدة كما نرى متينة رائعة فيها ما يتطلبه الفن من فيض العواطف وتدفق الشعور وقوة التعبير . وهي كما تتفق اقوال الرواة ، آخر ما نظمه ابن عمار من الشعر ، وكان لها كما رأينا في نفس المعتمد تأثير غير قليل .

عاد ابن عمار الى سجنه كما يقولون بعد مقابلته للملك ونفسه ممتلئة بالرجاء والأمل بالخلاص ، ولم يستطع أن يكتم شعوره فكتب في الورقة الثانية التي كانت لديه رسالة الى الرشيد بن المعتمد يعلمه فيها بقرب عفو الملك عنه ونجاته من محنته . فوصلت الرسالة الى الأمير الرشيد وهو بصحبة وزيره عيسى بن ابي الحجاج .

فاطلع هذا الاخير على فحواها ، وسواء أكان ذلك بقصد أو بدون قصد ، فان عيسى أذاع الخبر حتى وصل الى آذان أبي بكر بن زيدون الوزير الاول للمعتمد وعدو ابن عمار اللدود (١) . وقد سبق أن تحدثنا عن عداوة هذين الوزيرين وبينا بعض أسبابها ، الا أنه يبدو أن هناك اسباباً خطيرة ، قد تكون اهم مما ذكرنا والتي دعت احد المؤرخين الى أن يشير اليها دون ذكرها قائلا إنه لايريد ان يلوث كتابه بذكرها (٢) .

ويقولون إن ابا بكر بن زيدون كان في أشد القلق ، إذ أن العفو عن

(١) بنو عباد ، ج٢ ، ١١٨ ،

1 - Mus Esp. T. 3, p. 116.
2 - Mus. Esp. T. 3. p. 116 .

ابن عمار يعني انحدار نجمه نحو الأفول ، بل وربما أكثر من ذلك ، حتى اذا كان صباح اليوم التالي لم ينطلق الى قصر الملك كما كان شأنه كل يوم ، فأرسل اليه المعتمد من يبحث عنه ويدعوه للمجيء ، حتى اذا دخل على الملك استقبله بترحاب طمأنه واعاد الى نفسه بعض السكينة . وعندما سأل المعتمد وزيره عن سبب تأخره ، أجابه بأن الجميع يتحدثون عن العفو عن ابن عمار وعودته الى حظوته السابقة لدى الملك ، حتى ان صديقه ابن سلام الشلبي هيأ قصراً من قصوره ليسكنه ابن عمار بعد خروجه ريثما تعاد اليه املاكه .

فأخذ الغضب من المعتمد كل مأخذ لانتشار هذه الانباء الفاجعة على اساس واه ، وحنق على ابن عمار ، وارسل اليه احد عبيده يسأله كيف تيسر له نشر هذه الأخبار ، فأنكر ابن عمار اولا أنه فعل ذلك ، فلما سئل عما فعله بالورقة الثانية التي بقيت لديه ، ادعى انه استعملها مسودة لقصيدته ، وعندما طلبت منه اضطر الى الاعتراف بأنه كتب للرشيد عما قال له الملك .

مصرع ابن عمار

ويقولون إن المعتمد لم يستطع تمالك نفسه وضبط أعصابه فثارت ثائرته وتناول فأساً كانت قد قدمت هدية له من ألفونس السادس وانطلق الى سجن ابن عمار . وما كاد ابن عمار يرى الملك والشرر يتطاير من عينيه

حتى سحب قيوده وألقى بنفسه على قدميه يخضلهما بدموعه ويمسحها بقبلاته ولكن المعتمد لم يأبه لهذه التوسلات والدموع ، بل رفع الفأس التي في يده وانهال بها على وزيره وصديقه القديم حتى فارق الحياة (١) .

دفنت جثة ابن عمار قرب قصر المبارك في محل يعرف بباب النخيل، حيث اكتشفت عظامه بعد عشرين سنة من ذلك كما يقول الفتح بن خاقان والأغلال لا تزال محيطة بها (٢) .

وهكذا كانت نهاية ابن عمار المغامر الجرىء ذى الأصل المغمور والعائلة الفقيرة البائسة ، ابن عمار الطموح الاريب والسياسى البارع ، وأخيراً ابن الشاعر المشهور الذى اعتبره مؤرخو الأدب فى عصره من خيرة الشعراء الذين قدمتهم اسبانية الاسلامية للأدب العربى . ولم يجسر أحد على البكاء علناً عليه غير صديقه الشاعر عبدالجليل بن وهبون الذى رثاه ببيت واحد :

عجباً له أبكيه ملء مدامعي
وأقول لا شلت يمين القاتل

أحكام المؤرخين المسلمين على ابن عمار

لقد كانت أحكام مؤرخي الاندلس المسلمين على ابن عمار على وجه العموم قاسية ، فجلهم وصمه بالخيانة والغدر واتهمه بخدمة النصارى والتمرغ

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابن عمار . بنو عباد ج ٢ ، ص ١١٩ .

1 - Mus. Esp. T. 3. p, 117 .

(٢) قلائد العقيان ، ص ٨٦ . الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابن عمار .

على أعتاب الفونس فقد أشـــرنا إلى أن ابن خاقان قال عنه « إنه اصطفاه العدو فاتزق به السكون والهدو ، ونهاك فيه كلاماً وهياماً وأمطر من الحظوة غماما »(١) ثم يقول متحدثاً عن نهايته «فأخذه الله بغدره ، وأعان على ونده رافع قدره (٢) » . وقد ردد ابن سعيد في المغرب (٣) ما قاله ابن خاقان ، وسبق أن سمعنا رأى عبد الله بن زيرى ملك غرناطة فيه ، ويردد ابن بسام كثيراً وصف ابن عمار بان « حب الرياسة في راسه يدور » بل وانه « قد تجاوز في طمعه بالرياسة طمع أشعب » (٤) ، ومثل هذه الآراء تفهم من حديث ابن الأبار عنه (٥) ، ولم نر مؤرخاً دافع عنه ولام المعتمد على قتله سوى لسان الدين بن الخطيب في كتابه اعمال الاعلام .

ورغم هذا السخط الذى أبداه المؤرخون على ابن عمار نراهم جميعاً يعتبرونه شاعراً قديراً بل يعدونه في الطبقة الأولى من الشعراء الأندلسيين . لقد كان إنتاجه الادبي ينسجم تماماً مع ذوق الفترة التي عاش فيها والقرون التي تلتها ، فقد جمع كل ما كان معاصروه يتطلبونه من الشاعر فقد قال عنه صاحب المعجب « ولم الف احداً ممن ادركته سني من أهل الآداب ممن أخذت عنهم ، إلا رأيته متقدماً له ، مؤثراً لشعره (٦) » ، وقال عنه صاحب القلائد

(١) قلائد ص٨٦ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) ابن سعيد ، المغرب ص٣٨٩ .
(٤) الذخيرة ق٢ ، ف ابن عمار .
(٥) الحلة السيراء ، ف ، ابن عمار .
(٦) المعجب ، ص١١١ .

إنه « كان مع نقض ابرامه ورفض إمامه شاعراً مطبوعاً ، قد عمر للاحسان منازل وربوعا (١) » وقال عنه مؤلف كتاب الذخيرة « إن شعره غرب وشرق ، واشأم في نغم الحداة وعلى ألسنة الرواة وأعرق ، ولا جرم بأنه كان ساحراً لا يجارى وشاعراً لا يبارى (٢) » .

فاذا اعتبرنا الظروف التي أحاطت بالشاعر والوسط الذى عاش فيه والذى أوحى له افكاره وعلمه اسلوبه في التعبير : هذه الظروف وهذا الوسط الذى كون في الوقت نفسه ذوق أهل العصر وأوجد مقاييسهم الأدبية ، اقول اذا أدركنا كل ذلك ، استطعنا أن نعرف سبب الحظوة التي نالها ابن عمار الشاعر لدى معاصريه .

القيمة الادبية لشعر ابن عمار

لاشك في أن حكمنا على القيمة الأدبية لشعر ابن عمار فيه كثير من الذاتيه ، لأن ادراكنا او عدم ادراكنا للصور الفنية التي يعرضها في شعره يعتمدان كثيراً على إدراكنا للتيارات العاطفية والفكرية التي تمثلت في هذه الصور ولا شك في ان الشاعر نفسه يأخذ بيدنا بقوة تعبيره لمعرفة هذه التيارات ، ولكن بعدنا عن الشاعر وعن الاجواء المحيطة به قد يحدد ادراكنا للسبيل الذي سارت فيه عواطف الشاعر وافكاره فتخفى علينا جوانب من أدبه تؤثر في حكمنا عليه كل التأثير .

(١) قلائد العقيان ، ص ٨٦ .

(٢) الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابن عمار .

وعلى ذلك فان حكمنا على ابن عمار الشاعر يجب ان تتوفر فيه أمور مهمة ، أولها أن نعرف العصر وذوقه ومقياس تقديره للقيمة الأدبية ، فان هذا الذوق يؤثر أكبر التأثير فى توجيه الشاعر وفي خلق مقاييسه الأدبية . وثانيها ، أن نعرف التيارات الخاصة التي اجتاحت حياة الشاعر نفسه ومدى تأثيرها فى إنتاجه الأدبي . وثالثها ، أن تكون لدينا كمية كافية من شعره تسمح لنا بتقدير قيمته . ورابعها أن نقدر مقدرة الشاعر على التعبير وقوته في صناعة النظم وصياغة الالفاظ في قوالب شعرية .

أما ذوق العصر فقد سبق أن أشرنا اليه إشارات كثيرة ، وذوق العصر هو الذى دفع ابن عمار الى معالجة الموضوعات التي عالجها ، كما دفعه الى العناية بالزخرفة اللفظية والمحسنات البيانية والبـــديعية : كما أنه زوده بالأفكار والمقاييس الخلقية والاجتماعية والادبية التى تبدو واضحة فى جميع ثنـــايا شعره .

أما التيارات الخاصة التى أثرت فى حياة ابن عمار وفي تفكيره ومشاعره فقد حاولنا عرضها فى هذه الدراسة وبينا مدى تأثيرهـــا فى الشاعر ورأينا كيف أنها دفعته احيانا الى الابداع واحيانا الى التكلف والتصنع والهبوط .

أما شعر الشاعر فلا شك ، أن مابين أيدينا منه ، كما يتضح من هـــذه الدراسة نفسها ، ليس الا جزء يسيراً من مجموع شعره . فهناك فترات طويلة من حياته لانعثر له فيها من الانتاج إلا على ابيات قليلة . ويبدو أن مؤرخي الأدب عنوا قبل كل شيء باختيار القطع التى كان لها صلة بالسلطان او

بالاحوال التأريخية السائدة آنذاك . وقد حاولنا لكي نسد هذا الفراغ أن نجمع كل ما وصل الينا من شعره ، في القسم الثاني من هذا الكتاب ، ولكننا لا نشك في أننا بعيدون جداً عن معرفته كله بل حتى ولا القسم الاكبر منه .

ورب قائل يقول إن هذه المقطوعات الشعرية لا بد ان تكون أحسن ما قاله الشاعر لأنها اختيرت من قبل مؤرخي الادب . ولكن من يضمن أننا نتفق وإياهم في الذوق الأدبي ، لا سيما وأن المؤرخين الذين نقلوا الينا هذا الشعر عاشوا في فترات نستطيع أن نقول ، إن الذوق الادبي تدهور فيها واتجه الى العناية بالشكل دون المضمون الأدبي ، وإنهم كانوا يعنون على وجه الخصوص بالأدب الذي يخص الملوك ويتصل بهم من قريب ؟!

ومع هذه الصعوبات التي تعترضنا في الحكم على الشاعر فاننا نستطيع أن نثبت بعض الاحكام على قيمة ابن عمار الأدبية ، أهمها :

١ - كان ابن عمار متمكناً من صياغة القصيد وصناعة النظم ، قادراً على التعبير عن افكاره ومشاعره في أبيات متماسكة وقافية متينة واسلوب يجمع بين الشكل العربي والرقة الأندلسية .

٢ - كان متأثراً كل التأثير بذوق العصر الذي عاش فيه كما بينا سالفاً .

٣ - لم يكن ابن عمار يستخدم مقدرته على الصياغة الشعرية والنظم للتعبير عن مشاعره الحقيقية وعواطفه الخاصة دائماً ، وإنما كان مضطراً في اكثر الاحيان الى استخدامها في المناسبات التي تتطلب ذلك . وكانت هذه المناسبات ، بالنظر لمركز الشاعر الاجتماعي والسياسي ، كثيرة متعددة ، لذا جاء

مثل هـذا الانتاج الأدبي رغم قوة صياغته متكلفاً خالياً من الحرارة والشعور الفياض اللذين يتطلبها الشعر الجيد .

ولكن عندما كان ابن عمار يتألم ويقلق وتفيض عواطفه ، كانت مقدرته على الصياغة الشعرية خير عون له على إنتاج أدب قيم فيه حرارة الاخلاص وقوة الشعور والتصوير ، وعلى ذلك فان هذا الجزء من إنتاجه الأدبي ، وهو الذي رأيناه عندما تضطرب العلاقات بينه وبين المعتمد او ما نظمه وهو في الأغلال والقيود ، أقول إن هذا الجزء من أدبه ذو قيمة أدبية لا تجحد : فيه روعة التصوير وقوة البناء وتدفق العواطف والمشاعر وهذا الجزء على قلته ، هو الذي يسمح لنا أن نضع ابن عمار في حضيرة الشعراء .

٥ ـ إن كان هذا رأينا في ابن عمار فان نقاد عصره والعصور التي تلته في الأندلس لا يوافقوننا عليه لأنهم يرون فيه شاعراً كبيراً لا في قصائده هذه التي أوحاها له القلق والألم والخوف ، وإنما في شعر المناسبات الذي نظمه ايضاً ، لانهم يرون فيه روعة النظم والتفنن في استعمال الألفاظ والتشبيهات وغير ذلك من محسنات البديع والبيان .

٦ ـ إننا نعتقد أن اكتشاف شعر ابن عمار كاملا او اكتشاف جزء كبير منه كفيل بأن يلقي أضواء جديدة على قيمته الادبية ويكشف النقاب عن جزء آخر من إنتاجه الرائع الذي يستحق كل عناية وتقدير

القسم الثاني

ديوان ابن عمّار

جَمَعَهُ وَضَبَطَ نُصُوصَهُ

الدكتور صلاح خالص

ديوان ابن عمار

لدينا من المعلومات ما يشير الى أن ديوان ابن عمار كان كثير الانتشار فى الاندلس بعد وفاته (١) . ولكن هذه المعلومات بالاضافة الى الظروف العصيبة التي أحاطت بموت الشاعر لاتسمح لنا بالقول بأن الشاعر قام بجمع ديوانه بنفسه قبل مصرعه . فقد أخذ أدباء آخرون على عاتقهم جمع ما تيسر لهم الحصول عليه من شعر ابن عمار ووضعه في كتاب خاص . وأول من وصلت الينا أخبارهم من هؤلاء الادباء هو أبو القاسم محمد بن يوسف الشلبي من معاصرى ابن عمار وأهل بلدته . فقد كتب هذا المؤلف كتاباً خاصاً عن المعتمد بن عباد ويبدو أنه خصص قسماً مهماً من هـــذه الدراسة لابن عمار وأعماله وشعره ، فابن الأبار الذى كتب فصلا مهماً جداً عن حياة الشاعر وشعره فى كتابه « الحلة السيراء » يقول إنه اعتمد في مانقله من أخبار عن الشاعر الوزير على كتاب ابي القاسم الشلبي هذا (٢) . ولكن عدا مانقله ابن الأبار فاننا لا نعلم شيئاً عن هذا الكتاب .

وبعد مرور ما يقرب من عشرين عاماً على مصرع الشاعر ، اهتم المؤرخ الاندلسى المعروف ابن بسام به ، ونعرف أنه كتب فى أخباره وشعره كتاباً سماه « نخبة الاختيار فى أشعار ذى الوزارتين ابن عمار (٣) » . ويبدو أن

(١) المعجب ، ص ١١١ .

(٢) الحلة السيراء ، ف ابن عمار .

(٣) الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابن وهبون .

هذا الكتاب لم يقتصر على اشعار ابن عمار فحسب وانما حوى قسماً من أخباره. ولكن كتاب ابن بسام هذا مع الأسف لم يصل الى ايدينا هو ايضاً. الا أنه وصلنا كتابه « الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة » الذى وقف فصلا مهماً منه على اشعار الشاعر واخباره (١) سنتحدث عن أهميته. وبعد ابن بسام بقليل جاء الاديب الفتح بن خاقان نخصص هو أيضاً فصلا من كتابه « قلائد العقيان » للشاعر فذكر منتخبات من شعره وطائفة من أخباره.

ولا بد أن نضم الى هذه المصادر الرئيسة عن ابن عمار أهم مؤلف عن شعره، وهو كتاب ابى الطاهر محمد بن يوسف التميمي. فقد بذل هذا الكاتب جهده في جمع قصائد الشاعر ومقطوعاته وأبياته باحثاً عنها، كما يقول ابن الأبار، فى مظانها (٢).

ويبدو أن الوريقات الأربع عشرة الممزقة التي استخرجت من أنقاض مكتبه جامع القرويين هى كل ما نعرفه من بقايا هذا الكتاب.

نعتقد أن هذه هي المصادر الرئيسة لشعر ابن عمار الذى اعتمد عليها المؤرخون الذين جاءوا بعد ذلك. وبما أنها لم تصل كلها الى أيدينا، لذا كانت المؤلفات التي كتبت بعد ذلك معتمدة على هذه المصادر ذات اهمية كبيرة لنا، ولا سيما كتاب الحلة السيراء الذى اعتمد فيه مؤلفه عند كتابته عن ابن عمار على كتب ابى القاسم الشلبي وابن بسام وابن الطاهر التميمى. ولذلك فقد اعتمدنا حين جمعنا لشعر الشاعر على جميع ماتيسر لنا من مصادر

(١) الذخيرة ق٢، ف ابن عمار.

(٢) الحلة السيراء، ف ابن عمار.

سواه كانت متقدمة أم متأخرة ، وها نحن نحاول استعراض اهمها مع بيان قيمتها .

* * *

إن من المؤسف أن يكون القسم الاكبر من هذه المصادر لم يطبع وينشر بعد ، لذا فقد كان لابد لجمع هذه المجموعة الشعريه من الرجوع الى المخطوطات المنتشرة في مختلف مكاتب العالم وقد كانت اهم المكتبات التي رجعنا اليها ، هى المكتبة الوطنية فى باريس حيث يوجد الجزء الحادى عشر من مخطوط « خريدة القصر وجريدة أهل العصــر » للعماد الاصبهانى ، ومكتبة المتحف البريطانى في لندن التي تحتوى على مخطوط « المطرب من أشعار أهل المغرب » لابن دحيه الكلبي ، ومكتبة جامعة اكسفورد حيث توجد نسخة من كتاب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام ، والمكتبة الوطنية فى مدريد حيث كتاب « الحلة السيراء » لابن الأبار ، وخزانه الأسكوريال في إسبانيا المحتوية على نصوص أدبية أندلسية قيمة جمعها ابن سيد الناس اليعمرى ، وعلى مخطوط « السحر والشعر » للسان الدين بن الخطيب ، ومكتبة الرباط العامة حيث توجد نسخة أخرى من كتاب الذخيرة لابن بسام ، ومكتبة جامع القرويين في فاس حيث توجد الوريقات المزقة المتبقية من ديوان ابن عمار . هذا بالاضافة الى قسم من المكتبات الشخصية ، كمكتبة العباس بن ابراهيم قاضى مراكش الحالي حيث توجد نسخة جيدة من القسم الثانى من الذخيرة ، ومكتبة الاستاذ

عبد الله كنون في طنجه حيث توجد نسخة فوتوغرافية من كتاب « الحماسة المغربية » لابى العباس الجراوي مأخوذة عن نسخة أصيلة في الاستانة .

وبعد مراجعتنا لهذه المخطوطات المهمة وكثير غيرها مما هو اقل أهمية منها ، عدنا الى الكتب المطبوعة ككتاب المعجب لعبد الواحد المراكشي ، وكتاب قلائد العقيان لابن خاقان ، ونفح الطيب للمقرى ، وأعمال الاعلام لابن الخطيب وغير ذلك مما هو مذكور فى مصادر البحث ، ونتيجة لذلك كله استطعنا جمع هذا المجموع من شعر ابن عمار . ورغم أن ما جمعناه بعيد جداً من أن يكون كل شعر ابن عمار بل حتى ولا أكثره فانه يسمح لنـــا بمتابعة تطور ابن عمار الشعرى منذ لقائه ببني عباد حتى مصرعه . أما إنتاجه قبل هذا اللقاء فليس لدينا منه شي فقد أحرقه الشاعر بنفسه [١] . ويبدو أنه لا قيمة هذا الشعر الفنية ولا مركز ابن عمار المتواضع في تلك الفترة دفعت مؤرخى الادب الى الاحتفاظ به ونقله الينا . ولدينا مما نظمه في حكم المعتضد بضع قصائد طويلة . اما مانظمه فى حكم المعتمد فليس لدينا منه سوى مقطوعات قصيرة نظمت فى مناسبات مختلفة ، لا نعتقد أنها ذات قيمة أدبية كبيرة . ولكن أحسن ما لدينا من شعر ابن عمار هو ما نظمه فى الفترة الأخيرة من حياته أي بعد تركه لاشبيلية ، ولا سيما اثناء مقامه في السجن ، إذ أننـــا وجدنا فى هذه الفترة قصائد طويلة جيدة جديرة بكل اهتمام وتقدير .

(١ الحلة السيراء ، ف . ابن عمار .

وقد حاولنا جهدنا أن نرتب ما عثرنا عليه من شعر ابن عمار حسب تأريخ نظمه، ولم تكن هذه المحاولة ناجحة دائماً لا سيما فيما يتعلق بالمقطوعات القصيرة التي نظمت في اشبيلية اثناء حكم المعتمد، إذ أننا لم نقع على اية اشارة تدل على تأريخ انتاجها، كما أنه ليس فيها ما يدل على ذلك. ومع هذا فاننا وضعناها في الفترة التي نظمت فيها بحيث لا تؤثر على تتبع تطور إنتاج الشاعر الأدبي والعاطفي. وقد اخترنا الترتيب التأريخي للقصائد دون الترتيب حسب حروف الهجاء او حسب الابواب، لأن الترتيب التأريخي وحده هو الذي يساعدنا على تتبع التطور النفسي والعاطفي والفكري للشاعر من فترة لأخرى من تاريخ حياته حتى نهايته، كما يعطينا صورة واضحة لتطور صناعته اى مقدرته على الصياغة الشعرية، وكل ذلك يسهم إسهاماً كبيراً في فهم الشاعر وفهم أدبه وتذوقه.

إن المصادر التي اعتمدنا عليها في جمع شعر ابن عمار تختلف من حيث أهميتها ومن حيث نوعيه وكمية المعلومات التي تقدمها لنا وسنحاول أن نستعرض بسرعة أهم هذه المصادر ولا سيما المخطوطة منها موضحين فيمتها.

١ - ديوان ابن عمار

يوجد فى خزانة جامع القرويين في فاس أربع عشرة ورقة، (مسجلة تحت رقم واحد في الكتب المكتشفة حديثاً فى هذه المكتبة)، وهذه الوريقات التي يبدو أنها الاثر الوحيد المتبقي من ديوان الشاعر تحتوى على

عدد من القصائد والمقطوعات الشعرية مكتوبة بالخط الاندلسي ومرتبة على حروف الهجاء ، ولكنها ممزقة ومخرمة بسبب الحشرات والرطوبة بشكل يصعب معه قراءتها والاستفادة منها ، وكانت هذه الوريقات قد استخرجت مع كثير غيرها من أنقاض خزانة مهدمة في الجامع . ومع اننا لم نستطع بسبب ذلك استخراج قصائد كاملة منها ، فانها ساعدتنا مع ذلك على تصحيح قسم من النصوص التي عثرنا عليها في المصادر الاخرى واكمالها ، كما تمكننا من استخلاص بعض المقطوعات منها ايضاً .

ونحن لا نستطيع أن نعين بشكل قاطع جامع ديوان ابن عمار هذا الذى وجدنا منه هذه الوريقات في فاس . ولكن بما أن القصائد مرتبة حسب القوافي ، فمن المحتمل جداً أن يكون هو الديوان الذى جمعه ابو الطاهر التميمي والذى أشرنا اليه سابقاً ومن جهة اخرى فان مقارنة قصائد ابن عمار الواردة في الذخيرة لابن بسام مع المقطوعات المماثلة لها الواردة في هذه الوريقات تقلل لحد كبير احتمال كونها من كتاب ابن بسام عن ابن عمار والمسمى «نخبة الاختيار في اشعار ذى الوزارتين ابن عمار» المشار اليه سابقاً ، كما زعم مصنفو فهرست مخطوطات جامع القرويين . بل اننا لنجد مقطوعات في الذخيرة تحتوى على أبيات لا تتضمنها مقطوعات مخطوطة القرويين .

٣ - ابن الابار ، الحلة السيراء

وهذا الكتاب القيم لم يطبع كاملا بعد ، وإن كان بعض المستشرقين ولا سيما دوزى قد نشر قسماً منه ، وهو القسم الذى يخص الأدب الاندلسي .

وقد طبع القسم الذي يخص ابن عمار منه في الكتاب الذي جمع فيه دوزي كل ما عثر عليه حول بني عباد والمسمى Scriptorum Arabum Loci de Abbadides

وقد رجعنا الى هذا الفصل . واعتمدنا على وجه الخصوص على مخطوط كتاب « الحلة السيراء » الموجود في المكتبة الوطنية في مدريد برقم ١٢ .

وربما كانت دراسة ابن الأبار هذه عن ابن عمار احسن الدراسات القديمة التي كتبت حول الشاعر ، فقد اعتمد المؤلف في الواقع على مصادر وثيقة أشرنا الى انها تعتبر المصادر الرئيسة الأولى عنه ، ككتاب ابن بسام حول ابن عمار وديوان شعر الشاعر الذي جمعه ابو الطاهر التميمي ، وما كتبه ابو القاسم الشلبي معاصر ابن عمار حول الشاعر . وأهم المعلومات التي يقدمها لنا تتعلق بحملات ابن عمار على مرسيه وإقامته في سرقسطة قبيل سجنه ووقوعه بين يدي المعتمد ، وفي الفصل الذي خصصه ابن الأبار لابن طاهر ترد بعض الأخبار عن ابن عمار وعلاقته بهذا الامير .

٣ ـ ابو علي بن بسام ، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة

يحتوي القسم الثاني من هذا الكتاب وهو المخصص لشعراء اشبيلية وغرب الاندلس على فصل طويل وقفه الكاتب على ابن عمار . ومن المؤسف ان يكون هذا القسم من الكتاب غير مطبوع كاملا بعد ، فقد طبع القسم الاول فقط في مصر طبعة جيدة ، وهو المخصص لشعراء قرطبة وما حولها ، في جزءين ، كما

طبع الجزء الاول من القسم الرابع فقط ، ولا زالت الاقسام الاخرى ، اى القسم الثانى الذى نتحدث عنه والقسم الثالث المخصص لشعراء شـرق الاندلس ، ويقع كل منها في جزأين ايضاً إذا طبعا بالحجم نفسه الذى طبع به للقسم الاول ، والجزء الثانى من القسم الرابع : مخطوطة ومبعثرة في المكتبات. لذلك فقد اضطررنا الى الاعتماد على المخطوطات الموجودة من هذا الكتاب.

وأولى هذه النسخ التي اعتمدنا عليها (اى القسم الثاني من الذخيرة) نسخة مكتبة جامعة اوكسفورد ، وثانيتها نسخة مكتبة الرباط العامة المرقمة ١٣٤٢ . وثالثتها نسخة مكتبة الآثار فى بغـداد ، كما يوجد في جامع القرويين في فاس قسماً من هذا المخطوط يتضمن جزءاً من فصل ابن عمار .

اما مخطوطة اكسفورد التي لدينا صورتها فرغم انها واضحة الكتابة فان فيها اخطاء فى النسخ وفراغات تقلل قيمتها . عكس مخطوطة الرباط التي مع وضوح خطها الاندلسي ، تتضمن مزايا أخرى، إذ يبدو انها روجعت بعناية كبيرة بل إن عدداً من نصوصها ، ولا سيما الواردة فى فصل ابن عمار ، قورنت بروايات اخرى وسجلت الخلافات فى حاشية الكتاب ، او سجلت بعض الابيات الناقصة في رواية ابن بسام . لذا فقد كان اعتمادنا على هذه النسخة كبيراً جداً ، فهي في الواقع تستحق كل الاهتمام ولا سيما اذا اتجهت النية الى طبع هذا الكتاب .

وقيمة كتاب « الذخيرة » مرجعها سببان رئيسان . الأول هو ان ابن بسام مؤلفه كتب كتابه عام ٥٠٠ هـ (١١٠٧)[١] ، اى بعد ثلاثة

---

(١) الذخيرة ، ق٢ ،ف ، ابو بكر بن الملح .

وعشرين عاماً من وفاة ابن عمار . اذن فقد استطاع الكاتب أن يجمع اخبار الشاعر ويروى قصائده نقلا عن اشخاص عاصروا الشاعر وعرفوه . والسبب الثاني هو أن ابن بسام قد وجه اهتماماً خاصاً لابن عمار ووقف كما ذكرنا كتاباً خاصاً عليه .

لهذه الاسباب اعتمدنا على كتاب ابن بسام اعتماداً كبيراً كما اعتمد عليه جميع الكتاب الذين جاءوا بعده عند حديثهم عن ابن عمار . فقسم مهم من النصوص التي جمعناها وصلتنا عن طريق ابن بسام هذا .

٤ـ ابن دحية الكلبي ، المطرب في اشعار اهل المغرب

والنسخة الاصيلة الوحيدة المعروفة من هذا الكتاب هي الموجودة في المتحف البريطاني في لندن رقم ١٦٣١ . كما توجد نسخ مصورة منه في دار الكتب المصرية وفي كلية الآداب والعلوم ببغداد وفي معهد الدراسات المغربية العليا في الرباط . وقد صورنا المخطوط الاصيل واعتمدنا عليه فيما نقلناه عن هذا الكتاب . ومخطوط لندن هذا مكتوب بخط شرقي واضح ، عدا قسماً من الصفحات التي اثرت في سطورها الاولى الرطوبة فجعلتها عسيرة القراءة . وقد مر مؤلف الكتاب مسرعاً على ادباء الاندلس وخص ابن عمار بقسم صغير من كتابه ، إلا انه مع ذلك زودنا بأبيات لم نعثر عليها عند غيره ، كما ساعدنا على ضبط نصوص اخرى وردت عنده وعند غيره من المؤلفين :

٥ ـ ابن سيد الناس اليعمري (نصوص أدبية أندلسية)

ولا نعرف من هـذا الكتاب سوى نسخة فريدة في مكتبة الاسكوريال في إسبانيا برقم ٤٨٨ اطلعنا عليها واخذنا لها صورة فوتوغرافية . ومؤلف هذا الكتاب محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن سيد الناس اليعمرى الذى عاش فى القرن السادس الهجرى وقد قرأ الجامع نصوصه هذه على استاذه النحوى المعروف ابي علي الشلو بين فاجازه بروايتها . والكتاب يحتوى على نصوص في موضوعات مختلفة لأدباء مختلفين . ولكنها كلها تقريباً ترجع الى النصف الثانى من القرن الخامس وتتضمن رسائل تأريخية قيمة جداً وقطعاً ادبية نثرية وشعرية تعكس ذوق الفترة التي عاش فيها الكاتب ، وقصائد شهيرة من الأدب الاندلسي يندر وجود اكثرها فى غير هذا المخطوط بينها بضع قصائد لابن عمار . ولهذا المخطوط اهمية كبيرة جداً فى دراستنا ، لأنه زودنا باهم قصيدتين لابن عمار بصيغتيها الكاملتين تقريباً ، ونعنى بها الرائية وهي اول قصيدة مدح بها المعتضد وتتكون من خمسة واربعين بيتاً (١) ، والميمية التي ارسلها للمعتمد من سرقسطة وهي فى ثلاثة وتسعين بيتاً (٢) ، كما زودنا عدا ذلك ببعض مقطوعات اخرى كانت ذات اهمية فى إعداد هذه النصوص .

---

(١) ديوان ، قص ١ .

(٢) ديوان ، قص ٩ .

٦ - عماد الدين الاصبهاني (ابو عبد الله بن محمد) خريدة القصر وجريدة أهل العصر

لقد وقف الكاتب الجزءين الحادى عشر والثانى عشر لأدباء صقلية والأندلس والمغرب. ويحتوى الجزء الحادى عشر على فصل مهم عن ابن عمار يتضمن منتخبات شعرية من إنتاجه الادبى. ولا شك ان اهمية هـذا الكتاب تعود الى ان مؤلفه المشرقى قد اعتمد على مصادر أندلسية لم تصل الى ايدينا. وقد اعتمدنا هنا على المخطوطة الموجودة فى المكتبة الوطنية فى باريس برقم ٣٣٣٠. ورغم ان هذا الجزء قد كتب بخط مشرقى واضح الا انه ملىء بالأخطاء وبالفراغات الناتجة دون ريب عن سوء النسخ والتي قللت كثيراً من اهميته. ومع ذلك فلا يستطيع الباحث فى موضوع ابن عمار وشعره الاستغناء عنه.

٧ - ابو العباس الجراوي، الحماسة المغربية

هذا الكتاب مجموع من الشعر سلك فيه مؤلفه مسلك مؤلفي الحماسات كأبى تمام والبحترى وابى الفرج البصرى وابن الشجرى، فجمع فيه نخبة مما استحسنه من الشعر العربى. وقد اطلق المؤلف ابو العباس احمد بن عبد السلام الجراوى المغربى (٣)، على كتابه هذا اسم «مختصر كتاب صفوة الادب ومختصر ديوان العرب»، ولكنه عرف فى الاوساط الأدبية باسم «الحماسة

(٣) عبد الله كنون، ابو العباس الجراوي.

المغربية » كما ذكرنا هنا . ويتميز هذا الكتاب عن غيره من كتب الحماسة بأنه يحتوى على منتخبات من شعر ادباء الأندلس والمغرب ومنهم ابن عمار . والمخطوطة الوحيدة التى علمنا بوجودها هي تلك التى فى الاستانة والتى عثرنا على نسخة مصورة منها لدى الأديب الفاضل الاستاذ عبد الله گنون فى طنجة اعتمدنا عليها فيما نقلناه من شعر ابن عمار .

* * * *

وعدا هذه المصادر واخرى غيرها ، اقل اهمية منها مما لم يطبع وينشر حتى الآن ، فاننا اعتمدنا على عدد من الكتب المطبوعة كان لها اهمية كبيرة فى انجازنا لهذا العمل .

فكتاب قلائد العقيان للفتح بن خاقان يعتبر كما قلنا مصدراً رئيساً لأن مؤلفه كتبه فى مطلع القرن السادس بعد مصرع ابن عمار بزمن غير بعيد . وقد طبع هذا الكتاب طبعتين الاولى فى القاهرة عام ١٢٨٣ للهجرة ، والثانية فى باريس عام ١٨٦٠ للميلاد ، فاعتمدنا فى عملنا هذا على الطبعتين ، والواقع ان الطبعة الاولى رديئة حافلة بالأغلاط . واما الطبعة الثانية فرغم انها خير من سابقتها فان ندرتها تجعل اعادة طبع هذا الكتاب ضرورة لا بد منها .

وكتاب المعجب لعبد الواحد المراكشي الذى طبع طبعة ثانية محققة جيدة في القاهرة عام ١٩٤٩ من قبل العلمى والعريان ، كان هو ايضاً مصدراً مهماً عن ابن عمار ولا سيما عن حياته . ويبدو ان الكاتب كتب هذا الكتاب فى القرن السابع الهجرى وهو فى المشرق معتمداً على ذاكرته

وما كان سمعه من حكايات ، لذا تلاءت النظر فيه الناحية القصصية التى قللت من قيمته التأريخية كما نعتقد ، ومع ذلك فقد كانت فائدة هذا الكتاب كبيرة فى ضبط قسم من ابيات ابن عمار وفى الحصول عن معلومات قيمة تتعلق بحياته .

وعدا ذلك فقد كان الكتاب المقرى الشهير « نفح الطيب فى غصن الاندلس الرطيب » فوائد لا تجحد رغم تأخره ، فكان للمنتخبات الشعرية التى ذكرها اهمية فى ضبط بعض النصوص ، رغم ان جل ما اتى به لابن عمار كان مذكوراً لدى غيره من المؤلفين الذين مر ذكرهم .

اما الكتب الاخرى الكثيرة التى تتضمنها مصادر البحث ، فانها لم تزودنا على وجه العموم بجديد لأنها اعتمدت على ما ذكرناه من كتب ؛ او انها لم تقدم لنا سوى مقطوعات صغيرة ، ولكنها بمجموعها كانت لازمة جداً لضبط كثير من النصوص .

المختصرات المستعملة في الحواشي

ج : جزء

ح : الحله السيراء لابن الأبار

خ : خريدة القصر لعماد الدين الاصفهانى

ذ : الذخيرة فى محاسن اهلي الجزيرة لابن بسام

ص : صفحة

ع : Scriptorum arabum loci de Abbadides, de Dozy

ق : قلائد العقيان للفتح بن خاقان

قس : قسم

م : مخطوط

م٤٨٨ : مخطوط الاسكوريال رقم ٤٨٨

مط : المطرب لابن دحية السكلبي

مع : المعجب لعبد الواحد المراكشي

ن : نفح الطيب للمقرى

و : ورقة

- ١ -

قال ابو بكر محمد بن عمار يمدح المعتضد في أول لقــاء له معه * :

(الكامل)

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى
والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره
لما استرد الليل منــا العنبرا
والروض كالحسنا كساه زهره
وشياً وقلده نداه جوهرا
أو كالغلام زها بورد رياضه
خجلا وتــاه بآسهن معذرا
روض كأن النهر فيه معصم
صاف أطل على رداء أخضرا
وتهزه ريح الصبا فتخاله
سيف ابن عباد يبدد عسكرا

* رويت هذه القصيدة كاملة عدا بيتاً واحدا في م ٤٨٨ و ١٠٠ ، وفي ق س ٩٩ سبعة ابيات ، في ج ١ و ١٦٤ اربعة وعشرين بيتاً ، في ن ج ٢ ص ١٧٧ ستة وثلاثين بيتاً ، وفي ذ ص ٢ ، فصل ابن عمار تسعة وعشرين بيتاً ، وفي مط بضعة ابيات

١ - في م ٤٨٨ أدر الزجاجة : أدر المدامة ن

٢ - في م ٤٨٨ كالحسناء البس .

(٦) في ذ ، فتظنه بدل : فتخاله

الحاجب المنصور سيف الدولة لا (٢)
معطي ...... من الحباء الاكبرا

علق الزمان الأخضر المهدى لنا
من ماله العلق النفيس الاخطرا

ملك اذا ازدحم الملوك بمورد
ونحاه لايردون حتى يصدرا

أندى على الاكباد من قطر الندى
وألذ في الاجفان من سنة الكرى

قداح زند المجد لاينفك من
نار الوغى الا الى نار القرى

يختار إذ يهب الخريدة كاعباً
والطرف أجرد والحسام مجوهرا

أيقنت أني من ذراه بجنة
لما سقاني من نداه الكوثرا

وعلمت حقاً أن روضي مخصب
لما سألت به الغمام الممطرا

ياسائلي ما خص إلاخاتم
أبصرت اسماعيل فيه خنصرا

---

(٢) كذا في ق وهو الصحيح
(١٢) في خ إذا ، بدل إذ

من لاتوازنه الجبال اذا احتبى
من لاتسابقه الرياح اذا جرى

ماض وصدر الرمح يكهم والظبا
تنبو وأيدي الخيل تعثر في البرى

لاشيء أقرأ من شفار حسامه
إن كنت شبهت الكتائب أسطرا

قاد المواكب كالكواكب فوقهم
من لامهم مثل السحاب كنهورا

من كل أبيض قد تقلد أبيضاً
عضباً وأسمر قد تقلد أسمرا

لله مرسلة بآفاق العدى
برقاً تصوب عارضاً مثعنجرا

عباد المخضر نائل كفه
والجو قد لبس الرداء الأغبرا

ملك يروقك خلقه أو خلقه
كالروض يحسن منظراً اومخبرا

أعلمت بالإيمان حتى شمته
فرأيته في بردتيه مصورا

---

(١٨) في ن ، لاخلق بدل: لاشيء || المواكب بدل :الكتائب
(١٩) في ن ، قاد الكتائب ، وفي غ ، قاذا الكتائب

وجهلت معنى الجود حتى زرته
فقرأته في راحتيه مفسرا

فاح الثرى متمطراً بثنائه
حتى حسبنا كل ترب عنبرا

وتتوجت بالزهر صلع هضابه
حتى حسبنا كل هضب قيصرا

هصرت يدى غصن الغنى من دوحه
وجنت به روض السرور منورا

حسبي على الصنع الذى أولاه أن
أسعى بشكر أو أموت فأعذرا

يا أيها الملك الذى أصل المنى
منه بوجه مثل حمدى ازهرا

السيف افصح من زياد خطبة
فى الحرب إن كانت يمينك منبرا

مازلت تغني من غدالك راجياً
نيلا وتغنى من طغى وتجبرا

---

(٢٤) الشطر الاول في ق ، ن : اقسمت باسم الفضل حتى شمته » ، وفي مط : وسمت باسم القطر حتى شمته »

(٢٧) في ن ، ق : ظننا ، بدل : حسبنا

(٣٢) في ق ، عتا ، بدل : طغى

حتى حللت من الرياسة محجرا
رحباً وضمت منك طرفاً أحورا

شققت بسيفك أمــة لم تعتقد
الا اليهود وإن تسمت بربرا

أعرت رمحك من رؤوس كماتهم
لما رأيت الغصن يعشق مثمرا

وصبغت درعك من دماء ملوكهم
لما علمت الحسن يلبس أحمرا

واليك يامنصور قادت همتي
بزمامها جرد المذاكي الضمرا

مدت سنابكها الغوادح للصفا
مرطاً على متن الظلام معصفرا

يحملن قبلتك البهية قبلــة
ويردن ساحتك البهية مشعرا

خذها اليك وروضها لك ناظر
أســقيته مــــاء النعيم فنورا

نمقتها وشيا بذكرك مذهباً
وفتقتهــا مسكاً بحمدك أذفرا

---

(٣٦) في مط كالومهم ، بدل ملوكهم

من ذا يشاطرني وذكرك مندل
اوردته من نار فكرى مجمرا

ولئن وجدت نسيم حمدى عاطرا
فلقد وجدت نسيم برك أعطرا

وهناك عيد النحر لازالت به
حرم الأعادى كي تطوف فتنحرا

واليكها كالروض زارته الصبا
وحنا عليه الطل حتى نورا

---

(٤٢) في ق ، صندل ، بدل : مندل
(٤٣) في ق ، ن ، فلئن ، بدل : ولئن

- ٢ -

قال الفتح بن خاقان في قلائد العقيان (١) :

« ولما ضيق المعتضد بالله على ابن عبدالله بقرمونه ، وسد مسالكه ، وسدد اليه مهالكه ، استدعى باديس بن حبوس ، واستصرخه استصراخ المرتق المحبوس ، رجاء ان ينفس عنه غصه ، وينتهز فى ابن عباد فرصة ، فلما وصل باديس بن حبوس الى قرمونة ، اخرج اليه المعتضد جيشه يقدمه ابنه الظافر ، ويقود منه اسوداً فى المغافر ، فلما التقى الجمعان ، وارتقى ثنيه بغيه المعين والمعان ، حمل فيهم عسكر اشبيلية حملة خلعتهم عن مراكزهم ، وادالتهم بالذل من تعززهم ، فتفرقوا فى تلك البسائط والربى ، وشربوا سقياً الاسنة والظبا ، واوقع بهم الظافر احسن ايقاع ، وتركهم مضرجين في تلك البقاع ، وانصرف الى اشبيلية والويته مختالة فى اكف الرياح ، وذوابله تكاد تنقصف من الارتياح ، فهنىء المعتضد بذلك وقام ابن عمار ينشد هنالك ا (٢) »

الا المعالي ما تعيد وما تبدي
وفي الله ما تخفيه عنا وما تبدي

نوال كما اخضر العذار وفتكة
كما خجلت من دونه صفحة الخد

(١) ق ٢ ص ٩٠
(٢) فى خ ثلاثه عشر بيتاً

جنيت ثمار النصر طيبة الجنى
ولا شجر غير المثقفة الملد

وقلدت أجياد الربى رائق الحلى
ولا درر غير المطهمة الجرد

بكل فتى عارى الأشاجع لابس
الى غمرات الموت محكمة السرد

يكر فكم طعن كسامعة القرا
يضاف الى ضرب كحاشية البرد

نجوم سماء الحرب إن يدج ليلها
يدور بهم أفواجها فلك السعد

خميس تردى من بنيك بمرهف
حكاك كما قد الشراك من الجلد

ببدر ولكن من مطالعه الوغى
وليث ولكن من براثنه الهندى

فتى ثقف بين الجحافل مقدم
جنى الموت من كفيه أحلى من الشهد

سقيت بـه دينا عفاتك مخصبا
فأجناك من روض الندى زهر الحمد

وجندته نحو الملوك محاربا
فوافاك يقتاد الملوك من الجند

حتى حللت من الرياسة محجرا
رحباً وضمت منك طرفاً أحورا

شقيت بسيفك أمـــة لم تعتقد
الا اليهود وإن تسمت بربرا

أعرت رمحك من رؤوس كماتهم
لما رأيت الغصن يعشق مثمرا

وصبغت درعك من دماء ملوكهم
لما علمت الحسن يلبس أحمرا

واليك يامنصور قادت همتي
بزمامها جرد المذاكي الضمرا

مدت سنابكها الغوادح للصفا
مرطاً على متن الظلام معصفرا

يجعلن قبلتك البهية قبلــة
ويردن ساحتك البهية مشعرا

خذها اليك وروضها لك ناظر
أسـقيته مـــاء النعيم فنورا

نمقتها وشيا بذكرك مذهباً
وفتقتهـــا مسكاً بحمدك أذفرا

---

(٣٦) في مط كلومهم ، بدل ملوكهم

من ذا يثاقفني وذكرك مندل
اوردته من نار فكرى مجمرا

ولئن وجدت نسيم حمدى عاطرا
فلقد وجدت نسيم برك أعطرا

وهناك عيد النحر لازالت به
حرم الأعادى كي تطوف فتنحرا

واليكها كالروض زارته الصبا
وحنا عليه الطل حتى نورا

---

(٤٢) في ق ، صندل ، بدل : مندل
(٤٣) في ق ، ن ، فلئن ، بدل : ولئن

- ٢ -

قال الفتح بن خاقان في قلائد العقيان (١) :

« ولما ضيق المعتضد بالله على ابن عبدالله بقرمونه ، وسد مسالكه ، وسدد اليه مهالكه ، استدعى باديس بن حبوس ؛ واستصرخه استصراخ المرتق المحبوس ، رجاء ان ينفس عنه غصه ، وينتهز فى ابن عباد فرصة ، فلما وصل باديس بن حبوس الى قرمونة ، اخرج اليه المعتضد جيشه يقدمه ابنه الظافر ، ويقود منه اسوداً فى المغافر ، فلما التقى الجمعان ، وارتقى ثنيه بغيه المعين والمعان ، حمل فيهم عسكر اشبيلية حملة خلعتهم عن مراكزهم ، وادالتهم بالذل من تعززهم ، فتفرقوا فى تلك البسائط والربى ، وشربوا سقياً الاسنة والظبا ، واوقع بهم الظافر احسن ايقاع ، وتركهم مضرجين في تلك البقاع ، وانصرف الى اشبيلية والويته مختالة فى اكف الرياح ، وذوابله تكاد تنقصف من الارتياح ، فهنىء المعتضد بذلك وقام ابن عمار ينشد هنالك ! (٢) »

الا للمعالي ما تعيد وما تبدي
وفي الله ما تخفيه عنا وما تبدي

نوال كما اخضر العذار وفتكة
كما خجلت من دونه صفحة الخد

---

(١) ق ٢ ص ٩٠

(٢) في خ ثلاثه عشر بيتاً

جنيت ثمار النصر طيبة الجنى
ولا شجر غير المثقفة الملد
وقلدت أجياد الربى رائق الحلى
ولا درر غير المطهمة الجرد
بكل فتى عارى الأشاجع لابس
الى غمرات الموت محكمة السرد
يكر فكم طعن كسامعة الغرا
يضاف الى ضرب كحاشية البرد
نجوم سماء الحرب إن يدج ليلها
يدور بهم أفواجها فلك السعد
خميس تردى من بنيك بمرهف
حكاك كما قد الشراك من الجلد
ببدر ولكن من مطالعه الوغى
وليث ولكن من براثنه الهندى
فتى ثقف بين الحمائل مقدم
جنى الموت من كفيه أحلى من الشهد
سقيت به دينا عفاتك مخصباً
فأجناك من روض الندى زهر الحمد
وجندته نحو الملوك محارباً
فوافاك يقتاد الملوك من الجند

ودب ظلام سارفيه الى العدى
ولا نجم الا ما تطلع من غمد

اطل على قرمونة متبلجـــاً
مع الصبح حتى قيل كانا على وعد

فأرماها بالسيف ثم أعارهـــا
من النار اثواب الحداد على الفقد

فيا حسن ذاك السيف فى راحة الندى
ويا برد تلك النار في كبد المجد

لك الله إن كانت عداتك بعضها
لبعض فكل منهم جرماً الى فرد

يهوداً وكانت بربراً فانتض الظبي
وأنبئهم منهـــا بالسنة لـــد

اقول وقد نادى ابن اسحاق قومه
لأرضك يرتاد المنية من بعد

لقد سلكت نهج السبيل الى الردى
ظباء دنت من غابة الاسد الورد

كأنى بباديس وقد حط رحله
الى الفرس الطاوى عن الفرس النهد

---

(٢٣) في خ ، حتى قلت ، بدل : حتى قيل
(١٦) في خ ، في واحه المدى بدل : في واحه الندى .

الى الفرس الجارى به طلق الردى
سريعاً غنياً عن لجام وعن لبد

يحن الى غرناطة فوق متنه
كاحن مقصوص الجناح الى الورد

ظفرت بهم فارنح وأومض كؤسها
بروقاً لها من عودها ضجة الرعد

معتقة أهــــدت الى الورد لونها
وجادت برياها على العنــبر الورد

فاكثر مايلهيك عن كأسها الوغى
وعن نغمات العود نغمة مستجدى

وما الملك الا حلية بك حسنها
والا فما فضل السوار بلا زند

ولا عجب ان لم يدن بك مارق
فليس جمال الشمس في الاعين الرمد

هنيئاً ببكر في الدوح نكحتها
وما قبضت غير المنية فى النقد

تحلت من السيف الخضيب بصفحة
وقامت من الرمح الطويل على قــــد

---

(٢٦) في خ ، كأسك ، بدل : كأسها .

ودونكها من نسج فكرى حلة
مطرزة العطفين بالشكر والحمد

ألذ من الماء القراح على الصدى
واطيب من وصل الهوى عقب الصد

وما هــذه الاشعار الاجار
تضوع فيها للندى قطع النـد

وكنت نشرت الفضل في وانما
نشرت سقيط الطل فيورق الورد

٣٥ وها أنا باغ من نداك بقدرما
يضاف لتأميلي ويعزى الى ودى

فأقسم لو قسمت جودك في الورى
على قدر التأميل فزت به وحدى

قنعت بما عندى من النعم التي
يفسرها قولي قنعت بما عندى

---

(٣٢) في ق ، العذب القراح ، بدل : الماء .
(٣٦) في ق ، بيننا ، بدل في الورى .

- ٣ -

وقال يمدح المعتضد * :

(المتقارب)

وفيت لربك فيمن غدر　　　وانصفت دينك ممن كفر
وقمت تطالب في الناكثيـ (م)　　　ن مر الحفاظ بحلو الظفر
بعاطلة من ليالي الحرو (م)　　　ب اطلعت رأيك فيها قمر
ولم تتقدم بجيش الرجا (م)　　　ل حتى تقدم جيش الفكر
فان يجنك الفتح ذاك الاصيـ (م)　　　ل فمن غرس تدبير ذاك الشجر
تعالى الخوارج حتى برز (م)　　　ت تقوم من خدها ماصعر
واقبلتها الخيل حمر البنو (م)　　　د دهم الفوارس بيض الغرر
فكروا فلم يغنهم من مكر (م)　　　ر وفروا فلم ينجهم من مفر
ودارت دماؤهم كالكؤو (م)　　　س وفاحت نفوسهم كالزهر
فعاقر سيفك حتى انحني　　　وعربد رمحك حتى انكسر
وكم نبت في حربهم عن علي (م)　　　ى وناب عن النهروان النهر
تمتع فقد ساعفتك الحيا (م)　　　ة بريح الحديقة غب المطر
وعش في نعيم ودم في سرو (م)　　　ر ولا سر ربك من لا يسر

* : رويت هذه القصيدة في ق س ١٠٠ ، و ٧ ابيات منها في خ ج ١١ و ١٦٧

ورب ظلام سارفيه الى المدى
ولا نجم الا ما تطلع من غمد
اطل على قرمونة متبلجـــاً
مع الصبح حتى قيل كانا على وعد
فأرماها بالسيف ثم أعارهـــا
من النار اثواب الحداد على الفقد
فيا حسن ذاك السيف في راحة الندى
ويا برد تلك النار في كبد المجد
لك الله إن كانت عداتك بعضها
لبعض فكل منهم جميعاً الى فرد
يهوداً وكانت برواً فانتض الظبي
وأبنائهم منهـــا بالسنة لـــد
اقول وقد نادى ابن اسحاق قومه
لأرضك يرتاد المنية من بعد
لقد سلكت نهج السبيل الى الردى
ظباء دنت من غابة الاسد الورد
كأني بباديس وقد حط رحله
الى الفرس الطاوى عن الفرس النهد

(١٣) في خ ، حتى قلت ، بدل : حتى قيل
(١٦) في خ ، في راحه المدى بدل : في راحه الندى .

الى الفرس الجارى به طلق الردى
سريعاً غنياً عن لجام وعن لبد

يحن الى غرناطة فرق متنه
كما حن مقصوص الجناح الى الورد

ظفرت بهم فارنح وأومض كؤسها
بروقاً لها من عودها ضجة الرعد

معتقة أهـــدت الى الورد لونها
وجادت بريَّاها على العنــبر الورد

فما كثر مايلهيك عن كأسها الوغى
وعن نغمات العود نغمة مستجدى

وما الملك الا حلية بك حسنها
والا فما فضل السوار بلا زند

ولا عجب ان لم يدن بك مارق
فليس جمال الشمس في الاعين الرمد

هنيئاً ببكر في الفتوح نكحتها
وما قبضت غير المنية فى النقد

نحلت من السيف الخضيب بصفحة
وتامت من الرمح الطويل على قــد

(٢٦) فى غ ، كأسك ، بدل : كأسها .

ودونكها من نسج فكرى حلة
مطرزة العطفين بالشكر والحمد

ألذ من الماء القراح على الصدى
واطيب من وصل الهوى عقب الصد

وما هــذه الاشعار الاحمار
تضوع فيها لاندى قطع النــد

وكنت نشرت الفضل في وانما
نشرت سقيط الطل فيورق الورد

وها أنا باغ من نداك بقدرما
يضاف لتأميلي ويعزى الى ودى

فأقسم لو قسمت جودك في الورى
على قدر التأميل فزت به وحدى

قنعت بما عندى من النعم التي
يفسرها قولي قنعت بما عندى

(٣٢) في ق ، العذب القراح ، بدل : الماء .
(٣٦) في ق ، بيننا ، بدل في الورى .

- ٣ -

وقال يمدح المعتضد * :

(المتقارب)

وفيت لربك فيمن غدر　　وانصفت دينك ممن كفر

وقمت تطالب في الناكثيـ (م)　　ن مر الحفاظ بحلو الظفر

بعاطلة من ليالي الحرو (م)　　ب اطلعت رأيك فيها قمر

ولم تتقدم بجيش الرجا (م)　　ل حتى تقدم جيش الفكر

فان يجنك الفتح ذاك الاصيـ (م)　　ل فمن غرس تدبير ذاك الشجر

تعالى الخوارج حتى برز (م)　　ت تقوم من خدها ماصعر

واقبلتها الخيل حمر البنو (م)　　د دهم الفوارس بيض الغرر

فكروا فلم يغنهم من مكر (م)　　ر وفروا فلم ينجهم من مفر

ودارت دماؤهم كالكؤو (م)　　س وفاحت نفوسهم كالزهر

فعاقر سيفك حتى انحنى　　وعربد رمحك حتى انكسر

وكم نبت في حربهم عن علي (م)　　ي وناب عن النهروان النهر

تمتع فقد ساعفتك الحيا (م)　　ة بريح الحديقة غب المطر

وعش في نعيم ودم في سرو (م)　　ر ولا سر ربك من لا يسر

---

* : رويت هذه القصيدة في ق ص ١٠٠ ، و ٧ ابيات منها في خ ج ١١ و ١٦٧

٤٠٠

وقال يخاطب المعتضد * :

(الكامل)

الكأس ظامية الى يمناكا
والروض مرتاح الى لقياكا

والدهر جار في عنانك لم تقل
هات المنى إلا أجاب بهاكا

فأدر بآفاق السرور كواكباً
تخذت أكف سقاتها أفلاكا

راحاً اذا هب النسيم حسبتها
مسروقة الانفاس من رياكا

في مجلس بسط الربيع بساطه
زهراً ورقرقه عليك أراكا

سقط الندى فيه سقوط نداكا
وجلت عليه الشمس مثل سناكا

روض تفتح زهره فكأنه
مقل العذارى حدقت لتراكا

---

* وردت ٥ ابيات في خ ج١١ و١٦٧ و٩ ابيات في ذ

يسرى على ريحانه نفس الصبا
سحراً فيوهم انـــه ذكراكا

رد مورد اللذات عـذبا صافياً
فلقد وردت المجد قبل كذاكا

لم ترو من راح ولا من راحة
حتى ارتوت بدم العداة قناكا

- ٥ -

ومضى عند المعتضد عباد ليلة ابو الوليد بن زيدون وابو بكر بن عمار ، فقال المعتضد :

أتاك الليل معتكراً

فقال ابن زيدون : يناهبه سنى البدر

فقال ابن عمار :

دع الساعات تبسطه

ستقبضه يد الفجر

* * * *

---

* نفح السحر في اختصار روح الشعر ، ابن لبون التجيبي

-٦-

وقال فى المعتضد عباد من قصيدة * :

(الطويل)

انا عبيدك او يقول مصدق
الحق مـــذموم وأنت بخيل

أترى القبول سرت اليك بنفحة
مما ادعته فكان منك قبول

وهل استمالك من ثنائى عاطف
إن الكريم الى الثناء يميل

---

* خ ج ۱ ، ۱۱ ، ص ۱۰۷

-٧-

وقال ابن عمار من قصيدة في المعتضد عباد أولها * :

(الطويل)

أشاقك برق أم جفاك حبيب
فليلك فضفاض الرداء رحيب

ومنها :

الى الله اشكو أن مالك فى دمي
شريك ومالي في هواك نصيب

أتدرين من كانت عينيك قتله
وقلت فتى لا يستفيد غريب

ستنصره من مهرة الخيل ترتمي
بأعلام نصر فى الوغى وثؤوب

تداموا بلخم فاستهلت سماؤهم
بغيثين منها ذائب ومذيب

بدور ولكن السماء محارب
وأسد ولكن العرين حروب

مزحت فانى يا ابنة القيل لم أكن
لأفشي سراً ضمنته قلوب

* ذ ، فصل ابن عمار

سأشهد قومي أن طرفك من دمي
بريء وإن كان الفتور يريب

وكيف أرى في الغدر نهجاً اسالك
وعهدي بالملك الوفي قريب

فتى أسخ الغدر اقتضاء وفائه
فلا تحكي أن الوفاء غريب

أغر يقير الملك منه بكوكب
له في سماء المشكلات ثقوب

-٨-

وخاطب أبا الوليد بن زيدون عند أول تملقه بالسلطان :

تأملت منك البدر في ليلة الخطب
ونلت لديك الخصب فى زمن الجدب
وجردت من محروس جاهك مرهفا
تولت به خيل الحوادث عن حربى
وما زلت من نعماك في ظل لذة
تذكرنى أيامها زمن الحب
إذ العيش فى أفياء ظلك بارد
فمن مرتع خصب الى مورد عذب
أحين سقي صوب اعتنائك ساحتي
فنعمها واهتز روضي في تربى
ثنيت لعطف قد ثنيت مدائحي
عليه وسرب قد بدلت به سربى
أما أنــــه لولا عوارفك الـــتي
جرت في جرى الماء فى الغصن الرطب
لما ذدت طير الود عن شجر القلى
ولا صنت وجه الحمد عن كلف العتب

* ح ، فصل ابن عمار .

ولـكن سأكني بالوفاء عن الجفا

وأرضى ببعد بعدما كان من قربي

وإن لفحتني من سمائك حرجف

سأهتف يابرد النسيم على قلبي

وإني إذا قلدت جاهك مطلـــبي

وأخفقت فيه قلت يازمني حسبي

أيظلم في عيـــني كذا قمر الدجى

وتنبو بكفي شفرة الصارم العضب

— ٩ —

وكتب الى الامير محمد (المعتمد) بن المعتضد حين نفاه المعتضد من إشبيلية ، وكان مقيما آنذاك في سرقسطة * :

(الطويل)

على وإلا ما بكاه الغمائم
وفي والا ما نياح الحمائم

وعني أثار الرعد صرخة طالب
لثأر وهز البرق صفحة صارم

وما لبست زهر النجوم حدادها
لغيرى ولا قامت له فى مآتم

وهل شققت هوج الرياح جيوبها
لغيرى او حنت حنين الروائم

خذوا بى إن لم تهدأو اكل سائح
لريح الصبا في إثره أنف راغم

من العابسات الدهم الا التفاتة
الى غرة أهدت له ثغر باسم

---

* الاصل م٤٨٨

(١) في ذ : على والا ما نياح الحمائم   وفي والا ما بكاه الغمائم || في خ : ماالنوح بدل : مانياح

(٣) في ذ (مراكش) وسط مآتم ، بدل : في مآتم

طوى بي عرض البيد فوق قوائم
توهمتني منهن فوق قوادم
وخاض بي الظلماء حتى حسبته
له مربط بين النجوم العوائم
الا قاتل الله الجياد فانها
نأت بي عن أرض العلى والمكارم
أشاب ولا تنساب عبرة مشفق !
وحص ولا تمتاد زفرة نادم !
كساها الحيا برد الشباب فانها
بلاد بها عق الشباب تمائمي
ذكرت بها عهد الصبا فكأنما
قدحت بنار الشوق بين الحيازم
ليالي لا ألوى على رشد لائم
عناني ولا أثنيه عن غي هائم
أنال سهادى عن عيون نواعس
وأجني عذابي من غصون نواعم
وليل لنا بالسد بين معاطف
من النهر ينساب انسياب الأراقم

(٧) في م ٤٨٨ : توهمتني ، بدل : توهمته
(١٣) في م ٤٨٨ : غي لائم ، بدل : غي هائم
(١٤) في ذ : جفون ، بدل عيون || في ن : مرادي ، بدل : عذابي .
(١٥) في خ : وقوم، بدل : وليل .

بحيث اتخذنا الروض جاراً تزورنا
هداياه فى أيدى الرياح النواسم

تبلغنا أنفاسه فنردها
باعطر أنفاس وأذكى مناسم

تسر الينا ثم عنا كأنها
حواسد تمشي بيننا بالنمائم

سقتنا به الشمس للنجوم ومن بدت
له الشمس فى جنح من الليل فاحم

وبتنا ولا واش يحس كأننا
حللنا مكان السر من صدر كاتم

هو العيش لا ما اشتكيه من السرى
الى كل ثغر آهل مثل طاسم

وصحبة قوم لم يهذب طباعهم
لقاء أديب أو نوادر عالم

صعاليك هاموا بالفلا فتدرعوا
جلود الأفاعى تحت بيض العمائم

---

(١٦) في خ ، م٤٨٨ : لناسم ، بدل : مناسم
(١٧) في ذ : تشير ، بدل : تسر
(١٩) في ذ : قطع ، بدل : جنح .
(٢٠) في ن : تخاف ، بدل : يحس
(٢٣) في ذ : في الملى ، بدل : في الفلا

ندامى ولا غير السيوف أزاهرى
لديهم ولا غــير الغمود كمائمى

وما حال من رمته أرض أعارب
وألقت به الأقدار بين الأعاجم

يقبح لي قوم مقامي بينهم
وقد رسخت رجل السرى في الأداهم

يقولون لي دع أيدى العيس إنها
تؤدى الى أيدى الملوك الخضارم

فديتهم لم يبعثوا حرص عاجز
ولا نبهوا إذ نبهوا طرف نائم

ولكنها الأيام غــير حوافل
بأرب أريب أو حزامة حازم

وإنى لأدعو لو دعوت لسامع
وانى لاشكو لو شكوت لراحم

أريد حياة البين والبين قاتلي
وأرجو انتصار الدهر والدهر ظالمي

(٢٤) ذ؛ ندامى ، م٤٨٨: ترام
(٢٥) في ذ : وما حال من خلى
(٢٦) في م٤٨٨ : قومى ، بدل : قوم
(٣٠) في ذ : واني لادعو لو دعوت لسامع مجيب واشكو لو شكوت لراحم

ونبئت اخوان الصفاء تغيروا
وذموا الرضى من عهدى المتقادم

لقد سخطوا ظلماً على غير ساخط
عليهم ولاموا ضلة غـيـر لائم

ولو أن عفواً من هنالك زارنى
لزرت وما عدو الزمان بدائم

أجر ذيول الليل سابغة الدجى
واركب ظهر العزم صعب الشكائم

فاورد ودى صافياً كل شارب
وألبس حمدى ضافياً كل شائم

وأغضي لمن يلقي بوجه مكاره
حياء فالقاه بوجه مكارم

وما هو الا لثم كف محمد
وتمكين كفي من نواصى الظالم

إن اتفقت لي فالعدو موافقي
على كل حال والزمان مسالمى

على لنفسي من مناها ألية
تهز رحال اليعملات الرواسم

---

٣٣) في ذ : لقد عتبوا ؛ بدل : لقد سخطوا || عاتب ، بدل: ساخط
٣٦) و ذ : شامت ، بدل : شارب
٣٩) في ذ : مساعدي ، بدل : موافقي

الى الحاجب الاعلى الى العضد الذى
تطول بيمناه قصـــار الصوارم

فتى ثقف مابين الحمائل مقـــدم
اذا كر ، كر الموت ضربة لازم

يضيء سرير الملك منه اذا استوى
عليه ببـــدر محتب بعـمائم

ويهفو للهواء الورد منه إذا غزا
على أسد دامي البراثن حاطم

صقيل رداء العرض من غدر خلة
وطاهر ماء الوجه من رد عادم

له هزة في الجود معتضدية
تهز إلى تشـــتيت شمل الدراهم

واى حيـاء طيه اى ســـورة
كما كمنت فى الروض دهم الاراقم

سما بأبيه ذروة الشرف الذى
اباطحه سهل النـــدى والمكارم

بمعتضد باللـــه يمنـــاه مرتمٍ
مريع لآمال النفوس الســـوائم

اذا نشرت لخم بذكراه فخرها
طوت طيء من خجلة ذكر حاتم

مليك سنى الحالتين متيم
ببيض الأيادى او بحمر الملاحم

أبى أن يراه الله غير مقلد
حمالة سيف او حمالة غارم

يمين على حمد العفاة فيثني
براحة مغنوم ولذة غانم

ويبني بهدم المال شامخة العلا
لقد ساس ما بانى العلا غير هادم

مهيب التفات الطرف سام موقر
عظيم إذا لاحت وجوه المظالم

يذيب بعينيه العدى غير ناظر
ويسبي بكفيه السها غير قائم

اذا نظرت فيه الملوك تساقطت
له نكس الابصار مثل العمائم

يغادر من لثم المباسم في ثرى
مواكبه أمثال لثم المناسم

له الخير ما أعطى الى كل صارم
يميناً وما أسطى بكل ضبارم

---

(٥٢) في مع : حملة سيف، بدل : حمالة سيف .

إذا جر أذيال الجيوش الى العدى
أطاعته أو جرت ذيول الهزائم

ومن مثل عباد ومن مثل قومه
ليوث حروب او بدور مواسم

ملوك مناخ العز في عرصاتهم
ومثوى المعالي بين تلك المعالم

هم البيت ما غير الهدى لبنائه
بأس وما غير القنا بدعائم

إذا قصر الروع الخطى نهضت بهم
طوال العوالي في طوال المعاصم

وأيد أبت من أن تؤوب ولم تفز
بجز النواصي او بجز الغلاصم

ندامي الوغى يجرون بالموت كأسها
إذا رجعت أسيافهم في الجماجم

هناك القنا مجرورة من حفائظ
وثم الظبا مهزوزة من عزائم

ألكنى منهم بالسلام الى فتى
تهادى به جرد العتاق الصلادم

---

(٦٨) في ذ : الكني بالتسليم منهم على فتى

إلى الحاجب السامي إلى المجد ناشئاً
وإن لم تثبت فاعتبر بالمياسم

اذا ركبوا فانظره أول طاعن
وإن تركوا فارصده آخر طاعم

أغر مكين في القلوب محبب
اليها عظيم في نفوس الأعاظم

تبوأ من لخم وناهيك مقعداً
مكان رسول الله من آل هاشم

رقيق حواشي الطبع يجلو بيانه
وجوه المعاني واضحات المباسم

وبارع حسن الخط حتى كأنما
يصرف في القرطاس راحة راسم

يهز من الأقلام أمثلة القنا
لها من لطارخ المسك مثل اللهاذم

اذا نثرت جاءت ببدعة ناثر
وإن نظمت جادت بحكمة ناظم

أبا القاسم اقبلها اليك فانما
ثناؤك مسكي والقوافي لطائمي

مجملة عذراً فانك جمـــلة
من الفضل لم أستوفها بتراجم
فديتك ما حبل الرجاء على النوى
بواه ولا ربع الوفاء بقـــاتم
أنا العبد في ثوب الخضوع لو أنني
أرى البدر تاجي والنجوم خواتمى
وماعز في الدنيا طلاب لمـــاجد
ولا اعتاص في الأيام ورد لحائم
ولكن ذاك الظل أندى غضارة
لضاح وذاك البرق أوفى لشائم
وإني ـ اذا أنصفت ـ بعدك خادم
لدهرى وكان الدهر عندك خادمي
تراك تنسمت الذى قـــد أذعته
فارضاك أم عابت لديك مقادمي
٨٥ لعمرى لقد أفحمت كل مفاخر
بما فيك من تلك السجايا الكرائم
أنازعه فيك الثنـــاء فينثنى
كأنى نازعت الكؤوس منادمي

---

(٨١) في ذ وما عز في الدنيا مراد لمجدب ولااعتاس في الافاق ...
(٨٢) في م٨٨٤ ولكن ذاك الفضل || في ذ : اشفى ، بدل : اوفى .
(٨٤) في ذ ... فارضاك ام غابت عليك مقادمي .

ولا غرو أن حيتك بالطيب روضة
سمحت لهــا بالعارض المتراكم

وثقت بحظى منك لم أخش نبوة
عليه وأرم بالظنون الرواجم

ولو نهضت بى قدرة كل ساعة
لأديت من تقبيل كفك لازمي

لعل الذى أقذى بترحة راحل
عيونا سيجلوهــا بفرحة قادم

فترجع أيام مضت وكأنها
اذا امتثلتهــا النفس لذة حالم

وإن غالنى من دونهن منيتي
فأقــدار رب بالمنيه حاكم

توالى عليك السعد ألزم صاحب
وكان لك الرحمن أكلأ عاصم

ـ١٠ـ

ومن قوله فى قصيدة يمدح بها المعتضد بالله * :

(الكامل)

جاه الهوى ـ فاستشعروه ـ عاره
ونعيمه ـ فاستعذبوه ـ أواره

لا تطلبوا في الحب عزاً إنما
عبدانه فى حكمه أحراره

قالوا أضر بك الهوى فأجبتهم
يا حبذاه وحبذا أضراره

قلبي هو اختار السقام لجسمه
زيا فخلوه وما يختاره

• عيرتموني بالنحول وإنما
شرف المهند أن ترق شفاره

وشمتم لفراق من آلفته
ولربما حجب الهلال سراره

أحسبتم السلوان هب نسيمه
او أن ذاك النوم عاد غراره

---

* في مع س ١١٢ ، اثنان وعشرون بيتاً من هذه القصيدة ؛ في ق سبعة ابيات

إن كان أعيى القلب من حر الجوى
خذلته من دمعى إذن أنصاره

من قد قلبي إذ تثنى قده
وأقام عذرى إذ أطل عذاره

أم من طوى الصبح المنير نقابه
وأحاط بالليل البهيم خماره

غصن ولكن النفوس رياضه
رشأ ولكن القلوب عراره

سخرت ببدر التم غرته كما
أزرت على آفاقه أزراره

مازال ليلى الوصل من فتكاته
تسرى الى بعرفه أسحاره

ويجود روض الحسن من وجناته
دمعي فيندي رنده وبهاره

حتي سقاني الدهر كأس فراقه
فسكرت سكراً لايفيق خماره

ووقفت في مثل المحصب موقفاً
للبين من حب القلوب جماره

حيران أعمى الطرف وهو سماؤه
وأذاب فيه القلب وهو قراره

ولئن يذبه وهو مثواه فكم
قد أحرقت عود العفارة ناره

إن يهنه أنى أضعت لحبـه
قلبي وذاعت عنده اسـرارهِ

فليهن قلبى أن شكاه وشاحه
لسـواره فاقتص منه سواره

فوحسنه لقد انتدبت لوصفه
بالبخل لولا أن حمصاً داره

بلد رمتنى بالمـنى أغصـانه
وتفجرت لي بالنـدى أنهاره

بلد متى أذكره هيج لوعتي
واذا قدحت الزند طار شراره

-١١-

وقال يخاطب ابا الوليد بن زيدون * :

(الكامل المجزوء)

كيف اعتززت على الدليل   وقطعت أسباب الوصول
وقتلتني وزعمت أن (م)   ن الذنب منـا للقتيل

وعليك جاهـدت العدا   واليك ملت عن العذول
ياقاتلي ودمي بصفـ (م)   حة خده أهـدى دليل

ما أليق الفعل الجميـ (م)   ل بذلك الوجه الجميـل
أبرزت فى خلق الكريـ (م)   ـم وراءه خلق البخيل

ودعوتنى حـتى أجبـ (م)   ـتك ثم حدت عن السبيل
جد بالقليل فان نفـ (م)   ـسي منك تقنع بالقليل

واذكر على زمن قطعـ (م)   ـنـاه بصـافية شمول
إذ نسحب الاذيال ما   بين الخليج الى النخيل

ونحل من سيف الغديـ (م)   ـر بقبـة الظل الظليل
والروض ممطور تنم (م)   عليه أنفـاس القبول

والشمس ترمقنا خلا (م)   ل الغيم عن طرف كليل
إبان يحدو الرعد من   ورق السحائب كالحمول

---

* ذ ق ١ مجلد ١ ص ٣٧٣

ويهز كف البرق في الـ (م) آفاق مرهفة النصـــول
زمن ستبكيه الحمـــا (م) م معى وتذهل عن هديل

يابرق أد رســـالتي تفديك نفسي من رسول
عرج بشـــلب محيياً ما شئت من تلك الطلول

واطلع على شرفات حمـ (م) ص قراره الشرف الأثيل
فاذا اجتلاك ابو الوليـ (م) ـد بناظر اليقظ النبيل

فاقرأه من قلبي سلا (م) ماً يقتضي حسن القبول
يا غرة الزمن البهيـ (م) ـم وعزة الأدب الذليل

ومحكم القلم القصيـ (م) ـر على شبا الرمح الطويل
أعلمت أنى خادم ذكراك بالشكر الجزيل

لم استحل عما عهد (م) ت مع الزمان المستحيل
اشفع عنايتك الجليـ (م) ـلة لي لدى الملك الجليـــل

ولئن أجبت لراغب وأقلت عثرة مستقيل
فلكم أبيت بمثلها وهي الصنيعة من مثيلي

يا أنس بدر فى الظلا (م) م وبرد ظـــل في المقيل

-١٢-

وقال فى المعتمد حين نزل ببعض الحصون * :

(المتقارب)

على اليمن والطائر السانح
نزلت وغيرك للبارح

وما اهتجت إلا وقد هيجتـ (٢)
ـك دواع الى البلد النازح

وإلا فكم خف من جهـ (٣)
ـلا فما هز من حلمك الراجح

تطلب حقوقك ، لا لائم
فقد بين الصبح للائح

٥ ومن يعترضك بأوداجه
فكله الى سعدك الذابح

وكم يزجرون وكم ينصحو (٤)
ن فما يقبلون من الناصح

وما كان أنصفهم لو رموا
زناد الوغى ليد القادح

---

* ذ ق ٢ فصل ابن عمار

ولا عجب لثبوت القلا (م)
ع على بأسك الهادم الناطح

فلولا امتناع الفتاة الـكعا (م)
ب لما كملت لذة الناكح

١٠ خلعت السكرى في طلاب العلا
على نائم دونها طافح

هنيئاً فأنت مليك الملو (م)
ك قد صرح الجد للمازح

وما أخرتني عنك النجو (م)
م ياغرة القمر اللائح

ولا النهر لم يثنني عن ورو (م)
د ندى بحرك الزاخر الطافح

-١٣-

وقال يمدح المعتمد * :

(الطويل)

أفي كل يوم تحفة وتفقـــد
بفضل نوال واهتبال يؤكد
لقد فاز قدحي في هواك وقابلت
مطالع حالي في سمائك أسعد
تبرعت بالمعروف قبل سؤاله
وعدت بما أوليت والعود أحمد
فأتأق حوضي من نداك تبجس
ونعق روضي من رضاك تعهد
أما وصنيـع زارني بجماله
حديث كما هب النسيم المغرد
لقد هز أعطاف القوافي وهزني
الى شكر إحسان أغيب فيشهد
فان أنا لم أشكرك صادق نية
تقوم عليها آيه الفصح تعضد
فلا صح لي دين ولا بر مذهب
ولا كرمت نفسي ولا طاب مولد

---

* ق ، ٩٧ : ثلاثة ابيات منها في خ ج ١ ، ١ فصل ابن عمار

-١٤-

وله في زورق * :

(الطويل)

وجارية مثل الهلال ألفتها
على نهر مثل السماء رقيق

تجلى لنا الاصباح وهو زمرد
فألقت عليه الشمس ثوب عقيق

* ح ص ١٧٣

-١٥-

وله فى طبق من الفضة مذهب الباطن *

(الخفيف)

وسماء من الغنى قد أسالت

ذهباً فى قرارة من لجين

فاجتنت حولها العيون بلطف

زهر الحسن من بنان اليدين

* ح ص ١٧٣

-١٦-

وأهدى الى المعتمد فى يوم عيد ثوباً من صوف بحرى وكتب معه * :

لما رأيت الناس يحتشدون في
إتحاف يومك جئته من بابه

فبعثت نحو الشمس شبه إهابها
وكسوت متن البحر بعض ثيابه

* * * *

فوجه اليه المعتمد بعكبة فضه فيها خمسمائه دينار وكتب معها .

هبة أتتك من النضار ألوفها
فاغنم جزيل المال من وهابه

فلو أن بيت المال يحوى قفله
أضعافها لكسرته عن بابه

وملأت منه يديك لا مستأثراً
فيه عليك لكي ترى أولائه

فالبحر يطفح جوده لك زاخراً
لما كسوت البحر بعض ثيابه

---

* ح ص ١٧٢ ،

-١٧-

وكتب الى المعتمد في يوم غيم وقد احتجب * :

(الطويل)

تجهم وجه الأفق واعتلت النفس
بأن لم تلح للعين أنت ولا الشمس

فان كان هذا منكما عن توافق
وضمكما أنس فيهنيكما العرس

* * * *

* خ ج١١ و١٦٨

-١٨-

وركب المعتمد في بعض الايام قاصداً الجامع والوزير ابن عمار يسايره فسمع أذان المؤذن فقال المعتمد * ،

هـذا المؤذن قـد بدا بأذانه

فقال ابن عمار : يرجو بذاك العفو من رحمانه

فقال المعتمد :

طوبى له من شاهد بحقيقة

فقال ابن عمار : ان كان عقد ضميره كلسانه

(١) ن جـ ٥ ص ١٤٩

١٩

حضر ابو بكر بن عمار مع المعتمد وأبي بكر الاشبيلي مجلس أنس ، فلما تمكن السرور من النفوس غنى ابو بكر الاشبيلي صوتاً فطرب ابن عمار وقال ارتجالا * :

(البسيط)

ما ضر أن قيل اسحق وموصله
ها أنت أنت وذى حمص وإسحاق

أنت الرشيد ودع من قد سمعت به
وإن تشابه أخلاق وأعراق

لله درك داركها مشعشعة
واحفز بساقيك ماقامت لنا ساق

---

* قس ٣ فصل ابن عمار

٢٠

وأدخل بعض فتيان المعتمد عليه باكورة نرجس فكتب الى ابن عمار يستدعيه *

(البسيط المجزوء)

قد زارنا النرجس الذكي   وحان من يومنا العشي
ونحن في مجلس أنيق   وقد ظمئنا ونم ري
ولي نديم غــدا سميي   يا ليته ساعد السمي

فأجابه ابن عمار :

لبيك لبيك من مناد   له الندى الرحب والندي
ها أنا بالباب عبد قن   قبلته وجهك الســني
شــرفه والداه باســم   شرفتــه أنت والنبي

---

* مط ﻫ ١٢ ، ح ص ١٥٧

٢١

وقال يمدح *

(الكامل)

لله درك ماتعلق ناظرى
بعدى علاك ولا جرى تحصيل

وجه بمعرفة الدلاص مقنع
أبداً وطرف بالعجاج كحيل

ويد بآمال العفاة . . . .
أبداً وآجال العداة تسيل

عمرت ربوع المجد منها إنما
تركت بيوت المال وهي طلول

* خ ج١١ و١٦٨

-٢٢-

وبلغ ابن عمار أن المعتمد كتب من قرطبه الى بعض نسائه شعراً يعتذر فيه من اللحاق بها ، وقال في آخره :

إن شاء ربى او شاء ابن عمار ، فكتب اليه *

(البسيط)

مولاى عندى لما تهوى مساعدة
كما يتابع خطف البارق الساري

إن شئت فى البحر فاركب ظهر سابحه
او شئت فى البر فاركب ظهر طيار

حتى تحل وحفظ الله يكلأنا
ساحات قصرك واتركني الى داري

وقبل خلع نجاد السيف فاسع الى
ذات الوشاح وخذ للحب بالثار

ضماً ولثماً يغني الحلي بينكما
كما تجاوب أطيـــار بأسحار

* في ح ص١٥٧ وفي ذ ص ٢ فصل ابن عمار مع الخلاف في ذكر السبب
(٣) في ذ ؛ رحاب ، بدل ؛ ساحات .

* * * *

-٢٣-

وأنشد المعتمد يوماً أبا بكر بن عمار * :

(الكامل المجزوء)

أمـــا أنـــا فتيم   قلق الفؤاد وأنت كيف

فقال ابن عمار :

حالي وحالك واحـد   وأنا القتيل بغير سيف

* ابن اودن التجيبي لمح السحر من روح الشعر و١٠٠

-٢٤-

وقال يستنجز حاجة *

(الطويل)

أهزك لا أنى عهدتك ناسياً
ولا أنني أبغي لديك التغاضيا

ولكن رأيت السيف من بعد سله
الى الهز محتاجاً اذا كان ماضياً

* ابن الخطيب ، السحر والشعر و ١٠

-٢٥-

وقال يستنجز حاجة * :

(المنسرح)

يانسيم الثناء هب فنبه

نجح مولى ينام عن . سعى عبده

هب واستمل من علاه . . . . .

حل إنجازه على روض وعـــده

---

* ابن الخطيب ، السحر والشعر ، و ١٠

٣٦

وقال يتغزل بحسناء * :

(الطويل)

وما لحمام الأيك تبكيك كلما
تبسم ثغر للصباح شنيب

تغني فما تنفك تشرب نغبة
من الدمع يهديها اليك وجيب

نعم هجر ليلى كلف .....
وعلم دمع العين كيف يصوب

فتاة عداها الحسن حتى كأنها
هي الحسن أو إلف عليه حبيب

فعين كما عين المهى ومقلد
كما ارتاع ضبي بالفلاة غريب

وردف كما انهال القضيب وضمه
وشاح كما غنى الحمام طروب

وثغر (كمثل) الاقحوان يشوبه
لمى حسنات الصبر عنه ذنوب

---

* ابو العباس الجراوي ، الحماسة المغربية

شققت جيوب الصبر عنها لطفلة
..... عليهـــا للجبال جيوب

لفاتكة الألحـــاظ وهى عليلة
وناعمة الأعطاف وهى قضيب

كسا الخجل المعتاد صفحة خدها
رداء طرازاه نـــدى ولهيب

ودبت من الأصداغ فيه عقارب
لها في فؤاد المستهام دبيب

أما ونسيم الروض زار نسيمها
فاهدتها نحو المشـــوق جنوب

-٢٧-

وقال ، وضمن أوائل الأبيات « نعم المحل » * :

(الكامل)

نفسي وإن عـذبتها تهواك
وبهزهـا طرب الى لقيـاك

عجباً لهذا الوصل أصبح بيننا
متعذراً ومناى فيه منـاك

ما بال قلبي حين رامك لم ينل
ولقـد ترومك مقلتي فتراك

الله أعلم ما أزور لحـاجة
ذاك المحل لغير أن ألقاك

ليت الرقيب إذ التقينا لم يكن
لأنال رياً من لذيذ لماك

متنزهاً فى روض خدك شارباً
كأس الفتور تديرها عيناك

حكت الغصون جمال قدك فانثنت
والفضل للمحكي لا للحاكي

لا تغربى ياروضة محظورة
حتى أمـد يدى الى مجناك

---

* ديوان ابن عمار ، ج ص ١٧٣

-٢٨-

وله في وصف الخمر * :

(المجتث)

الكأس جامد مـــاء   والخمر ذائب نـــار

واعجب لمـــاء ونار   تلاقيـــا في قرار

* ديوان ابن عمار .

-٢٩-

وقال ايضاً * :

قرأت كتابك مستشفعاً بوجه أبي الحسن من رده
ومن قبل فض ختام الكتا (م) ب قرأت الشفاعة في خده

~~~~~~~~~~~~~~~~

* ن ، ج ٥ ، ص ٢١
~~~~~~~~~~~~~~~~

-٣٠-

ومما يعزى الى ابن عمار قوله * :

إني ابن عمار لا أخفى على أحد
إلا على جاهل بالشمس والقمر

وبين طبعي وذهني كل سابقة
كالسهم يبعد بين القوس والوتر

إن كان أخرني دهري فلا حرج
فوائد الكتب . . . في الطرر

---

* ديوان ابن عمار ؛ ح ، ص ١٧٤

(١) في ح : على بشر ، بدل : على احد

-٣١-

وقال في الحرشف * :

(البسيط)

وبنت ترب وماء جودها أبداً
لمن توخاه في ثوب من البخل

كأنها في جمال وامتناع ذرى
خود من الروم في خدر من الأسل

---

* ذ فصل ابن عمار ، ح ص ١٧٣ .

-٣٢-

وقال وصف القلم * :

(البسيط المجزوء)

نحن خليلان ما دعانا   للوصل ود ولا اختيار
نفصل ما كان ذا اتصال   كأننا الليل والنهار

---

* الرندى ، الوافي في نظم القوافي .

-٣٣-

وقال يصف يوماً غائماً * :

(الكامل)

يوم تكاثف غيمه فكأنه
دون السماء دخان عود أخضر
والطل مثل برادة من فضة
منثـــورة في تربة من عنبر
والشمس احياناً تلوح كأنها
أمة تعرض نفســها للمشــترى

* ن ج٥ ص١٣٧

٣٤

وقال في فارسين تبارزا فسبق احـــدهما الاخر فطعنه من أبيــات : *

(الـكامل)

كم من شجاع قدته تحت الردى
بدم من الأوداج كالارسان

روى ليضرب ...... بطعنة
إن الرماح بداية الفرسان

* خ ج١١ و ١٦٨.

٣٥

وقال يهجو شخصاً اسمه مسلم * :

(الوافر)

روائح مسلم قذرة وأقصى دبره دسره
وأدخل فيه إصبعه وقاس بنانه العشرة

فلم يمكن وصول الدهـ (م) ـن دون تجاوز الكمره
وهذا عذر مأبون أبوه سارق البقرة

* ديوان ابن عمار .

٣٦

وقال في مغن يكنى أبا الفضل * :

(السريع)

غنى ابو الفضل فقلنا له   سبحان مخليك من الفضل
غناؤه حد على شربها   فاغرب فأنت اليوم في حل

* غ ج ١١ ، ١٦٨ و

٣٧

وقال يتغزل * :

(الوافر)

رشا يرنو بنرجسه ويعطو   بسوسان ويبسم عن أقاح
تشير إلى قرطاه وتصغى   خلاخله إلى نغم الوشاح

---

* في صـ ٥٩ ، الشريف الغرناطي ، شرح المقصورة

(٢) في شرح المقصورة : قرطاها ، خلاخلها

٣٨

وقال يصف جدولا يصب في غدير * :

(الطويل)

ومطرد الاجزاء يصقـــل متنه
صبا أعلنت سر الندى في ضميره

كأن حباباً ريع تحت حبابه
فسارع يرمي نفسه في غديره

جريح باطراف الحصى كلما جرى
عليها شـــكى أوجاعه بخريره

شربنا على حافاته دور سكرة
وأكثر سكراً منه عينا مديره

وقد لاح نجم الصبـــح باد كأنه
مطرق جيـــش مؤذن بأميره

* في م ٤٨٨ و ١٠٢

٣٩

وقال في غلام * :

(المتقارب)

تعلقته جهوري النجـــا (م) ر حلو اللمى جوهري الثنايا

من النفر البيض جر الزما (م) ن رقاق الحواشي كرام السجايا

ولا غرو ان تغرب الشارقا (م) ت وتبقى محاسنها بالعشايا

ولا وصل إلا جمان الحديـ (م) ث نساقطه من ظهور المطايا

٥ شـــنئت المثاث للزعفرا (م) ن وملت الى خضرة في النقايا

---

* م٤٨٨ و١٠٢

٤٠

وقال يصف الدمشق وهو أحد القصور التي بناها بنو امية في قرطبـــة * :

(الخفيف)

كل قصـــر بعـــد الدمشق يذم
فيه طاب الجنى وفاح المشـــم

منظر رائق ومـــاء عمـــير
وثرى عاطر وقصر أشم

بت فيه والليل والفجر عندى
عنبر أشهب ومسك أحم

---

* ن جـ٢ صـ١٩٠ ، ق صـ١٥٥

(٣) في ق : عنه ، بدل : عندي

٤١

وقال فى رسالة * :

(الرجز المجزوء)

تهتز فى حلي الندى   وتم عن نفس الصبا

عادت بريعان الشـبا (م)   ب وجددت عهـد الصبا

---

* ذ ، ق س ٢ فصل ابن عمار

-٤٣-

كتب اليه كاتبه ابو الحسن بن الجد * :

(المتقارب)

تقدمت مستأذناً في الرحيل　　بعذر جلي وهم دخيل

وما اخترت لكنها الحادثا (م)　　ت تروح وتغدو .....

وإلا فمن ذا الذى يرتضي　　هجيراً على سحر او أصيل

فهل لوداع العلا فسحة　　أبل بأندائها من غليلي

٥ وألبسها جنة من زما (م)　　نى وأصحبها عوذة في .....

بقيت ولا زلت فى عزة　　عديم القرين عديم المثيل

فأجابه ابن عمار :

كتبت ..... نى فى الرحيل　　بعـــذر جلي لهم دخيـــل

ولم تدر أن فراق فراق الحيا (م)　　ة ليسهل عند فراق الخليل

وليس الى قطع تلك السبيـ (م)　　ـل دون مرافقة من سبيل

فانى في المنع عين الجوا (م)　　د وإنى فى السمح عين البخيل

* * * *

* ديوان ابن عمار

٤٣

وكتب الى ذى الوزارتين أبى الحسن بن اليسع وقد آب من إحدى سفراته * :

(الكامل)

أهلا بقربك لو يطول مقـــام
وكفى بطيفك لو يزور منام

آذنت بالعهـــد الجديـــد وإنما
قرب المدى دون اللقاء هيام

وكتبت توهن للنوى أميالها
هيهات أميال النوى أعوام

لولا الصحيفة ماسلوت فانهـــا
قد قام منها ما علمت مقام

وصلت إلى مع الأصيل وإنما
وصلت إلي حديقة ومـــدام

برد من الكافور نمنم درجه
مسكاً وزر عليه منه ختام

من قطعة هى قطعة الديباج أو
هي قطعة البستان وهي كلام

* ق ص ١٠٧

وكأن أسطرها غصون أراكة
ومن القوافي فوقهن حمـــام

نادمتها والراح يلهب كأسها
عذب اللمى ساجي الجفون غلام

وتشاكلا حسناً فعانق قـــده
ألف وعارض عارضيـــه لام

إيه أبا الحسن اختبرت فقل لنا
ماذا تقول اذا استشق عصام

هل حاد بي من مذهب عن واجب
أو لم يقـــدني للجميل ذمام

أوهل تلجلج منطقي في حجة
لو كان تحت يد القضاء خصام

والسعي مشكور وفيات الغنى
مرجوة والي الضيـــاء ظـــلام

ولقد جريت الى التي قلدتها
جرياً تباعد عنه فيه مـــلام

فوردت لم تلحق بغيبك ريبة
وصدرت لم يعلق بسعيك ذام

وعلى مسفرك السلام تحية
ولقـــد تقل تحية وســـلام

-٤٤-

كتب ابن رزين الى ابن عمار يستدعيه الى مجلس أنس * :

(الطويل)

ضمان على الأيام أن أبلغ المنى
اذا كنت في ودى مسراً ومعلنا

فلو تسأل الايام من هو مفرد
بود ابن عمار لقلت لهم أنـــا

فان حالت الأيام بيني وبينه
فكيف يطيب العيش او يحصل المنى

فلما كان الغد ورد ابن عمار ومعه الجواب وقد تأخر في حمله على عادته فى التروى في النظم :

(الطويل)

هصـــرت لي الآمال طيبة الجنى
وسوغتني الاحوال مقبلة الدنـــا

وألبستني النعمى أغض من الندى
وأجمل من وشي الربيـع وأحسنا

وكم ليلة أحظيتني بحضورهـــا
فبت سميراً للسنـــاء وللسنـــا

---

* ن جـ٢ صـ١٨٧ ؛ مط و ٣١

أعلل نفسي بالمكارم والعلا
وأذنى وكفى بالغناء وبالغــنى

سأقرن بالتمويل ذكرك كلما
تماورت الأسماء غيرك والكنى

لأوسعتني قولا وطولا كلاهما
يطوق أعناقاً ويحرس ألســنا

وشرفتني من قطعة الروض بالتي
تنأثر فيها الطبع روضاً وســوسناً

تروق بجيد الملك عقداً مرصعاً
وتزهو على عطفيه برداً مزينا

فدم هكذا يافارس الدست والوغى
لتطعن طوراً بالكلام وبالقنـــا

٧ ـ في مط : ورداً وسوسنا

٨ ـ في مط : وتزهي على عطفيه وشياً مفننا

- ٤٥ -

ومر على مقربة من منازل ابن رزين في حدى سفراته دون أن يعرج عليها فعاتبه على ذلك ، فكتب اليه ابن عمار * :

(البسيط)

لقاؤك النجح لو أعقبته سفرى
ووجهك الصبح لو أقبلته نظرى

وقصرك البيت لو أنى قصدت به
حجى وبمناك منه موضع الحجر

لم تثن عنك عنانى سلوة خطرت
على فؤادى ولا سمعى ولا بصرى

لكن عدتنى عنكم خجلة عرضت
كفانى العذر فيها بيت معتذر

(لو اختصرتم من الاحسان زرتكم
والعذب يهجر للافراط في الخصر)

* ذ قس ٢ فصل ابن عمار
٥ ـ البيت لابي العلاء المعري

-٤٦-

وأهدى الى ابن ليون تفاحاً وأجاصاً وكتب معها * :

(الكامل)

خذها كما سفرت اليك خدود
أو أرجست في راحتيك نهود

حذراً من التفاح ثراً بينهـا
ولها باغصان الجنان عقود

وشفعت بالاجاص قصداً إنه
شكل الجمال وحده المحدود

عذراً اليك فانما هي أوجه
بيض تقابلها عيون سود

إيه فعندي من فراقك لوعة
يعزى اليها ثابت ويزيد

انظرت من صومي بعزتك التي
كانت هلالا كان منه العيد

لله ليلتنا التي من أجلها
هذا الزمان بمثلها محسود

---

* ذ قس ٢ فصل : ابن عمار

-٤٧-

واستهدى منه بعض اخوانه خمراً فبعث بها مع تفاحتين ورمانتين وكتب مع ذلك * :

(الوافر)

خذوها مثلما استهديتموها | عروساً لا تزف الى اللئام
ودونكم بها ثديي فتاة | أضفت اليها خدي غلام

٤٨

وكان في ضيافة المعتصم صاحب المرية بالمنية الصمادحية ، فلما أزمع الرحيل استسرحه بهذه الابيات * :

(الكامل المجزوء المذيل)

ياواثقاً وصل السما (م) ح الجود في فضل السماح

ومطابقاً يأتي وجو (م) ه الجد من طرق المزاح

أسرفت في بر الضيا (م) ف فجد قليلا بالسراح

* ـ ذ قس ٢ فصل ابن عمار

٤٩

وقال مخاطباً المعتصم بن صمادح على لسان شعراء مدحوه فابطأ عنهم عطاؤه * :

يا أيها الملك الذى شـــاد العلا
معن أبوه وخاله المنصور

بفناء قصـــرك عصبة أدبيه
لا زال وهو بجمعهم معمور

زفوا اليك بنات افكار لهم
واستبطأوك فهل لهن مهور

* في ح ص ١٧٤

٥٠

وقال حين أزمع الرحيل من حضرة المعتصم بن صمادح في المرية ، جواباً على ثلاثة الابيات التي ودعه فيها المعتصم ، وقال ابن خاقان في قلائده إنه قالها ارتجالا * :

(الطويل)

ألفظك أم كأس الرحيـــق المعتق
وخطك أم روض الربيـع المنمق

ونظمك أم سلك من الدر ناصع
يروق على جيد العروس المطوق

بعثت بهـــا ياقطعة الروض قطعة
شممت بهـــا عرف النسيم المخلق

ثلاثة أبيات ، وهيهات إنمـــا
بعثت بها الجوزاء في صفح مهرق

هي السحر أسرى في النفوس من الهوى
وكيف يكون السحر في لفظ منتق

أمعتصماً باللـــه والحرب ترتمي
بأبطالهـــا والخيل بالخيل تلتقي

* رويت في ق ص ٩٧ ، ثلاثة ابيات في مط ، ورويت ايضاً في ذ . ق ١ م فصل ابن عمار
٣ - في ذ : بعثت ، بدل : شممت

دعتني المطايا للرحيل وإنني
لأفزع من ذكر النوى والتفرق
وإني وان غربت عنك فانما
جبينك شمسي والمرية مشــرقي

٧ - في ذ(القرويين) : لأفرق ، بدل : لأفزع
٨ = في ذ : إذ ، بدل : وان

٥١

وكتب اليه المعتصم صاحب المرية يوماً بنثر وشعر يقول فيه * :

(الطويل)

وزهدني في الناس معرفتي بهم
وطول اختباري صاحباً بعد صاحب

فلم ترني الأيام خلا تسرني
مباديه إلا ساءني في العواقب

ولاقلت أرجوه لدفع ملمة
من الدهر الاكان إحدى المصائب

فاجابه ابن عمار بقوله :

فديتك لاتزهد فثم بقية
سترغب فيها عند وقع التجارب

وأبق على الخلصان إن لديهم
على البدء كرات بحسن العواقب

تكنفتني بالنثر والنظم جاهدا
وسقت على القول من كل جانب

---

* رويت هـذه القصيدة في : ذ ، قـ ٢ ، فصل ابن عمار ، في مط ، و ١٣١ ، وفي ق ، س ٥١ .

(٣) في ذ : عاتباً ، بدل : جاهداً .

وقد كان لي لو شئت رد وإنما
أجر لساني ذكر تلك المواهب

ولا بد من شكوى ولو بتنفس
يسكن من حر الحشى والترائب

كتبت على رسمي وبعد نسيئة
قرأت جوابي من سطور المواكب

ثلاثة أبيات وهيهات إنما
بعثت إلى حربي ثلاث كتائب

وكيف يلذ العيش في عتب سيد
وما لذ لي يوم على عتب صاحب

وقبل جرت عن بعض كتبي جفوة
ألحت على وجهي بغمز الحواجب

سلكت سبيلي للزيارة إثرها
فقابلت دفعاً في صدور الركائب

وما كنت مرتاداً ولكن انفحة
تعودت من ريحان تلك الضرائب

---

٤ ـ في ذ : بي ، بدل : لي .
٥ ـ في مط : يخفف ، بدل : يسكن ، في ذ (الرباط) : يبرد .
٨ ـ في ذ : من عتب ، بدل : في عتب ، وما لذتي ، بدل : وما لذلي

ولو لمت لي من سمائك برقة
ركبت إلى مغناك هوج الجنائب

فقبلت من يمناك أعذب مورد
وقضيت من لقياك أوكد واجب

وأبت خفيف الظهر الا من النوى
وخليت للعافي ثقال الحقائب

سواك يعي قول الوشاة من العدى
وغيرك يقضي بالظنون الكواذب

١٣- في مط : مشرع ، بدل : مورد .
١٤- في ذ (القرويين) : الجنائب ، بدل : الحقائب .

٥٢

ومر قرب مسكن ابي عيسى بن لبون دون أن يعرج عليه :
فكتب اليه ابو عيسى قصيدة عاتبه فيها أولها :

(الكامل)

ختمت بعصرك أعصر الأجواد
وعنت لذكرك ألسن الوراد

فاجابه ابن عمار * :

(الكامل)

عطلت من حلي السروج جوادی
وسلبت أعناق الرجال صعادی
ونذيت عزمي عن مسير هزنی
سعدی اليه وحثي إسعادی
وسلبت من ثوب المروءة والوفا
ثوبی وحلت على بني عباد
إن لم أحلك من فؤادی منزلا
ينبيك أنك مالك لقيادی
وأخص جانبك الرفيع بخدمة
تسقيك صفو أحبة وأعاد

* رويت في ق ص ١٠٤ ، بيتان منها فى الخريدة و١٦٠ ، ٣٩ بيتاً في ذ.

وأرد بذكرك من ثاني روضة
غناء حالية بنور ودادى

حتى تبين أن غرسك قددنا
يجنى وزرعك قد أنى لحصـاد

يا سيدى وأنا الذي ناديتـه
لرضى فلبى منك خير مناد

أعطاك فضل الابتداء ولو جرى
ظلم لأنكر أن تكون البادى

لله در عقيلة أبرزتهـا
من خدر فكرك في حلي الانشاد

فرعاء عاطلة الذوائب والامى
غيداء حالية الطلى والهادي

خلصت إلى مع المساء فعارضت
صلة الحبيب أتى بلا ميعاد

خط من النظم البديع أفادنى
حظ الكرام وخطة الامجاد

وشي سخت يدك الصناع برقه
فكسوتنيه مذهباً بأياد

١٢- في ذ (القرويين) : وصلت ، بدل : خلصت .

يفدى الصحيفة ناظرى فبياضها
ببياضه وسوادها بسواد

أدى تحيتك الزكية طيها
كافور قرطاس ومسك مداد

ولقد نعين لو أعانت قدرة
حسن الجزاء بها وهز النادى

لكن عجزت فما استقل بنشأتى
ماء الفرات ولا ثرى بغداد

عذراً فنيك لكل طالب حجة
فهم ألد روجه عذر باد

بك فاخر القلم القصير فطاول الـ (م)
ـرمح الطويل كتابة بطراد

فلك الفصاحة اوليفك كلما اسـ (م)
ـتمطيت متني منبر وجواد

ثنيت عليك حلى الوزارة مثلما
حمل الحسام عليك ثني نجاد

وتتوجت منك القيادة بالذى
ترك الرياسة مهنة القواد

أنت الحلال الحلو رق طبيعة
وصفا مزاجاً كالسحاب الغادى

من معشر تتشرف الاذوى بهم
كتشرف الايام بالأعياد

جلوا فحلوا في الأنام مكانة
كمكانة الآلاف في الأعداد

أفديك من حر تعبد بره
شكرى وقل له العدى والعادى

فلقد ظفرت من اقتبالك بالمنى
وبلغت أقصى غايتي ومرادى

وأرحت من ندبي بعهدك في ندى
ظل فبت على وثير وساد

وشددت منك يدى بعلق مظنة
ونفضتها بزعاف أنكاد

متعللين على الوفاء بعلة
ضحك الطبيب لها مع العواد

جنحوا الى ظلمي فسمت جماحهم
ولقيت شدتهم بلين قياد

واستبطنوا حقداً وبين جوانحى
طبع يسل سخائم الاحقاد
ولكم دعي فى الاخاء أعرته
جذب ابن سفيان بطبع زياد
حتى اذا رفض الاخاء رفضته
واعتضت عنه بطيب الميلاد
لاذنب لي فى طرد ساْمة الهوى
منه على السرح الوبيل الصادى
أنا قد رضيتك فارضني وأعدنى
إن كنت محتاجاً الى الاعداد
إنى لمن إن دعت لنصرة
يوماً بساطى حجة وجلاد
أذكيت دونك للعدى حدق القنا
وخصمت عنك بألسن الأغماد
صلني أصلك وصل فديتك بى أصل
بك واعتمدنى أتخذك عمادي
إيه وقلت الى الوفاء محركاً
إيه فما خطرت بعطف جماد
ولأن بلغت الى رضاى فرعا
الفيتني لرضاك بالمرصاد

٣٣ - في ذ : كوامن ، بدل : سخائم

وعلى تظاهرنا الضمان بقلة الـ (م)
أعداء ثم بكثرة الحساد

وزعمت تظلم ساحة ما بيننا
ظلماً وصبح العدل عندك باد

كلا فما التسويف من شيمي ولا
لي الجميل بعادة من عادى

وهل اكتوت بهواك الالفية
أحلى بعيني من لذيذ رقادى

أخطرتها و.... بعـد الى التي
يدعو المطي لها ويشدو الحادى

لابد من ذاك السفر وإن عدت
عنه الليالي إنهن عواد

سفر إن استبعدته فسأمتطي
حرصى وأجعل من ثنائك زادى

خذها نتيجة منكر لولادها
برم بها قال لها متفاد

حذر من الرد المخل فانما
أهدى الزيوف الى يدى نقاد

٤٦- في ذ (الرباط) : التوت ، بدل : اكتوت .

٥٣

وقال يخاطب بني عبد العزيز وقد اجتاز بهم فأخرجوا اليه تضييفاً وبراً مع قوم أغفال ولم يلقوه فكتب اليهم *:

تناهيتم في برنا لوسمحتم
بوجه صديق في اللقاء وسيم
وسلسلتم راح البشاشة بيننا
فما ضر لوساعدتم بنديم
ضننتم بأعلاق الرجال على النوى
فلم تصلونا منهم بزعيم
سألتمس العذر الجميل عن العلا
وأحتال للفضل احتيال كريم
وأثني على روض الطلاقة بالحيا
وإن لم أفز من نشره بنسيم
ولكن سأستعدي الوفاء وأقتضي
سماحك بالأنس اقتضاء غريم

---

* رويت في ق : ص١١٥ ، وفي خ ج١١ ، و١٦٨ مع خلاف في الترتيب ، وخمسة ابيات في ذ قس ٢ فصل ابن عمار .

٢ - في ق : بالجنى ، بدل : في الحيا .

٥٤

وكتب الى المعتمد في حال أوجبت إيحاشاً * :

(الطويل)

أصدق ظني ام أصيخ الى صحبي
وأقضي عزمي أم أعوج مع الركب

اذا انقدت مع رأيي مشيت مع الهوى
وإن أتعقبه نكصت على عقبي

وإني لتثنيني اليك مودة
يغيرها ما قد تعرض من ذنبي

فما أغرب الأيام فيما قضت به
تريني بعدي عنك آنس من قربي

أخافك للحق الذي لك في دمي
وأرجوك للحب الذي في قلبي

وكم قد فرت عناك بي من ضريبة
ولا بد يوماً أن يفلل من غربي

وأعلم أن العفو منك سجية
فلم يبق إلا أن تخفف من عتبي

* - ح ص ١٥٩ رواية ابي الطاهر التميمي ؛ سبعة ابيات في ذ ق ـ ٢ .
٤ - في ذ : فما اعجب ، بدل : فما اغرب .

ولي حسنات لو أمت ببعضها
الى الدهر لم يرتع بنائبة سربي

ولا بد ما بيني وبينك من . .
يطبقها ما بين شـــرق الى غرب

فاجابه المعتمد بقوله :

(الطويل)

تقدم الى ما اعتدت عندي من الرحب
ورد تلقك العتبي حجاباً عن العتب

متى تلقني تلق الذي قــد بلوته
صفوحاً عن الجاني رؤوفاً على الصحب

سأوليك مني ما عهدت من الرضى
وأصفح عما كان إن كان من ذنب

فما أشعر الرحمن قلبي قسوة
ولا صار نسيان الاذمة من شعبي

٥ تكلفته أبغي بــه لك سلوة
وكيف يعاني الشعر مشترك اللب

٥٥

وكتب الى المعتمد وقد ارتهن أمير برشلونة رايموند ابنه الرشيد لمال توقف له عنده، فغضب المعتمد على ابن عمار ظاناً أن له فى ذلك سعياً * :

(الطويل)

أأركب قصدى ام أعوج مع اركب
فقد صرت من أمرى على مركب صعب

وأصبحت لا أدرى أفي البعد راحتي
فأجعله حظى أم الخير فى القرب

على أنني أدرى بأنك مؤثر
على كل حال ما يزحزح من كربى

أيظلم في عينى كذا قمر الدجى
وتنبو بكفي شفرة الصارم العضب

حنانيك فيمن أنت شاهد جده
وليس له حاشا انتصاحك من حسب

وما جئت شيئاً فيه بغى لطالب
يضاف به رأى الى الضعف والعجب

* ح ص١٦٦ رواية : ابي الطاهر التميمي

سوى أنني أسلمتني لملمـــة
فلات بها حدى وكسرت من غربى

أما أنه لولا عوارفك الـــتي
جرت في جرى الماء في الغصن الرطب

لما سمت نفسي ما أسوم من الاذى
ولا قلت أن الذنب فيما جرى ذنبي

سأستمنح الرحمى لديك ضـراعة
واسأل سقياً من تجاوزك العذب

وإن تفحتني من سمائك حرجف
سأهتف يارد النسيم على قلبي

فأجابه المعتمد :

(الطويل)

لدى لك العتبى تزاح عن العتب
وسعيك عندى لايضاف الى ذنب

وأعزز علينا أن تصيبك وحشة
وأنسك ماتدريه فيك من الحب

فدع عنك سوء الظن بى وتَعدّه
الى غيره فهو الممكن في القلب

قريضك قد أبدى توحش جانب
فجاوبت تأ يساً وعلمك بى حسبي

تكلفته أبغى بــه لك سلوة
وكيف يعانى الشعر مشترك اللب

٥٦

وعندما ساءت الاحوال بين المعتمد وابن عمار خاطب الأول الثاني عاتباً ومتمثلا بهذين البيتين * :

(الطويل)

تغير لي فيمن تغير حارث
وكل خليل غيرته الحوادث

أحارث إن شوركت فيك فطالما
نعمنا وما بيني وبينك ثالث

فاجابه ابن عمار بقوله :

(الطويل)

لك المثل الأعلى وما أنا حارث
ولا أنا ممن غيرته الحوادث

ولا شاركتك الشمس في وإنه
لينأى بحظي منك ثان وثالث

فديتك ما للبشر لم يسر برقه
ولا نفحت تلك السجايا الدمائث

أظن الذي بيني وبينك أذهبت
حلاوته عني الرجال الخبائث

---

* - ذ ق-٢ فصل ابن عمار ، ح ص-١٦٣

تنكرت لا أنى لفضلك ناكر
لدى ولا أنى لعهدك ناكث

ولكن ظنون ساعدتها نمائم
كما ساعدت مثنى المثانى المثالث

أبعد مضت خمس وعشرون حجة
تجافت بنا تلك الخطوب الكوارث

مضت لم ترب مني أمور شوائب
ولا تليت عنى مساع خبائث

حللت يداً بى هكذا وتركتنى
نهاباً وللأيام أيد عوابث

وهل أنا إلا عبد طاعتك التي
إذا مت عنها قام بعدى وارث

أعد نظراً لا توهن الرأى إنه
قديماً نبا هاف وأدرك رائث

ستذكرنى إن بان حبلي وأصبحت
تشن بكفيك الحبال الرثائث

وتطلبنى إن غاب للرأى حاضر
وقد غاب منى للخواطر باعث

أعوذ بعهد نطته بك أن ترى
تحل عراه العاقدات النوافث

٥٧

وكتب الى محمد بن عبد الرحمن بن طاهر اثناء ما وقع بينهما رقمة عتاب وختمها بهذه الابيات * :

(الكامل)

عندى حديث لو سمعت قليلا
ولدى نصح إن أردت قبولا

يا راكباً ظهر النجى وراكضاً
في حلبتيه أما اعتقدت نزولا

لله درك لو طلبت حقيقتي
لوجدتنى بدل العدو خليلا

خذ من عنان هواى يوماً للنهى
وانهج لرأيك في اللجاج سبيلا

٥ وأفق من الأنف الذى تمتده
عزا فقد يدع العزيز ذليلا

---

* ذ ق س٣ و٤

٥٨

وقال عندما نكث ابن عبد العزيز أمير بلنسية العهد الذى عاهد عليه ابن عمار وهو التخلي عن أحد الحصون لقاء اطلاق سراح ابن طاهر * :

(الكامل)

خبر بلنسية وكانت جنة
أن قد تدلت فى سواء النار

غدرت وفياً بالعهود وقلما
عثر الوفي سمى الى الغدار

يأأهلها من غائب أو حاضر
وقطينها من حاضر أو سار

جازوا بنى عبد العزيز فانهم
جروا اليكم اسوأ الأقدار

ثوروا بهم متأولين وقلدوا
ملكاً يقوم على العدو بثار

هذا محمد أو فهذا احمد
وكلاهما أهل لتلك الدار

---

* ـ ح ، ص١٦٩ ، في ذ ، ق ـ ٢ فصل ابن عمار

١ ـ في ذ : بشر ، بدل : خبر ، نزلت ، بدل : تدلت

جاء الوزير بها يكشف ذيلها
عن سوأة سوأى وعار عار

نكث اليمين وحاد عن سنن التقى
وقضى على الاقبــــال بالادبار

آوى لينصر من نبا المثوى به
ودهاه خذلان من الأنصار

بر اليمين ولم يعرض نفســه
ونفوسكم لمصـــارع الفجار

ماكنتم الا كأمة صالح
فرماكم من طاهر بقدار

هذا وخصكم باشأم طائر
ورمى ديارِكم باسوأ جار

لابد من مسح الجبين فانما
لطمته غدراً غير ذات سوار

هيهات يطمع بالنجـــاة لطالب
ساع اذا ونت الكواكب سار

كيف التفلت بالخديعة من يدى
رجل الحقيقة من بنى عمار

١٣ = في حاشية ذ ق ٢ (الرباط) و ٨٠ : بالأم ، بدل باشأم

رجل تطعمه الزمان فجاءه
طرفين في الاحلاء والامرار

سلس القياد الى الجميل فان يهج
فدع العنان لهبة التيار

طبن باغراض الامور مجرب
فطن لاسرار المكائد دار

ماض اذا برزت اليه مصمم
هون اذا التفت عليه مدار

مازال مذ عقدت يداه إزاره
.... فادرك خمسة الاشبار

كشاف مظلمة وسائس أمة
نفاع أهل زمانه الضرار

محيا لاشمط راضع ثدى الوغى
منه وطود في القنا الخطار

شراب أكواس المدام وتارة
شراب أكواس الدم المورار

جرار اذيال القنا ظنوا به
قد زاركم في الجحفل الجرار

وكأنكم بنجومه ورجومه
تهوى اليكم من سماء غبار

وأنا النصيح فإن قبلتم فاركوا
آثارها خبراً من الأخبار

قوموا الى الدار الخبيثة فانهوا
تلك الذخائر من خبايا الدار

وتعوضوا من صفرة خبثية
بأغر وضاح الجبين مدار

٥٩

وقال حين مقامه بمرسية يهجو المعتمد بن عباد وزوجه اعتماد ازميكية * :

(المتقارب)

ألا حى بالغرب حياً حلالا
أناخوا جمالا وحازوا جمالا

وعرج بيومين أم القرى
ونم فعسى ان تراها خيالا

لتسأل عن ساكنيها الرما (م)
د ولم تر للنار فيها اشتعالا

أبا فارس الخيل يازيدها
حميت الحمى وأبحت العيالا

اراك تورى بحب النسا (م)
ء وقدما عهدك تهوى الرجالا

تخيرتها من بنات الهجا (م)
ن رميكية ما تساوى عقالا

---

* - ٧ ابيات في م٨ ٤٤ ، ٩ ابيات في خ ، و١١ بيتاً في ع.د ج٢

٤ - في ع : فيا عامر ، بدل : ابا فارس

٦ - في ع : الهجين ، بدل : الهجان

فجاءت بكل قصير العذا (م)
ر لئيم النجارين عماً وخالا

بصفر الوجوه كأن استها
رماهم فجاءوا حيارى كسالا

قصـــار القدود ولكنهم
أقاموا عليها قروناً طوالا

أتذكر أيامنا فى الصبا
وأنت اذا لحت كنت الهلالا

أعانق منك القضيب الرطيـ (م)
ـب وأرشف من فيك ماء زلالا

وأقنع منك بدون الحرا (م)
م فتقسم جهدك أن لا حلالا

سأكشف عرضك شيئاً فشيـ (م)
ـئاً وأهتك سترك حالا فحالا

٦٠

وكان له أيام اعتصابه برسيه خاتمان ، أحدهما للمعتمد والآخر لألفونش السادس ، فتندر بذلك الوزير ابن عبد العزيز وابن طاهر ، فلما وصل خبر ذلك الى ابن عمار قال * :

(الكامل)

قل للوزير وليس رأى وزير
ان تتبع التدبير بالتندير

ان الوزارة مذ لبست رداءها
رفعت على التغيير والتزوير

ان الوزارة لو سلكت سبيلها
وقف على التعزير والتوقير

وأرى الفكاهة جل ماتأتى به
رحماك في التعجيز والتصدير

بلغت دعابتك التى أهديتها
فى خاتم التأمين والتأمير

وأظنها للطاهرى فان تكن
فجديرة التقديس والتطهير

---

* في ح ص١٦٢ ، ذ ق٢ ، فصل ابن عمار ، ع ج٢ ص٩٧

٤ ـ في ع : في التصدير والتظفير ، بدل : في التعجيز والتصدير

٦ ـ في ذ (القرويين) ق ٢ : فخليقه : بدل : فجدير :

ولعل يوماً أن يصير نفسه
في طيبة التطبيب والتنزير
فرسا رهان أنتما فتجاريا
لنقول في التقديم والتأخير
واذا سلكت سبيله فحقيقة
كي تتبع التطفير بالتصفير
وترى بلنسية وأنت قدارها
سينالها التدمير من تدمير

٦١

ونزل ابن عمار في بعض حركاته بحصن شقورة فانقبضوا عن لقائه استيحاشاً منه فكتب اليهم * :

(الطويل)

أإخواننا هل حال من دوننا ستر ... أحالكم أم وحشة جرها الدهر

بخلتم بلقيانا وكان نزولنا ... على جفوة منكم وإن عظم البر

وما هو الا مقطع كهوائكم ... عصيب وخلق مثل منزلكم وعر

تقوا بي اذا عز اللقاء فما اعترى ... الى شيمتي غدر ولا بيدى سحر

* ذ ، ق ٢ فصل ابن عمار

٦٢

وحين مقامه بسرقسطة وقد بلغه أن أهلها يعيبون عليه معاقرة الراح ، فقـــال * :

نقمتم على الراح أدمن شربها   وقلتم فتى لهو وليس فتى جد
ومن ذا الذى قاد الجياد الى الوغى   سواى ومن أعطى الكثير ولم يكد
فديتكم لو تعلموا السر إنه   قليتكم جهدى فابعدتكم جهدى

* ق ر٩٥٠ ، ع ص١٠٤ ، ح ، فصل ابن عمار

- في ع : مجد ، بدل : جد

٢ - في ع : كثير ، بدل : الكثير

٣ - في ع : لم تفهموا ، بدل : لو تعلموا

٦٣

وكان ابن عمار في مجلس المؤتمن بن هود ، فدخل غلام متدرع يستشير المؤتمن بن هود فى الخروج لموضع بعثه اليه فطلب منه أن يخلع درعه ويسقيهم الخمر ، فأمر المؤتمن الغلام أن يطيعه ففعل ، وفى ذلك يقول ابن عمار * :

وهويته يسقي المدام كأنه
قمر يدور بكوكب في مجلس
متأرج الحركات تندى ريحه
كالغصن هزته الصبا بتنفس
يسعى بكأس من أنامل سوسن
ويدير أخرى من محاجر نرجس
ياحامل السيف الطويل نجاده
ومصرف الفرس القصير المحبس
إياك بادرة الوغى من فارس
خشن القناع على عذار أملس
جهم وإن حسر اللثام فانما
كشف الظلام عن النهار المشمس

---

* ق ص ٩٦ ، ن ج ٢ ص ١٧٧ ، ذ ، قد

٤ ـ في ن : يضع السنان على العذار الاملس .

٥ ـ فى ذ (رباط) : المرتدى ، بدل : نجاده

يطفى ويلعب فى دلال عذاره
كالمهر يمرح فى الاجام المجرس
سلم فقد قصف القنا غصن النقا
وسطا بليث الغاب ظبي المكنس
غنا بكأسك قد كفتنا مقلة
حوراء قائمة بسكر المجلس

٦٤

وال في وصف غلام * :

(الـكامل)

وأغيد من ظباء الروم عاط
بسالفتيه من دمعي فريـــد
نبيل الخلق جافي الخلق عبد
هو المولى ونحن له عبيد
قسا قلباً وسن عليّ درعاً
فباطنه وظـاهره حـديد
بكيت وقد دنا ونأى رضاه
وقد يبكي من الطرب الجليد
وإن فتى تملـكه بنقد
وأحرز رقه لفتى سعيد

* ـ م ٨٨ ؛ و ٢٠١ ، ق ٤٠ ؛ ٩ ؛ وط ذ ق ٢ ، فصل ابن عمار ، السحر والشعر

٦٥

وسجن المؤتمن يوماً غلاماً كان له في نفس ابن عمار موقع حسن ، فتخلف ابن عمار عن الركوب للقصر وكتب اليه * :

(الطويل)

انا المطبق المسجون لا من سجنته
وأطبقته فانظر لعبديك أو دع

حرام حرام أن تراني عين من
تراه فان شئت ارتجاعي فارجع

ويا حسن حال الود إن سمحت يد
ولقيت فيها بالشفيع المشفع

---

* ذ ق ـ ٢ ، فصل ابن عمار

٦٦

وقال في سجنه فى شقورة مخاطباً الوزير ابا جعفر بن جرج حين اجتاز بتلك البقاع * :

(المتقارب)

كأنى اراك أبا جعفر   تقول وتبسم نحوى مشيرا

سفرت ليرجع هـذا معى   وزيراً فلم أر الا أسيرا

وهل يملك المرء من أمره   فتيلا فينفـــذه أم . . . .

هو القدر الحتم يعمى الفتى   وإن كان بالدهر طباً بصيرا

---

* ذ ق ٢ فصل ابن عمار .

٦٧

وكتب فى مدة اعتقاله عند صاحب شقورة الى ابى الفضل بن حسداى يصف موضع اعتقاله :

(الكامل الحذاء)

أدرك أخاك ولو بقافية
كالطل يوقظ نائم الزهر

فلقد تقاذفت الركاب بـه
فى غـير موماة ولا بحر

طمحت صحابته بلا سنة
وتساقطوا سكرى بلا خمر

بمعارج أدت إلى جرد
حتي من الأنواء والقطر

عال كان الجن إذ مردت
جعلته مرقاة الى النسر

وحش تناكرت الوجوه به
حتى استربت بصفحة البدر

قصـر تمهد بين خافقتي
نسرين من فلك ومن وكر

---

* ـ ق صـ ١٠٤ ، ذ قصـ ٢ فصل ابن عمار . ديوان ابن عمار .

متحير سال الوقار على
عطفيه من كبر ومن كبر

ملكت عنان الريح راحته
فجيادها من تحته تجرى

مأوى العز وقد نصحت فان
تهمل فقد أبليت فى العذر

ووصلت خدمة قاطع سببي
وأطعت أمر مضيع أمرى

دع ذا وصلنا غير مؤتمر
مستأثرا بالحمـــد والشكر

واكتبت الينا بنها ليد
تمحو الذي كتب يد الدهر

---

١٠ - في ق : يمهل ، بدل تهمل

٦٨

وكتب عندما كان سجيناً فى شقوره الى المطرز :

(الطويل)

تراءى بعينى إن أردت مبرتى

وسبب الى الحسنى ولو بقسيم

فما شم عرف المسك دون تنشق

ولا اهتز عطف الغصن دون نسيم

* ذ ق ٢ فصل ابن عمار

٦٩

وكتب الى صاحب المريه في مدة اعتقاله في شقورة * :

(الرجز)

أصبحت فى السوق ينادى على
رأسي بأنواع من المال

فهل فتى يبتاعني ماجـــد
أخدمه مـــدة إمهـــالي

تالله لاجار على نقـــده
من ضمني بالثمن الغالي

أربح بها مولاى من صفقة
في سلمة من ترك الغـــال

* ذ ، ق ٢ ، فصل ابن عباد ، بيتان في ق ص ١٠٣ .

٧٠

وكتب الى المعتمد فى مدة اعتقاله بشقورة * :

نفسى نحن الى فداء   تفديك نفسى من شراء
فاسبق بنقدك وعدهم   مسترخصاً لي بالغلاء
ثم امض في على اختيا (م)   رك من فناء او بقاء
والله ما أدرى إذا   قالوا غدا يوم اللقاء
ما أقتل الحالين لي   إن كان خوفي اوحيائي

* ـ ذ فـ ٢ قصل ابن عمار ، ح : فصل ابن عمار .

٧١

وقال وهو في سجن شتورة ، وقد استدعى نورة يستنظف بها فتعذرت عليه فاستدعى موسى فأتى بها * :

(المجتث)

بؤسى شقورة عندي
أربى على كل بؤسى

فقدت هرون فيها
فظلت أطلب موسى

* مع ص ١٢٤

٧٢

وكتب الى الراضي بن المعتمد * :

(الكامل)

قالوا أتى الراضى فقلت لعلها
خلعت عليه من صفات أبيه

فال جرى فعسى المؤيد واهباً
لي من رضاه ومن أمان أخيه

قالوا نعم فوضعت خدى في الثرى
شكراً له وتيمناً ببنيه

يا ايها الراضي وإن لم يلقني
من صفحة الراضي بما أدريه

هبك احتجبت لوجه عذر بين
بذل الشفاعة أى عذر فيه

سهل على يدك الكريمة أحرفاً
فيمن أسرت فتنثني تفديه

* في ق ص٩٦ ؛ في ذ ق٢ فصل ابن عمار ، في ح ، فصل ابن عمار ، في ع ج١١ص١٠٩

١ - في ذ (القرويين) سمات ، بدل : صفات . وكذلك في ح .

٦ - في ذ (القرويين : خفيف ، بدل : سهل .

٧٣

وكتب من سجنه باشبيليه الى الرشيد بن المعتمد يطلب شفاعته له لدى أبيه * :

(الكامل)

قل لبرق الغمام ظاهر بريدي
قاصداً بالسلام قصر الرشـيد

فتقلب في جوه كفؤادي
وتناثر في صحنه كالفريد

وانتحب في صلاصل الرعد تحكي
ضجتي في سلاسـلي وقيودي

فاذا ما اجتلاك او قال ماذا
قلت : انى رسول بعض العبيد

بعض من أبعدته عنك الليالي
فاجتنى طاعـة المحب البعيـد

فجزاك الاله من ملك حر (م)
ر بقاء التمكين والتمهيد

من مطيـع عهد الوفاء مطاع
وودود على النوى مودود

---

* ذ قـ٢ فصل ابن عمار ، ع ص١١١ ، ح ص١٦٧ .

كنت أشدو عليك يادوحة المجـ (م)
د ويا روضة السـندى والجود
إذ جناحى ند بظلك طلق
ولســانى رطب على التغريد
وانا اليوم تحت ظل عقاب
اقوة محوة الجناح صيود
أتقيها بناظر خافق اللحـ (م)
ظ مروع وخاطر مرؤود
غير أنى سأصطفي لك جهدى
من ثناء طيب وذكر حميد
في قليل من القوافي كثير
وذلول من المعانى شرود
كلمات كأنها الدر نظماً
طوقت منك أى طوق وجيد
أنت بدر النجوم تحت سنى الشمـ (م)
س أبيكم على سماء السعود
أنت ريحانة العلى لبنى عبـ (م)
باد السادة الكرام الصيد
أنت إما اعترضتم درة التا (م)
ج فرند الحسام وسطى الفريد

---

١٢ - في ذ (القرويين) : مجيد ، بدل : حميد .

وإذا ما مدحتم نكتة الخط . .　　(م)
ـبة قصد الحديث بيت القصيد

واذا ما ركبتم الخيل صدر ا　　(م)
جيش عين اللواء قلب الحديد

أنت فيهم إن يعتموا ليلة القد　　(م)
ر وإذ يصبحون يوم العيـــد

فهنيئاً أبا الحسين خلال
وصفات جلت عن التحديد

وشفوف على الجميع بسن
وسناء الى سنى ممدود

وهنيئاً من المؤيد حظ
لامزيد عليه للمستزيـــد

لك في نفسه العزيزة حب
شاب فيه حلاوة التوحيد

وعلى لحظة النزيه طلوع
كطلوع البشير بالتأييـــد

واذا ما شدا بذكرك شاد
قال أحسنت هزة المستعيد

---

١٤ - في ذ (القرويين) : قلدت ، بدل : طوقت .

فعلام السرى وصبح رضاه
مع سنى وجهك الاغر السعيد

وإلى أين في الشفيع اذا ما
لم ألذ منك عنده بالرشيد

بفتى نازح المكان مطل
غائب الشخص ذى اعتناء عتيد

مشفق يستجيب لي من قريب
وانا أستغيثه من بعيد

لو أطلت علي رحمة عينيـ (م)
ـه انجلت شدتي وذاب حديدي

٧٤

وكتب من سجنه فى اشبيلية الى المأمون بن المعتمد يطلب شفاعته لدى أبيه * :

(الكامل)

هلا سألت شفاعة المأمون
أو قلت مافى نفسه يكفيني

ماضر لو نبهته بتحية
يسرى النسيم بها على دارين

وهززت منه فقد يقلب سيفه
يوم الجلاد الحين بعد الحين

مالي أبنه ناظراً لم يغف عن
حظيه من دنياه أومن دين

وأهز من عطف ثناه عطفه
حتى خشيت عليه فرط اللين

بيدى من المأمون أوثق عصمة
لو أن أمرى فى يد المأمون

أمرى الى مولى اليه أمره
وكفاه من فوق كفاه ودون

---

* ـ ذ قـ٢ فصل ابن عمار ، ع جـ٢ ص١١٠ ، ح فصل ابن عمار .

٧ ـ في ح : ملك ، بدل : مولى .

حيث استوى الخصمان حقاً والتقى
عز الغني بذلة المسكين

حيث طوى سر المهابة شخصه
لولا أسرة وجهه الميمون

جبل سما بذؤابتيه الى العلى
ورسا بهضبته على التمكين

متوقد الجنبات كلل دوحه
بجنى وفجر صفحه بعيون

دانت لأيدى المجتنين قطوفه
ودنا اليهم من ظلال غصون

ونأى لأبصار العصاة فانما
يتوهمون نعيمه بظنون

بحر اذا ركب العفاة سكونه
وهب الغنى في عزة وسكون

واذا طمى للذنب لم يسمع به
الا الدعاء يمان بالتأمين

كم أسكب العذب الفرات على فمى
يرمي يدى باللؤلؤ المكنون

* ١٤- في ذ (القرويين) : في نعمة ، بدل : في عزة .

واليوم قد أصبحت في غمراته
إن لم تغثني رحمة تنجيني

بعدت سواحله علي وأدركت
أمواجه فتلاعبت بسفيني

لاشك في أني غريق عبابه
إن لم يعد الفتح لي بيمين

يافتح جردها عناية فارس
بطل على حرب الولي أمين

متقدم من جده بكتيبة
مستظهر من لفظه بمكين

واقرن شجاعتك الكريمة عنده
بتواضع من عزة لاهون

في سكتة من هيبة وسكينة
وبضجة من رحمة وحنين

فأبوك من يغشي الملوك بساطه
شوسا فما يرمونه بعيون

مايعرض الجبار منه لحاجة
الا برفع يد ووضع جبين

---

٢٠ ـ في ح : درب على قصر ، بدل : بطل على حرب ، وكذلك في ع .
٢١ ـ في ذ (القرويين) : من لطفه ، بدل : من لفظه .

يافتح إن نازلته مستنزلا
فاهنأ بفتح من رضاه مبين

وليخلصن اليك من أعلاقه
علق يشد عليك كف ظنين

---

٢٢ - في ح : شجاعتك ، بدل : شفاعتك .

٢٣ - في ذ (القرويين) في شكة ، بدل : في سكنة .

٧٥

ومما قاله في أثناء انتقاله في إشبيلية * :

(المنسرح)

يقول قوم إن المؤيد قد
حال في فديتي على نقده

ياقوم ماذا الشراء ثانية
ترى لمعنى يريب من عنده

أوحشني والسماح عادته
سماحه بالغلاء في عبده

الحمد لله إن يكن حرجاً
فليس في مثله سوى حمده

وحيلة إن وصلت حضرته
جعلتها رغبة الى جنده

لو سامحوا في الفرند أرمقه
من طرفه لم أخفه من غمده

لكن على الغرب عارض رجل
مرتمياً بالشرار من زنده

---

* ح ص١٧٢ ؛ ذ ق٢ ، فصل ابن عمار ، ع ج٢ ص١١٩ .

أخضر يفتر من جوانبه
كالبحر في جزره وفى مده

يارب بشـــر برحمة وحياً
تؤنس من برقه ومن رعده

٧٦

وكتب الى المعتمد من سجنه يستعطفه ويقال إنها آخر قصيدة أرسلها اليه * :

(الطويل)

سجاياك إن عافيت أندى وأسمح
وعذرك إن عاقبت أجلي وأوضح

وإن كان بين الخطتين مزية
فأنت الى الأدنى من الله أجنح

حنانيك فى أخذى برأيك لاتطع
عداتى وان أثنوا علي وافصحوا

وماذا عسى الأعداء ان يتزيدوا
سوى أن ذنبي واضح متصحح

نعم لي ذنب غير أن لحلمه
صفات يزل الذنب عنها فيسفح

وإن رجائى أن عندك غيرما
يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح

---

* ق صـ١١٠ ، ذ قـ٢ فصل ابن عمار ، ١٩ بيتاً في مع صـ١٢٦ ، ١١ بيتا في ن جـ٥ صـ١٨ ، ١٩ بيتاً في ح صـ١٦٨ .

٠ - في ذ : ولو ، بدل : وإن || في ذ (الرباط) اجنح ، بدل : اجنح

٣ - في مع : عليك ، بدل : على

٤ - في ذ : الواشون ، بدل : الاعداء

ولم لا وقد أسلفت وداً وخدمة
يكران في ليل الخطايا فيصبح

وهبنى وقد أعقبت أعمال مفسد
أما تفسد الأعمال ثمة تصلح

أقلنى بما بينى وبينك من رضى
له نحو روح الله باب مفتح

وعف على آثار جرم جنيته
بهبة رحمى منك تمحو وتمصح

ولا تلفت رأي الوشاة وقولهم
فكل إناء بالذى فيه يرشح

سيأتيك في أمرى حديث وقد أتى
بزور بنى عبد العزيز موشح

وما ذاك الا ما علمت فانني
إذا ثبت لا أنفك آسو وأجرح

تخيلتهم لادر لله درهم
أشاروا تجاهي بالشمات وصرحوا

وقالوا سيجزيه فلان بفعله
فقلت وقد يعفو فلان ويصفح

١١ - في ذ : برأي ، بدل : بزور .
١٥ - في ذ : بذنبه ، بدل : بفعله .

ألا إن بطشاً للمؤيد يرتجى
ولـكن حلماً للمؤيد أرجح

وبين ضلوعى من هواه تميمة
ستنفع لو أن الحمام مجلح

سلام عليه كيف دار به الهوى
الي فيدنو أوعلى فينزح

ويهنيه إن مت السلو فاننى
آموت ولي شوق اليه مبرح

---

١٧ - في ق : يجلح ، بدل : مجلح .

فهرس القسم الأول

الصفحة	الموضوع
١٠٣	نشاط ابن عمار الأدبي أيام وزارته للمعتمد في إشبيلية .
١٠٨	**ابن عمار بين عامي ٤٧١ ـ ٤٧٧**
١٠٨	ابن عمار ومرسية
١١٣	البائيتان
١٢٠	الحملة الثانية على مرسية
١٢٤	تمرد ابن عمار في مرسية
١٤٢	ابن عمار وطليطلة
١٤٥	ابن عمار في سرقسطة
١٤٨	ابن عمار في سجن شقورة
١٥٢	ابن عمار في سجن المعتمد
١٥٤	التهم الموجهة لابن عمار
١٥٦	نشاط ابن عمار الادبي في سجن إشبيليه
١٦٥	مصرع ابن عمار
١٦٦	أحكام المؤرخين المسلمين على ابن عمار
١٦٨	**القيمة الأدبية لشعر ابن عمار**

فهرس القسم الثانى

فهرس الموضوعات والاغراض

فهرس المطالع والقوافي والبحور

أهم مصادر البحث

- ابن الأبار ، الحلة السيراء . مخطوط في المكتبه الوطنية في مدريد (نسخة مصورة منه فى مكتبه كلية الآداب والعلوم ببغداد)

التكمله لكتاب الصلة القاهرة

- ابن بسام (ابو على الحسن) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الاول ، طبع في جزءين فى القاهرة ١٩٣٩ و ١٩٤٢ .

القسم الثانى . نخسه مصورة في مكتبه كلية الآداب والعلوم ببغداد

مخطوط الرباط رقم ١٣٤٢

مخطوط القرويين (اجزاء متفرقة)

مخطوط مكتبه الآثار ببغداد

- ابن خاقان (الفتح) ، قلائد العقيان ، ط بولاق ١٢٨٣ .

مطمح الانفس ومسرح التأنس في ملح اهل الاندلس ط . الاستانه ١٣٠٢

- ابن الخطيب (لسان الدين) ، أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ط الرباط من قبل لبفي بروفنسال .

السحر والشعر ، مخطوط الاسكوريال رقم ٤٢٠

- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ؛ ط القاهرة ١٣١٠

- ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر ، بولاق ١٢٨٢
- ابن دحية الكلبي ، المطرب في أشعار أهـــل المغرب ، مخطوط المتحف البريطاني رقم ١٦٣١ .
- ابن زيدون (ابو الوليد احمد بن عبدالله) ، ديوان ، ط القاهره ١٩٣٢ من قبل كامل الكيلاني .
- ابن ظافر . بدائع البدائه بولاق ١٢٧٨
- ابن سعيد (عبد الملك) . المغرب فى أخبـــار أهل المغرب ، القاهره ١٩٥٢ من قبل شوقي ضيف
- ابن سيد الناس اليعمرى ، نصوص اندلسية ، مخطوط الاسكوريال رقم ٤٨٨
- ابن عذارى البيان المغرب فى اخبـــار المغرب ، ج ٣ ط باريس ١٩٣٠ من قبل ليفي بروفنسال
- ابن عمار (ابو بكر محمد) ، ديوان ، مخطوط القرويين في فاس رقم ١
- ابن ليون التجيبي ، نفح السحر فى اختصـــار روح الشعر ، مخطوط الرباط ١٣٣
- ابو الفـــداء ، تقويم البلدان ، ط باريس ١٨٤٠ من قبل رينو ودى سلان
- الأندلس (مجلة) ، مدريد ١٩٣٥ ، ج ٢

- الحميدى ، جذوة المقتبس ، القاهرة ١٩٥٢ من قبل محمد بن تاويت
- الجراوى (ابو العباس) ، الحماسة المغربيه ، مخطوط الاستانه (مصور)
- شوقى ضيف (انظر ابن سعيد)
- صلاح خالص ، المعتمد بن عباد وشعراؤه (تحت الطبع)
اشبيلية فى القرن الخامس (تحت الطبع)
- عبد الله بن زيرى ، مذكرات ، الأندلس ، ج ٣ ١٩٣٥
- عماد الدين الاصبهانى ، خريدة القصر وجريدة أهل العصر ، ج ١١ مخطوط باريس رقم ٣٣٣٠
- عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، القاهرة ١٩٤٩ من قبل محمد سعيد العريان
- عبد السلام الطود ، بنو عباد فى إشبيليه ، طنجه ١٩٤٩
- كامل الكيلانى . (انظر ابن زيدون)
- ليفي بروفنسال ، (انظر ابن عذارى وابن الخطيب)
- محمد بن تاويت ، (انظر الحميدى)
- محمد سعيد العريان ، (انظر عبد الواحد المراكشى)
- محى الدين عبد الحميد ، (انظر المقرى)
- المعتمد بن عباد ، ديوان المعتمد بن عباد ، القاهرة
- المقرى (احمد بن محمد) ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، القاهرة ١٩٤٩ من قبل محى الدين عبد الحميد .

أهم المصادر الأجنبية

Dozy , R - Hisroire des musulmans d'Espaqne . Nouvelle edition , revue et mise au Jour par Levi - Provencal

Scriptorum arabum Loci de Abbadides , Leyde 1846 - 1853 , 3voL .

Garcia - Gomez , Une eclipse de la poesia en Sevilla a la epoqua Almoravides , Madrid , 1945

Poemas Araibgoandaluces. Collection Austral 1945 .

Gonzalez Palencia A ; - Historia de literatura Arabigo - espanola , Collection Labor , 1945 .

Levi, - Provencal, - Islam d'occident, ed . maisoneuve Paris , 1948 .

(انظر ابن الخطيب ، ابن عذارى)

Menendez Pidal - Espana del cid , Madrid 1947 2 vol ,

Nykle (A . R) - Hispano - arabic poetry and its relations with old provencal troubadours , ed . Paltmor 1946

Peres (Henri) , La poe'sie andalouse en arabe classique au xl eme siecle , Paris 1947 .

يصدر قريبا للمؤلف :

- المعتمد بن عباد وشعراؤه
دراسة أدبية تاريخية

- إشبيلية فى القرن الخامس الهجرى
دراسة تاريخية